

الرَّسُولُ ﷺ

حَيَاتُهُ وَتَطَوُّرُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَصْرِهُ

د. عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَسَائِمُ

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً
غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري



دار الفكر
بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً

غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري



جاءت هذه النسخة الإلكترونية في إطار

Title: Alsirah Ainbouhah

Editor: Dr. Abd alrahman Ahmed Salim

Pages: 224

Year: 2018

Printed in: Beirut, Lebanon

Edition: 1

Exclusive rights by ©

الطبعة الثانية - إعداد د. عبد الرحمن أحمد سليم - دار الكتب المصرية

م. عبد الرحمن

الطبعة الثانية - تأليف د. عبد الرحمن سليم

الطبعة الأولى - دار الكتب المصرية والنشر والتوزيع ٢٠١٨

٢٢٤ ص. ٢٢٤

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٠٠٠٠

ISBN: 978-977-4539-54-9

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً

غير مألوف بطبيعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري



عالم الأدب
www.aslamaladab.com

الكتاب: السيرة النبوية

للمؤلف: د. عبد الرحمن أحمد سليم

عدد الصفحات: ٢٢٤ صفحة

سنة الطباعة: ٢٠١٨ م

بلد الطباعة: بيروت / لبنان

الطبعة: الأولى

جميع حقوق الملكية الفكرية محفوظة

عالم الأدب، للنشر والتوزيع

مؤسسة عربية تملّك بنشر النصوص للترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



الهاتف: 00201099938130

البريد الإلكتروني: info@aslamaladab.com

الويب: www.aslamaladab.com

القاهرة - جمهورية مصر العربية

طغفون الطيب محمودة

يتم طرح أو تصوير أو ترجمة أو إعادة لتأليف الكتاب كلاً أو
أي جزء منه أو تسجيله على السجلات كسيت أو استغاث على الحاسب
أو نسخه على السجلات الإلكترونية أو بوسائل أخرى من النشر.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
تمهيد: عن أوضاع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام	١١
الفصل الأول، قريش ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية قبل الإسلام	٢٩
الفصل الثاني، الرسول ﷺ قبل البعثة	٣٧
الفصل الثالث، بعثة الرسول ﷺ وتطور الدعوة في مكة حتى هجرة المسلمين إلى الحبشة	٥٥
الفصل الرابع، الهجرة إلى الحبشة وتطور الدعوة في مكة حتى وفاة أبي طالب وخديجة	٦٩
الفصل الخامس، تطور الدعوة في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة	٩٥
الفصل السادس، الهجرة إلى المدينة ونشأة الدولة الإسلامية	١٠٩
الفصل السابع، تطور العلاقة بين المسلمين ومشركي قريش منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (٦-٦هـ)	١٢٣
الفصل الثامن، تطور العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (٦-١هـ)	١٧١
الفصل التاسع، من صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦-٩هـ)، اتساع نطاق الدعوة وتأكيدها هيبة الدولة	١٧٩
الفصل العاشر، دخول شبه الجزيرة العربية في الإسلام (من عام الوفود إلى وفاة الرسول ﷺ) (٩-١١هـ ٦٣٢/٦٣٠م)	٢٠٣
قائمة المصادر والمراجع	٢١٥

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً
غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

تمثل سيرة النبي محمد ﷺ أحد الموضوعات التي يتجدد الحديث حولها دائماً رغم غزارة ما كتب عنها في القديم والحديث، باللغة العربية وغيرها. وإن كل من يكتب عن الرسول ﷺ لواجبٌ في حياته معيّن لا ينضب من المواقف والدروس والتجارب التي تزداد ثراء وعمقاً بإعادة النظر فيها وإلقاء مزيد من الضوء عليها. وهذا الكتاب يمثل محاولة لتقديم الجوانب الأساسية في حياته ﷺ، دون الدخول في التفاصيل التي قد لا تسهم كثيراً في جلاء الصورة، بل لعلها تشتت انتباه القارئ. وقد أخذنا في الاعتبار أن تكون هذه الجوانب مستمدة من أوثق مصادر السيرة وأضبطها.

وتتعدد أنواع المصادر التي يعتمد عليها باحثو السيرة. فهناك ما يمكن أن نطلق عليه اسم المصادر المتخصصة في السيرة، ويأتي على رأسها سيرة ابن هشام ومغازي الواقدي من المصادر المتقدمة، وهناك العديد من المصادر المتأخرة في هذا الجانب، وهي تكاد تعتمد اعتماداً كاملاً على تلك المصادر المبكرة. ثم هناك كتب طبقات الصحابة، وهي التي تدور حول ما يعرف في السنة النبوية بـ«علم الرجال» وعلى رأسها كتاب «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد. ومن كتب المتأخرين التي تحتل أهمية خاصة في هذا المجال كتاب «أسد الغاية» لابن الأثير. وهناك مصدر أساسي

من مصادر السيرة يتمثل في كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة، ويأتي على رأسها بالطبع صحيح البخاري وصحيح مسلم. ومن مصادر السيرة التي لا ينبغي التقليل من أهميتها كتب التاريخ العام أو الحوليات، ولعل أهم هذه المصادر على الإطلاق «تاريخ الطبري»؛ فهو يتسم بغزارة مادته وتعدد رواياته وحسن عرضه مع تحري الدقة في هذا العرض. ومن المصادر المتأخرة التي تدور في هذا الإطار: كتاب الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وعيون التواريخ لابن شاكر الكنتي... على سبيل المثال لا الحصر.

هذا؛ وتمثل كتب الأنساب أحد المصادر الأساسية للسيرة. وينبغي هنا التنويه بصفة خاصة بكتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري، فهو غني بمادته التي يدور الكثير منها حول أحداث السيرة. والبلاذري يتحرى الدقة في تقديم مادته التي قد لا توجد أحياناً في غيره من المصادر.

بقي أن نشير أيضاً إلى الكتب الجغرافية أو كتب البلدان التي تتضمن كثيراً من المادة التاريخية، وهذه الكتب عديدة، ومن أشهرها كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي.

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن نتحدث عن القرآن الكريم بصفته مصدراً أساسياً من مصادر السيرة. صحيح أن إشارات القرآن إلى أحداث السيرة قد تكون مختصرة في كثير من الأحيان، ولكن أهميتها البالغة تكمن في وثاقته التي لا تقبل المناقشة. ويمكن أن يضاف إلى ذلك مصادر التفسير القرآني. فلا شك أنها من بين المصادر المساعدة في هذا المجال.

أما المراجع الحديثة فلا شك أنها تقدم وجهات نظر قد تكون في كثير من الأحيان جذيرة بالمناقشة، ويتضح ذلك بصفة خاصة في الكثير مما يكتبه الباحثون الغربيون، ويعتبر المستشرق البريطاني «مونتجومري وات» من أبرز كتاب السيرة الغربيين في العصر الحديث، فقد خصص لها عدداً من مؤلفاته، ورغم ما يوصف به «وات» من اعتدال فإن الكثير من آرائه يحتاج إلى إعادة نظر، وقد أشرنا إلى بعضها في هذا الكتاب.

ورغم أن كتابنا هذا قد أغفل كثيرًا من التفاصيل المتصلة بالسيرة النبوية فإننا نطمح أن يكون قد نجح في تغطية أهم جوانبها وفي إثارة فضول القارئ لمعرفة المزيد.

والله من وراء القصد..

د. عبد الرحمن سالم

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

التجزيئية

عن أوضاع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

المقصود بشبه الجزيرة العربية

يقصد بشبه الجزيرة العربية تلك المنطقة الواقعة في الجنوب الغربي من آسيا، ويحدها من الشمال بلاد الشام، ومن الجنوب المحيط الهندي وبحر العرب، ومن الشرق الخليج العربي والعراب، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج العقبة. وتنقسم شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام أساسية هي: تهامة، نجد، والحجاز، والعروض، واليمن، وترتبط هذه الأقسام بحل السراة، وهو أعظم حد شبه الجزيرة العربية، وهو يمتد من أقصى جنوبها في اليمن إلى أقصى شمالها في أطراف نادية الشام والمنطقة الواقعة غرب حل السراة حتى ساحل البحر الأحمر. تتميز هذه المنطقة، وهي تهامة، تسمى (تهامة) أو (العوز) والمنطقة المرتفعة الواقعة شرقي حل السراة سميت (نجدًا) لارتفاعها والمنطقة الفاصلة بين تهامة ونجد سميت (الحجاز) لحجرها بينهما^(١) والمنطقة الواقعة شرقي (نجد) حتى الحبحر العربي من بلاد اليمن والبحرين وما والاها سميت (العروض) «فتح العين» لاعتراضها ما بين اليمن ونجد وأطراف فارس^(٢) ونوع المنطقة الحامسة، وهي اليمن، في الحرة

(١) يقول معجم المدن، ج ٥ ص ٣٠٤

(٢) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٦

الحوي من شبه الجزيرة العربية، ويلحق بها عدن وحصرموت والشحر^(١)، ولا يعرف
عنى وجه لقطع سر تسمية هذه المنطقة باليمن، ويقال إنها سميت بذلك ليمنها
أو لوقوعها على بعين الكعبة^(٢)

سكان شبه الجزيرة العربية

استوطن لعرب شبه الجزيرة العربية منذ عهود موعنة في القدم، وقد اصططح
المؤرخون على تقسيم العرب إلى ثلاث طبقات

١- العرب البائدة وهم الذين رالت آثارهم من مسرح التاريخ، ولم يبق من
أحارهم إلا القليل، ومن قائلهم المشهورة عاد وثمود الذين ورد ذكرهم في القرآن
الكريم، ومنهم كذلك طسم وحديس^(٣)

٢- العرب العاربة وهم عرب الجنوب من أهل اليمن وما حولها، ويعرفون
بالقحطانيين، أي أبناء قحطان، ولا يعيبها هذا الدخول في تفاصيل احتلاف السببين
حول نسب لكامل لقحطان^(٤)، ولكن الذي يعيبها أن قحطان هو الجد الأعلى لعرب
الجنوب، أو لقحطانيين فمن أشهر قبائل القحطانيين حمير (تكسر الحاء وسكون
الميم وفتح اليم)، وكهلان، ومن أشهر قبائل حمير (قصاعة) التي يتبعي إليها السابعة
منوك اليمن لمشهورون^(٥)، ومن أشهر قبائل كهلان (طيء والأزد) وإلى الأرد
ينسب لآوس والمذرج^(٦)

(١) شحر (تكسر أوه وسكون توه) بين عدن وحمير بآفوق ج ٣، ص ٣٧١

(٢) أحمد حسن بريده تاريخ الأدب العربي ص ١ وانظر أيضاً

Ph Hitt History of the Arabs, P 44

(٣) ويطلق على هؤلاء العرب أحياناً مصطلح «العرب العاربة» انظر إلى حرم جمهورية أساب «العرب» ص ٦

أما عرب الجنوب الأثني ذكرهم فهم العرب القحطانيون

(٤) حول تفاصيل هذا جمع إلى أن حرم في جمهورية أساب العرب، ص ٧

(٥) ب فقه حصار ص ١٠٣ ١٠٤

(٦) حصار شبه ص ١٠٩

٣- العرب المستعربة. وهم عرب الشمال من سل عدنان الذي ينتهي سبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ويعرفون بالعدنانيين ولفظ «المستعربة» يشير إلى احتلاط دمهم بدم غير عربي والمعروف أن إسماعيل تروح من قبيلة جرهم العربية التي كانت تقيم نود قريب من مكة^(١)، ثم تعرب سله بعد ذلك، فهم العرب المستعربة، وأول من بُعد من العرب المستعربة عدنان الذي يختلف السامون في تفاصيل سبه، وإن كان الكل يجمع على أنه ينتهي إلى إسماعيل عليه السلام، ولعدنان من الولد معد، وعث وأشهر أولاد معد هو برار، وله من الولد مصر وربيعة وإياد (ويضاف إليهم أعمار أحياناً) ولصحيح المحض الذي لا شك فيه كما يذكر ابن حزم أن قاتل مصر وقاتل ربيعة «سبى برار، ومن تامل من إياد ومن عك، هم صرحاء ولد إسماعيل عليه السلام»^(٢) وإلى مصر تنتمي قبيلة السبى عليه السلام

طبيعة الحياة في شبه الجزيرة العربية وانعكاسها على أوضاعها الحضارية قبل الإسلام

تسمب منطقة شبه الجزيرة العربية بأنها هي معظمها جنداء غير ذات ررع، ومن ها فقد عتب عليها طابع الحياة البدوية التي تقوم على الترحال من مكان إلى مكان سعياً وراء الرعي حيث لا يُعرف لمطرها القليل مكان معنوم أو موسم محدد ولكن اليمن هي الجنوب تعد استثناء من تلك المنطقة معاً مسجها أنه من أمطر عريرة وطبيعة حصراء ومناح معتدل، ولهذا عرفت اليمن في التاريخ باسم «اليمن السعيد» Arabia Felix^(٣)، فلا عرو إذن أن تقوم في تلك القعة من شبه الجزيرة العربية أسس حصارة وطينة، حيث توافر لها من الظروف الطبيعية ما لم سواها من بقية أرحاء شبه الجزيرة، وإن حصارة مملكة سبأ وسد مأرب العظيم تشهد على ما سمعته هذه البلاد من رقي وعظمة

لم تمنع بقية شبه الجزيرة العربية إذن بما تمتعت به اليمن من طبيعة ساعدتها على

(١) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٢٥٨

(٢) حمارة أسباب العرب، ص ١٠

(٣) سفر سادس فيليب حتي كندا في كندا

الاستقرار ولتقدم وقد كان من الطبيعي والأمر كذلك أن تكون القيمة هي ركيزة الحياة الاجتماعية والسياسية في شمال شبه الجزيرة. حياة الجفاف والحشونة التي عاشتها هذه المنطقة جعلت الصراع من أجل السيطرة على ما يتاح من ماء ومرعى أمراً طبيعياً مألوفاً. وحيث إنه من المعتاد وجود حكومة مركزية تدير شئون مجتمع بدوي مستقل كهد وتخصص له أمة، فقد كان على الفرد أن يلتزم الأمر في حتمية قيمته، وكان على كل قبيلة أن تختار رعيماً أو سيداً يتولى أمورها، وبهذا أصبحت القيمة تمثل كياناً قائماً بذاته يسعى قدر طاقته إلى تأمين وسائل الحياة لأفراده، ولو على حساب غيره من الكيانات التي لا تتمتع بالقدر نفسه من القوة.

وقد استقت من هذا المفهوم للقبيلة العربية قبل الإسلام مجموعة من القيم والتقاليد التي تأصلت في حياة العربي الجاهلي، وكان بعضها إيجابياً بقاءً، وبعضها الآخر سلبياً مدمراً.

فمن القيم الإيجابية قيم الشجاعة والسخوة والكرم، فلا بد في ابن الصحراء الموحشة أن يكون شجاعاً، ولذا لما استطاع مواجهة مخاطرها واشتداد دأبها دون حيرة وشبهة، فهو يأبى الصيم، ويخف لنجدة المستغيث، أما الكرم فهو صفة كان يقدرها عرب الجاهلية حتى قدرها، لأن المسافر في تلك القياض القاحلة قد يعرض لحظر لموت إن لم يجد من يسقاه بالطعام أو الشراب أو المأوى. ولهذا كان إشعب السر في ليل الصحراء أمراً يحرص عليه الكرماء في ذلك الزمان حتى يهتدي على صوته من صل الطريق أو تفقد طعامه أو شرابه.

أما القيم السلبية التي سادت عند عرب الجاهلية فقد كان من أهمها انتشار روح العصبية العنيفة، وسيادة قانون القوة في علاقات الأفراد والجماعات وتحكم ترعة الثأر والانتقام في النفوس، وما يصحب ذلك من طيش واندفاع أعمى وراء الروايات الطارئة، ثم الحكمة المسحقة للمرأة في مجتمع ما قبل الإسلام.

ويرجع انتشار روح العصبية إلى أن حياة الجاهليين كما أسفنا كانت تدور حول محور القيمة، والقبيلة كانت تمثل وحدة سياسية مستقلة في ذلك الزمان ومن هنا كان انتفاء العربي كمالاً لقبيلته، فهو يرتبط بمصيره بمصيرها، ويسارع إلى نصرته في ميدان القتال، ولا يعيه بعد ذلك أكانت على الحق أم على الباطل.

وبعد بعد صدق لذلك التحليل الذميم في الأدب الجاهلي، ومن ذلك قول
شاعرهم

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَيْدَى نَاجِلِيهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٍ وَوَحْدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْتَبِهُمُ فِي النَّاقِيَاتِ عَلَيَّ مَا قَالَ بَرَهَانَا

أما سيادة قانون القوة فذلك أمر طبيعي حين تحظى الحكومات التي تتحدد في
دستورها حقوق الفرد وواجباته وتصور في الوقت نفسه حقوقه من أن يجازعها،
فلا يرى لأحد حيثى منهجاً لضياع حقوقهم وتأمين حياتهم إلا منهج القوة وكما
أعلن الفرد في أنواع هذا المنهج كان ذلك من وجهة نظره أنجب للأمن وأذعن
لنظامية، فليس عريفاً إذن أن نجد الشاعر الجاهلي زهير من أبي سُمَيْن يقول في
معرفته المشهورة

وَمَنْ لَمْ يَذْذَ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهَيِّئْ وَمَنْ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمَ

إن هذا يعني أن الله بالظلم كان يمثل في نظر الجاهلي وسيلة لدرء ظلم موقع
ومرة أخرى يقول إن احتفاء الحكومة أو السلطة الشرعية جعل العربي الجاهلي
ينغمص دورها ويمسك بالقانون في يديه، فلا يجد من سبيل إذا لحق به ظلم إلا أن
يثار لنفسه ويشع رغبة الانتقام في داخله والثار يؤدي إلى أثار وهكذا وحدث
قنابل أو شت أن بقي بعضها بعضاً نتيجة تلك الرغبة العارمة في الانتقام دون أن
تجد حكومة شرعية تقف في طريقها أو مدأ ديباً يكبح جماحها. والمؤكد أن كثيراً
من الأسباب التي أثارت حروب العرب في الجاهلية كان تأفهاً، ولكن المنس عدم
تحول إلا من دفع الانتقام والأثرة والعصاة تهبط إلى ذلك الحيوانية في علاجها
للأشياء وتعدّ حرب داحس والغبراء وهي الحرب التي استمر أربعين سنة
مثلاً وأصبحت على ذلك^(١) وإلى تلك الحرب يشير زهير من أبي سُمَيْن في قوله

(١) داحس والغبراء: سمى فرس كان لفرس بن زهير من حديقه الغصبي سمى ثعلباً ثلث له حرب بين فرس
وداحس وكان سيداً زهاداً يفر فرس بن زهير وحديقه من بلاد القروى (من بلاد) على سبيل التحليل وقد داحس
حديقه سباً فرس هذا لخطار وانجفاء ولكنه أمر بعض رجائه أن يقوم مسيرة داحس ولغيره في أكله
سباً ولم يها شئت الحرب المشهورة التي اشترك في بعض ملاحقها فرس بن شداد الغصبي
وتحدث عنها في شعره بغير التفاصيل داحس ابن الأثير تكلم في تاريخه، ج ١، ص ٥٦٦ ٥٨٣،
والمعجمي لأبي ج ١٧ ص ١٨٦-٢٠٨

بمدح هره من سدن والجارث من عوف

تداركتما غيبًا وقُيَّان بعدما تغانوا ودقوا بينهم عطر منشم^(١)

وهذا أيضًا تلك الحرب المدمرة التي شنت بين قبيلتي بكر ونعب الذين تسبب معًا إلى وائل، وهي الحرب التي أثارها مقتل كليب، وقد كاد كل من القيسيين أن تصي الأحرى، وقد استمرت هذه الحرب أربعين سنة كذلك^(٢)

ولا شك أن مخطأ مكانة المرأة في الجاهلية يرتبط بتلك العادات القديمة التي تحدث عنها. فإذ كانت العنصرية متحكمة في المعوس وقامون القوة هو السائد والصراع هو مبعج الحياة ومظمها، فمن الطبيعي أن يتصالح دور المرأة وتحفظ قيمتها في أرحاء تلك العادة. وقد بلغ استهتار الجاهليين بمكانة المرأة حدًا جعل بعضهم يقدم على قتل مولودته لأنثى دون وارع من صميم أو قامون. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحد القديم في غير موضع، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا نَسُوا مَا يُنْهَى عَنْهُنَّ لِيَكُنَّ قُلُوبُهُنَّ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ وَلَهُنَّ آيَاتُ كَثِيرٌ مَّا يَخَذَلْنَ﴾ [النحل ٥٨، ٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا نَسُوا مَا يُنْهَى عَنْهُنَّ لِيَكُنَّ قُلُوبُهُنَّ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ وَلَهُنَّ آيَاتُ كَثِيرٌ مَّا يَخَذَلْنَ﴾ [التكوير ٨، ٩]^(٣)

هذه لمحة خاطفة من صورة الحياة القبلية التي كانت مسيطرة عاداتها وتقاليدها على شعب شبه الجزيرة العربية. ولكن هذه المنطقة لم تحل تمامًا من معالم الحياة

(١) شبه (نصح شين وكسرها) يدا. أيها امرأة كاذبة بسكة عطاره. وكانت قراعه وشرفهم إذا أرادوا القتل تصوم من عهدها وكذا. وهذا دلالة على كثير الشيء مما سبهم فكان يدا. أنهم من عطر منشم، صعب مثلاً، وهذا أو. أخرى في بعضه من هذه النكسة راجعها في (سناد الحرب) لاس مطور، مادة التسمية. ولقد على أي حال أن عات ودان كانوا قد عرفوا على أن يحيى بعضهم بعضاً

(٢) رجع بعضنا في تكامل لابر الأخير ج ١، ص ٥١٣-٥٢٩، والأخائي للأصمعي ج ٥ ص ٣٤-٦١

(٣) ويبدو - برغم شدي في تفسيره لهذه الآية - أن كانت النكاح إذا أقرت حشرت حرة فتصحب على رأس جهره فلا يذهب بك ربه في الجهره. وقد ذكرت أنها حشنة ويصعب في هذا الشأن أن يصعب من ناحية الحد المذكور الشاعر كان مصر مع الترادف في الجاهلية. فلهذا القدر العرفي في قوله

ومما الذي مع التوائذات فأحيا التوكيد فليس تساو

نظر كشف، ج ٢ ص ٧٠٣-٧٠٨

و ذلك ما هي بعض الشيء كاذبة تدعى بأنها أحياه والمقصود بالتأكد لشرفات على الموت، وهو من قبل جحد. وفقدان يعرف نكته الذي مع هذه العادة دليل على مشاهد

الحضرية، وقد ما سوف نتحدث عنه الآن باحتصار

أهم المراكز الحضرية في شمال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

تحقق ملامح الحياة الحضرية في شمال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام في عدد من المراكز أهمها مكة، ويثرب، والطائف

أما مكة فهي تقع بين الطائف ويثرب في الحجاز، وهي إلى الجنوب من يثرب، وإلى الشمال الغربي من الطائف، وطبيعتها طبيعة وعرة، فالوادي الذي تقوم فيه تكتفه الجبال، وهو وادٍ غير ذي زرع كما وصفه القرآن الكريم وقد نوقع سبحة لهذا ألا تنهياً أسباب الحياة الحضرية لمكة

ولكن لوقع مكة تمتع موضع تجاري متميز، فقد كتب منتقى القوافل الحضرية القادمة من اليمن إلى الشام ومن الشام إلى اليمن^(١). وهذا الوضع المتميز لمكة أتاح لأهلها الثراء والمشاركة في تلك الحياة التجارية المزددهة وقد صرحت قيمة فريش سهم وافر في ذلك الشاطئ، وكانت هناك رحلات تجارية تشهد بمكة في كل عام، وهما رحلة الشتاء ورحلة الصيف. الأولى إلى اليمن، والثانية إلى الشام^(٢) وسوف نتحدث حديثاً مستقلاً في موضع آخر عن دور فريش في ذلك الشأن البحري وعن مكانتها في مكة بصفة عامة، ولكن الذي يعيب إيرادها هو أن مكة بحكم مكانتها التجارية المتميزة اكتسبت طابعاً حصارياً، وكانت تعسر في الواقع عاصمة ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربية، وذلك رغم الطبيعة الجافة القاسية التي كانت تحيط بها

عنى أن مكة تمتع بمكانة أخرى مهمة فوق مكانتها التجارية، وتلك هي المكانة الدينية الرفيعة التي جعلتها مهوى الأفتدة ومحط الرحال فالمكة بيت الله الحرام التي أشاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كانت في تلك القعة المباركة^(٣)، من إن بشاة الكعبة

(١) عن محمود المصطفى مطبع الثور من ١١٢ ١١٣

(٢) وقد أشار عمر - عليه السلام - إلى ترحيبه في قوله تعالى ﴿لَا يَدْرِي فَرَيْشٌ﴾ يكتمه بعد نشاء وأصبه
[فريش ١ ٢]

(٣) وهو - ياقوت - في تفسيره مكة مسجد الكعبة لأنها مكة على حاتم لكعب، ومن لكعب لمربع، ومن لكعب مربع مكة ومن سبب لارتفاع بنايتها وكل بناء مرتفع فهو مكة، ومنه لكعب ثدي لها يد و
علا في صدرها وارتفاع معبد شيطان ج ٤ من ٥٢٨

وتطرد بها تسع عمران مكة واستقرار إسماعيل ﷺ فيها عند قدومه مع أبيه إبراهيم ﷺ وأمه هاجر ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ مِمَّنْ دُرِّي يُؤْتِي بِوَدْعِ رَجُلٍ عَدُوٍّ لَهُ فَأُخْرِجَهُ رَجُلَانِ فِي بَعْثٍ مِّنْهُمَا فَيَقُولُ أَمْ يَكُنَّ لَكَ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّكَ أَمْ تُؤْتِي مَالَهُ فَتُؤْتِي الْمُنَىٰ فَنَقُصِّلُ الْفَصْلَ لَكُم مِّنْ دُونِهَا فَذَكَرَ الْعِلْمَ لَهُمَا فَيَشْكُرُونَ لَهُمَا﴾ (إبراهيم ٣٧)، وقد كان اسحاق عيب ررم استجابة إلهية لدعاء الحبيب إبراهيم ﷺ وأصبحت مكة ﴿مَرَمًا كَايَا تُحِبُّ إِلَهُ شَرَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [القصص ٥٧] وبصمت إلى مكنيتها التجارية مكانتها الدينية لتجعل منها مركزاً حصارياً متميزاً، وسحق بجدرة لقب «أم القرى»^(١)

أما بئر وهي التي عرفت باسم "الحدبية" في العصر الإسلامي فيها لم تدفن مكة في مكاسب التجارة أو الدينية رغم أن أهلها كانوا على قدر لا بأس به من الاستعداد ولاحد بأسباب الحصار وكان سكانها يتكئون في جمدهم من العرب واليهود أما العرب فيمثلون في قبلي الأوس والخزرج الذين تسميان معاً إلى قبيلة الأزد اليمنية وقد هاجرت كلتا القبيلتين من اليمن بعد انهيار سد مأرب الذي بضعه بعض المؤرخين في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي^(٢) أما اليهود فهم قائلون في قبضة وهي قُرْبطة وهي النضير وقد ورث الأوس والخزرج كثيراً من الفوائد الحصارية عن أجدادهم اليمنيين، كما عُرف اليهود أيضاً بشطهم البحري وبهمامهم لتفديدي بالصياغة وبعضهم المهري الأخرى كالزراعة والتجارة وصنع الأسلحة وهكذا تجلى الطابع الحصري في مجتمع بئر بوصفها وبئر مثل مكة كدس في لاصل محطة على الطريق التجاري المعتمد من الجنوب إلى الشمال، أي من اليمن إلى الشام^(٣)

وأخيرًا، تأتي إلى الطائف، وهي إلى الجنوب الشرقي من مكة، وقد تحير باعتبار
مناخها مما شجع على الاستقرار فيها، كما تمتعت بالحياة الناجية التي حولت أرضها

(١) يقصد بالحكمة في سبيل لغوي التذكية أو التواضعة، فأما لغوي هي أنه يُمدد أو تُعو صر أي لخصه
سبحر حديث، وهي السبل الغريب ﴿لَقَدْ رَفَعْنَا فِيهِ ذِكْرَهُمْ فَهُمْ لَا يَلْمِزُ أَفْئِدَةً تَبْغِي الْوَحْيَ وَنَزَّاهُ عَنْ حُلْفٍ﴾ [الشورى ٧]

67 De lazy élcary *History of Arabia Before Muhammad*, P. 89

عدا ولا يفسد جز، جزون جزون - تاريخ القدس (لها: عبد عازب، الذي يسكن القدس حدوده إلى وقت أسس
منا ذكرنا راجع جزاء على الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٣٨٨ ٣٨٧

إلى سائتين حافلة بأنواع الثمار، واشتهرت على الأخص مسائتي العنب والتين الجودة الذي «لا يوجد مثله في بلد من البلدان» كما يقول ياقوت^(١) وعرف أهل الطائف بالثراء الوافر وكانت لهم حصونهم المتينة وتمثل قبيلة «ثقيف» أهم العصور التي تكوّن منها مجتمع الطائف وهي تنتمي إلى قبيلة عيلان من مصر^(٢)، فهم من عرب الشام العدنانيين وكان بالطائف أيضًا قوم من حمير وقوم من قريش^(٣)

إن ما ينبغي أن يؤكد هنا أن هذه المراكز الحصينة في شبه الجزيرة العربية لم تكن إلا استثناءات حارحة على سطر الحياة العام هناك، ولم تؤثر هذه الاستثناءات بصورة كبيرة في سيطرة الحياة القبلية عاداتها وتقاليدها على شبه الجزيرة العربية في

محمدي

إمارتا اللخمين والفسانة ظروف نشأتها وطبيعة دورهما

لا شك أن حياة الجفاف والفقر التي سيطرت على شبه الجزيرة العربية جعلت بعض القبائل فيها تتخذ من غارات السلب والنهب على المناطق المتاخمة الأكثر عن أسوة للحصول وسائل العيش، وقد كانت الأقائيم المجاورة التي تنسج بالحصب والثراء هي تلك التي كانت تنتمي إلى إمبراطوريتي الفرس والروم، فالعراق إلى الشرق كان يحصص لسيطرة الفرس، والشام إلى الشمال كان يحصص لسيطرة الروم وهكذا وحدد بدو الجزيرة العربية يشنون غارات متوالية على تلك الأقائيم، مما شكّل مصدر إزعاج لدولتي الفرس والروم وكان على الدولتين أن تفكرا معًا في وسيلة تفضح حدًا لتصدع تلك لغارات ومن هنا تهيأت الظروف لنشأة إمارتي الدحيميين والعدنانية

١ إمارة اللخمين أو مملكة الحيرة

يشي للدحيميون إلى قبيلة كهلان التي تنتمي بدورها إلى عرب النعمان القحطانيين وقد نشأت إمارة اللخمين بمدينة الحيرة بالعراق في حدود سنة ٢٤٠م تحت رعاية الفرس لسائتين؛ وذلك لتحقيق أهداف السياسة الفارسية في المنطقة، وعلى رأس هذه الأهداف صد غارات السلب والنهب التي دأب عرب شبه الجزيرة العربية على

(١) معجم البلدان ج ٤، ص ١١

(٢) ابن حزم حميرة أساطير العرب، ص ٢٦٦

(٣) ياقوت معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠

توجيهها صد حدود الإمبراطورية الفارسية، وهكذا قامت مدينة الحيرة تحت إمارة النحشيين بدور المنطقة العازلة Buffer Zone وأدت العرض الذي أدته الفرس للنحشيين على حبر وجه وكان من بين المهام الأخرى التي اصطنع بها النحشيون في الحيرة دعم الفرس في صراعهم الطويل ضد البيزنطيين (الروم) ورغم أن الفرس لم يكونوا أهل كتاب فإنهم سمحوا لعرب الحيرة باعتناق المسيحية النسطورية التي كانت تناسب المذهب الملكاني العداء، وهو المذهب الذي كانت تدبر به الكنيسة البيزنطية وقد بلغت إمارة الحيرة قمة مجدها في عهد المنذر الثالث ابن ماء السماء الذي كان معصراً للإمبراطور الفارسي كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) والإمبراطور البيزنطي جستين الأول (٥٢٧-٥٦٥م) ولكن دولة المائدة النحشيين بالحيرة بدأت تندهور بعد مقتل المنذر الثالث سنة ٥٥٤م على يد الحارث بن حبة العباسي حليف البيزنطيين^(١)، وانتهى الأمر بالفرس إلى أن يفقدوا ثقتهم بالنحشيين، وقد عصب الإمبراطور لندرسى على العماد بن المنذر ملك الحيرة النحشي (وممدوح السبعة الديلمي) محسبه حتى مات في محسبه سنة ٦٠٢م، وبموته قضى الفرس على حكم النحشيين في الحيرة وأحصعوا المدينة لسيطرتهم المباشرة^(٢)

ب- إمارة القسطنطينية بالشام

العاصمة هم أبو مارن بن الأردن، وينتهي سهم كما ينتهي نسب أبناء عمومتهم النحشيين إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان؛ فهم يتمون إذن إلى عرب اليمن لقحطانيين

ولا يعرف على وجه اليقين تاريخ هجرة العاصمة إلى الشام، وإن كان بعض المؤرخين لمحدثين يرجح أن هذه الهجرة بدأت في حدود عام ٢٥٠م^(٣) وهذا يعني أن وجودهم في الشام سبق وجود البيزنطيين هناك وعندما فرض البيزنطيون سيادتهم على الشام استعانوا بالعاصمة في تدعيم نفوذهم

(١) Olcary, Arabia Before Muhammad, p. 165

(٢) راجع مادة «حيرة» في دائرة المعارف الإسلامية (نظمه العرب) مقال بول بول Buhl وعروة شهب، ج ١٦، ص ٢٣٤-٢٣٨

(٣) د عبد الرحمن سالم المسلمون والروم في عصر السرة، ص ٣٦-٣٧

في ذلك الإقليم وولّوهم الإمارة على جميع القبائل العربية الحقيقية على الحدود بين الشام وشبه الجزيرة العربية مثل حذام وكلب وحبيّة والقيين وبهراء وبنّ وتونح وسميح وغيرها من قبائل العرب وعقد البيروطيون مع العباسية حلفاً قام على أساس الدّرع المشترك، بحيث بقّده العباسية للبيروطيين العون العسكري ضد القبائل العربية التي تهاجم حدود الإمبراطورية البيروطية وحدّ الحرس، كما يقدم البيروطيون من حاسمهم للعباسية العون العسكري اللازم إن تعرّصوا لهجوم معائن

وقد اعتمدت العباسية المسيحية في عصور القرن الرابع الميلادي وحدلول، شرهه بين القبائل العربية الأخرى وحصولاً في الشام ومدينة حوران باليمن، ولكن المسيحية التي اعتنقها العباسية كانت على المذهب الحنوفيري^(١١) (اليعقوبي فيما بعد) المعارف للمذهب الملكاني (الديوفيري^(١٢)) وهو المذهب الرسمي للإمبراطورية البيروطية

ولم يحدد العباسية مركزاً ثانياً بالشام بل كان لهم معسكر متنقل، وأمر الأماكن التي رتبهم بها إقليم حوران وعاصمته بصرى، وإقليم الحولان وعاصمته الحبيّة، وقد مثلت مدينة بصرى أهم مركز ديني للعباسية، كما مثلت الحبيّة أهم مركز سياسي لهم، وقد كان الحبيّة (حلب) جنوبى حوران دور سياسي مدحوظ في تاريخ العباسية، وهي التي أشار إليها حسان بن ثابت في قوله يمدح العباسية لله در عصابة ناصتهم يومًا يخلق في الرمان الأول^(١٣)

وقد شهدت إمارة العباسية قمة مجدها في عهد الحارث بن حنّ الذي سبق بالأعرح، ويعرف أيضاً بالحارث بن أبي شعر أو الحارث الرابع، وقد حكم من حوالي سنة ٥٢٩ إلى ٥٦٩م واتخذ من الحبيّة مقراً له وكان الحارث من حنة كطيره

(١١) وهو يعني مذهب طائفة النواخذة في البلد المسج أي الطائفة - لاهية

(١٢) وهو يعني مذهب طائفة في البلد المسج الطائفة - لاهية وتشتهر بشريه

(١٣) ديوان حسان بن ثابت الأندلسي يشرح عبد الرحمن الشرفي (دار الكتاب العربي بيروت) ص ٣٦١ وقد يفسد بعض النسخة دمشق انظر باقوت مجمع المثلثان ج ٢ ص ١٧٩ وقد حاولت بعد التمس في قول أمير شعر، أحمد شوقي

قم ساج خلق وانشد رسم سن ساسوا مشيت صليبي الرقيم أحداث وأرماد

شودت (طبعة مكتبة تحريه تكري بالهاتف) ج ٢، ص ٩٥

المصدر الثالث للحجى ملك الحيرة معاصرًا للإمبراطور البيزنطى جسيان الأول، وقد أعنى لإمبراطور مملكة الأمير العباسى، وأقره على كل القسطنطينية بالخدم، ومن هنا جمع عليه لقب «فيلارخ» Phylarch الذى يعنى شيخ القسطنطين، وأعنى عليه برتبة الطریق Patricus لئى كان فى المرحلة التالية لرتبة الإمبراطور^(١)

وبعد وفاة لحدوث من حلة سنة ٥٦٩م تولى ابنه المنذر إمارة العباسية حتى سنة ٥٨١م، وهو الذى شهد حكمه مولد محمد بن عبد الله سنة ٥٧٠ أو ٥٧١م. ومنذ إمارة المنذر ابن الحارث بدأت العلاقات بين العباسية والبيزنطية تتجه نحو التدهور، وقد كان ذلك راجعًا لعدد من الأسباب يأتي على رأسها الصراع الدينى بين الجاسين. فقد أرادت الكنيسة البيزنطية أن تفرض مذهب الطيعتين (فى العيد المسيح) على الكنيسة العربية فى الشام، لئى كان تؤمن بمذهب الطيعية الواحدة، ولكن الكنيسة العربية وقفت صامدة أمام الصعوبات البيزنطية، وتمسكت بمذهبها، فكان لذلك أثره السدى على العلاقات السياسية بين الجاسين. وقد ثار العباسية على البيزنطيين بقيادة العبد ابن المنذر بن الحارث بن جلة، ولكن البيزنطيين تمكنوا من أسره وإرساله إلى القسطنطينية سنة ٥٨٢ أو ٥٨٣م^(٢). ونتيجة لهذه العلاقات المتوترة لم تقدم العباسية ولا عرب لشاء نصبة عامة عونًا ملحوظًا للبيزنطيين عندما دهم العرب عمارسى بلاد الشام سنة ٦١٣-٦١٤م. ولكن يبدو أن الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) حاول فى وقت لاحق أن يصل ما انقطع من علاقات البيزنطيين بالعباسية، ومما ترويه مصادر فى هذا الصدد أن حلة بن الأيهم -آخر ملوك العباسية انضم للبيزنطيين فى معركة اليرموك (فى خلافة عمر بن الخطاب) ثم أسلم، ولكنه ارتد بعد إسلامه بقبيل، ولاحق بالروم^(٣)

(١) بريدك: أمراء عباد، ص ١٢ وما بعدها، محمد كرد علي. حفظ الشام ج ١، ص ٦٧

(٢) تسمى من التفاصيل حول علاقه العباس بالبيزنطيين فى تلك الفترة أوجع إلى حوله على تفصيل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٤١٢-٤١٧ وانظر أيضًا

Trimmigham, Crustanty among the Arabs, PP 185-187

(٣) حول إمارة انصاسه بالشام وتطور العلاقه بينها وبين البيزنطيين أوجع إلى حد آخر على صامد تسمى بالروم فى عصر النبوة، ص ٣٦-٤٦

أديان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

رغم أن المجوسية كان لها أنصار بين سكان شبه الجزيرة العربية، ورغم أن اليهودية والنصرانية يُبَيَّنُ أن لهما وجود ملحوظ في تلك المنطقة، فمن الممكن أن نقرر مطمئنين أن الوثنية كانت أعمق جذوراً من كل هذه الأديان في أرض شبه الجزيرة العربية.

لقد كانت المجوسية معروفة في قاتل تميم، ويروى أنها كانت شائعة أيضاً بين قاتل الحزير، مطراً لقرمها من فارس. ويفسر الأستاذ العقاد شيوع المجوسية في هذه القاتل بأنها «كسب سهلة هبة عليهم لا تكلفهم ساء الهياكل ولا نحس الأصنام، ولا يكرون في عبادتها للآثار شيئاً» لأن إشعاع النيران لقرى والاستسقاء وإشهر الحنف لم تكن محمولة في المادية العربية، ولعلمهم سقوها إلى عادة بعض الكواكب لأهم كانوا أحوح إلى رصد الأنواء والاهتداء بالنجم في سفر الليل^(١).

أما اليهودية فقد عرف طريقها إلى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بعدة فروع، وقد كسب هناك مركز مختلفة لليهودية في بلاد العرب، ومن بينها تيماء، وذلك، وخيبر، ووادي القرى. ولكن لعل أبرز هذه الأماكن من حيث التجمع اليهودي بها كان اليمن ويثرب.

وقد ارتبطت لليهودية في اليمن بملوك حمير، وخاصة تاملوك دي نواس^(٢)، الذي كان شديد لعصب لليهودية، وهو الذي يقرن اسمه في كثير من مصادر الترجمة بمدحة نصارى نجران^(٣) التي يقال إنها حدثت سنة ٥٢٣ م^(٤)، وراح صاحبها حواري عشرين ألفاً^(٥). لقد أراد دو نواس استئصال المسيحية من اليمن، ويعكس أن تفسر ذلك تفسيراً سياسياً في ضوء الدوافع القومية، فقد كان مسيحيو شبه الجزيرة العربية (ومعهم الأحباش) يوالون البيزنطيين أعداء الفرس، وكان يهود اليمن مواليين

(١) عباس محمود العقاد، مطبع النور، ص ٢٧.

(٢) ويعرف في بعض من مصادر Damans وأصبح أخرى مثله، مطر حود علي لطف في تاريخ

عرب قبل الإسلام ج ٣ ص ٤١٢ ٤١٣ ٤١٩

(٣) تاريخ انطري ج ٢، ص ١٢٣، والتكملة لاس الأثير ج ١، ص ٤٢٩.

(٤) Trammugh, op cit 289

(٥) تاريخ انطري ج ٢، ص ١٢٣.

المعرس^(١)، فأردو نواس أن يقصى على مركز الولاء البيزنطي في دولته وعين مطمع الأحباش والبيزنطيين ويرى بعض المؤرخين أن مصارى نجران الذين تعرضوا لمذبحة ذي نواس هم «أصحاب الحدود»^(٢) الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى في سورة الشرح ﴿ثُمَّ لَمْ يَخُصَّ الْأَحْدُودَ﴾^(٣) لَكَ ذَاكَ الْوَعْدُ ﴿١٠﴾ بِذَرِّهَا عَلَى نَعْوَةٍ ﴿١١﴾ وَقَدْ عَلَ مَا يَقُولُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءُ﴾ [الروج ٤١-٧]^(٤)، في حين يرى آخرون أن هذه الآيات لا تشير إلى ذي نواس وأصحابه «لأن كلاً من اليهود والمصاري يؤمن بالله التعرير الحميدة»^(٥) وسواء أكتب هذه الآيات تشير إلى ذي نواس ومصاري نجران أم إلى غيرهم فإنه من الثابت أن مصاري نجران تعرضوا على يد ذي نواس لاصطهاذ وملاحقة، مما حدا بهم إلى أن يستغيثوا بالامبراطورية البيزنطية حامية المسيحية، ولم يكن الإمبراطور البيزنطي في ذلك الوقت (وهو حستين الأول)^(٦) في وضع يسمح له بإرسال حملة بعيدة المدى، فارتبط بتابعه ملك الحبشة المعروف باسم «الأسبيحة»^(٧) وطلب منه التدخل لإيقاف مصاري اليمن، فاستجاب ملك الحبشة ووجه حملة ضخمة إلى بلاد اليمن سنة ٥٢٥م^(٨) تمكبت من هزيمة ذي نواس وقتله والقضاء على مُدك الحميريين ووضع حد لبعود اليهودي في اليمن وقد استمرت اليمن مستعمرة حبشية حتى استشهد أحد أبنائها وهو سيف بن ذي يزن بالامبراطور الفارسي كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م) فأخضعه كسرى بجيش حلّص اليمن من سيطرة الأحباش في حدود سنة ٥٧٦م^(٩)، وأخضعها لمسيحية الفارسية التي دامت حتى ظهور الإسلام وانضواء اليمن تحت لوائه.

(١) Cf. O'Leary Arabia Before Muhammad, P 177

(٢) حول ذلك ارجع إلى د. محمد حسن شكل حياة محمد، ص ٩١

(٣) وهذا أو - أخرى في تفسير الشراء بأصحاب الحدود واحدها في جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن جرير الطبري ج ٣٠ ص ٨٤-٨٥

(٤) أحمد أسير فجر الإسلام ص ٢٦-٢٧

(٥) حليم دار - أوجيس لأبي Justin the Elder تؤلف حكاية لأسطورة بيزنطية من سنة ٥١٨هـ إلى

٥٢٧م، وقد اشتمل بحكمه عصر الأميرة المعروفة في التاريخ البيزنطي باسم «أميرة حسان»

(٦) جواد علي، استغنى في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٢١٣

(٧) Tramugham op cit., 299

(٨) P. Sykes. A History of Persia, vol I p 455

على أن اليهودية هي يثرب كاسب تختلف عنها في النيس، ذلك أن يهود يثرب لم يكونوا "على أرحح الأراء" عرباً تهودوا كما رأينا في النيس بل كانوا يهوداً أصلاء مرحوا، عن موطنهم فلسطين إلى الجزيرة العربية في حوالي القرن الأول أو الثاني للميلاد^(١) ويعني الاستاد العقاد شيئاً قاطعاً أن يكون يهود يثرب عرباً تهودوا^(٢) لأن القول بذلك على حد تعبيره "يستلزم منا أن نقرض أن العرب الأميين تطلعوا، لمسحور إلى اليهودية ثم تعلموا العربية ونفقوا في كتب التوراة ليقطعوا عن أسلافهم وليس في هجرة اليهود من فلسطين إلى بلاد العرب عراة أو ماقصة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم في القرن الأول أو الثاني للميلاد"^(٣)

وقد تكون يهود يثرب من قبائل بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير، والمعروف أن يهود بني قينقاع كانوا حلفاء الخرج في حربهم ضد الأوس، كما كان يهود بني النضير وبني قريظة حلفاء الأوس في حربهم ضد المخرج، ولم تكن علاقة اليهود بعضهم بعض علاقة تكافؤ ومودة، فلم يكن يربط بين بني قريظة وبني النضير إلا حسدهم لبني قينقاع ومحاولة لإيقاع بين الأوس والخرج^(٤)، ولهذا لم يقدم اليهود رغم أنهم أهل كتاب قدوة صالحة لعربهم من العرب الوثنيين المحيطين بهم، وصدق فيهم قوله تعالى ﴿سَتَلَقَّ كَلِمًا حَتَّى تَخْشَوْا فَمَا تُبَدِّلُوهَا كَلِمًا يَكْبَرُ يَتَخَبَّلُ أَنْفُسًا﴾ (الحجرات ٥)

(١) يثرب حديد وسج - يصح بعد حوالي هذه الفترة، ولا تقطع فيها كاريون أو سنروج برأي انظر كتابه سيرة بني محمد من ٢١٥-٢١٦، ويدي التردد عنه موشحومري وات في كتابه Muhammad at Medina، P ١٩٢ ولكنه يصف بني قينقاع اليهودية الثلاثة في السديس سنة في ثلثه شيء يروي ما يدعى عن أصحابه عربي خرج عنه من ١٩٢ أما ديلاسي أو شيري فطرح أحسن - صده في صده إلى أصل عربي أما سره في سنة وهو النضير يرى أنها مثلان يهوديتان فهاجرتا إلى شبه الجزيرة العربية بعد تدمير هكس سمنس سنة ٧٠م، أو بعد طرد الإمبراطور الروماني هادريان لليهود من فلسطين سنة ١٣٢م، انظر

Arabia Before Muhammad P 173 f

ويلاحظ أن أي خرج لأصحابه ما بعد أن يهود في قريظة وبني النضير يهود أصلاء وليس عرباً تهودوا .

نظر الأحمدي ج ٢٢، ص ١٠٩-١٢٨

(٢) عيس بعدد مطبع انور ص ٤٥

(٣) المرحوم اسلم ص ٤٣

وقد وجدت المسيحية أيضًا طريقها إلى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولعل أهم مركز للمسيحية على الإطلاق في شبه الجزيرة كان نجران في شمال اليمن، وكان لمعاصرة ولأحدث الدور الأكبر في نشر المسيحية في شبه الجزيرة العربية بصفة عامة وفي مدينة نجران بصفة خاصة، وذلك بتشجيع الإمبراطورية البيزنطية التي كادت تُعَدُّ معقل للمسيحية لاكثر في العالم في ذلك الوقت، وكانت ترى في نشر المسيحية في أي مكان دعمًا لقوفها السياسي. على أن المسيحية التي انتشرت في نجران (وفي غيرها أيضًا من أرجاء شبه الجزيرة العربية) كانت عنى المذهب النسطورية (اليعقوبي)^(١) لتقاتل بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح، ولم تكن عنى المذهب النسطورية (المنكاسي) لتقاتل بالطبعتين، وهو المذهب الرسمي للإمبراطورية البيزنطية. وقد ظهرت المسيحية في أماكن أخرى من شبه الجزيرة العربية غير نجران، فقد وُجدت عدة قديس انتشرت فيها المسيحية ومن أهمها تعلب وبهراء وتوخ ولحم وحدام. بل إن لمسيحية كان لها أتباعها أيضًا بين قبيلة قريش نفسها بمكة وقد كان أبرر هؤلاء ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى من قصي الذي فنصر واستحكم في البصرائية وقرأ الكتب على حد تعبير بعض المؤرخين^(٢)، ومن هؤلاء أيضًا ابن عمه عثمان بن الحويرث بن أسد الذي ذهب إلى ملك الروم (الإمبراطور البيزنطي) باسمه أنه أسد بن عبد الله في أن يصحح سلطانًا على مكة، وذلك في مقابل أن يقوم ابن الحويرث بنشر المسيحية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ولكن عثمان توفي بعد ذلك بقليل^(٣) والأمر الذي يجب أن نؤكد هنا رغم ذلك أن انتشار المسيحية بين قريش بمكة كان محدودًا للغاية.

(١) سب المذهب النسطوري الذي يعترف بالتداعي مطران الرها لأنه كان أكثر دعائه في الشرق وقد كان الأمير الساساني الحارث بن جبلة عنى خلافه مع الإمبراطور البيزنطي جستار الأول، كما كتب لاسر حواء ثودس (روح جستار الأول) مخاطبه مع النسطوريين. وقد استطاع الحارث بمعه ثودس أن يحصل من جستار عنى فور تعيين يعقوب التبادعي مطرانًا لملكه النسطورية في بلاد الشام، وعن يعقوب التبادعي حتى وفاته سنة ٥٧٨م يعقوب التبادعي انتشره محاولًا توحيد دلائله جمعها تحت به المذهب النسطوري وتوحيد بثة الروح في هذا المذهب، فنسب إليه العديد من التفاصيل ارجع إلى

De lacy olcary, Arabia Before Muhammad, P. 139f

(٢) محمد بن حبيب المصيرى، ص ١٧١، وانظر أيضًا ابن كثير البداية والنهاية ج ٩، ص ٢٢١

(٣) العديد من التفاصيل ارجع إلى محمد بن حبيب المصيرى، ص ١٧٨ وما بعده

غير أنه يسعى أن يقرر أن الأديان التي ذكرناها الآن (وهي المجوسية واليهودية والمسيحية) رغم انتشار بعضها في أماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية لم تستطع أن تفسد لوثة في هذا المجال، ويقدم الباحثون أساساً عدة لظهور الوثنية ثم انتشارها بين العرب لعل أحراها ما نقول هو أن العرب في البداية كانوا يحمون حلال أسفارهم حصرة من الحرم تعبيراً عن حبهم وتعظيمهم لذلك المكان المقدس وتذكيراً لهم بمكة. ولم يكن ذلك التصرف في عهده الأول يظوي عن أي دلالة وثنية، فقد كانت لمكة الحقيقية التي أنشأها إبراهيم عليه السلام ما تزال تعمر بقوس هؤلاء، فما طال بهم الأمد وبعد عهدهم بنين إبراهيم عليه السلام لم تعط الأجيال اللاحقة إثناً أن أسلافهم لم يُعظموا، الحصرة لذاتها بل كانوا يعظمون ما ترمز إليه وهو مكة والميثم الحرم، فما احتسب الصلة بين الزمر والحرموز إليه أصبح تعظيم الحجر مقصوداً لذاته^(١)، ومن هنا شأب عدة الأصنام ثم اتسعت، وتحوّل الكثير من العرب إلى وثنيين يعدون من دواب الله كهة صنعوها بأيديهم، وقد بلغ رسوخ هذه العقيدة في أنفسهم حدّاً جعلهم يبدلون الدم ولحم في سبيل الدفاع عنها والصد عن دعوة الوحيد الذي أتى بها محمد ﷺ، كما يتوضح ذلك في موضعه من هذا الكتاب

ولملاحظ أن عادة الأصنام عند العرب تأثرت بالعصية القديمة، فقد رأيت القائل العربية الكبرى تفسد في اتخاذ أصنام خاصة بها^(٢)، فكان هُزل (في جوف الكلمة) كثير الألهة وكان صنم قريش الأول^(٣)، ونأني بعده العزى من حيث الأهمية عند قريش^(٤)، أما اللات فقد كان مقرها الطائف^(٥)، وكانت أهم صنم عند ثقيف، ورغم أن مكة (على ساحل البحر بين المدينة ومكة)^(٦) كانت صمماً يحظى بتقدير العرب

(١) . جع تفاصيل في تاريخ الإسلام والحصار الإسلام للذكور أحمد شمس ج ١ ص ٨٩ ٩٢

(٢) تاريخ شعوبي ج ١ ص ٢٥٥

(٣) حصن ص ٢٥٤

(٤) والعزى في أصله عبدة عذراء وكان مقرها بعلبك ولكن قريش كانت تعظمها يروي أبو حنبل أن سعد بن عبد الله، معركه أحد وهب يصح ما على صوته تسبح لعل من عن أن العزى ولا عزى

كذلك تاريخ شعوبي ج ٢ ص ٥٢٦

(٥) تاريخ شعوبي ج ١ ص ٢٥٥

(٦) يذكر شعوبي أن مكة كانت مقصوداً بعدة مما يلي ساحل البحر. وكان للأوس وتخرج تاريخ شعوبي ج ١

ص ٢٥٥

جميعاً فقد كذب لاوس والحروج تحفته معريد من العظيم وتذبح له القرابين، وهذا أصنام أخرى لقتال أخرى لا يعيبا الحوص في تفاصيلها هنا^(١)

وقد بطل لعنة أن سيطرة هذه الروح الوثنية على العرب الجاهليين قطعت الصلة بينهم وبين ملة إبراهيم عليه السلام. ولكن الواقع أنه وجد بين هؤلاء العرب من لجأ إلى فطرته الصادية فهدى إلى عبادة الله الواحد وبذ عبادة الأصنام، وأبرز مثل عن هؤلاء «المحتشيين»^(٢) أو «الحقفاء»^(٣) زيد بن عمرو بن نفيل من عبد العري الذي كان لا يأكل إلا ما ذبح على اسم الله وحده، وكان زيد يقول عن نفسه «يا معشر قريش والله ما أصمم على طهر الأرض أحدًا على دين إبراهيم عيري» وكان يسبح ربه قنلاً «المهم لو أمي أعلم أحب الروح إليك عدتك به، ولكني لا أعلمه» وفي ريد هذا قال ﷺ إنه «يبحث يوم القيامة أمة وحده»^(٤)

ومهما يكن فلا بد أن نقرر أن أمثال زيد كانوا قلة بين العرب الوثنيين، وكانت هذه القلة أيضاً في حاجة إلى تبصير بحقيقة الدين الخالص

(١) معريد من كذا معني رجع إلى د أحمد شلبي التاريخ الإسلامي، وتخصرلة للإسلام، ج ١ ص ٩٣ ٩٤
(٢) يقول ابن منظور: «المحتش: المذبح والأصنام» أنه يروي عن ابن سدة قوله «وهذا عدي على السب كأنه يعني بسدة» بحث الذي هو (الله) عن عبده كقولهم تعالي «ويزن ثقي مهجدة يدعاً لله» [الاسراء: ٧٩]
أي بعد هجود عن عبده وبشره تائه وتجاوز أي يعني (الله) وشعوب» رجع مادة احش في سار العرب لابن منظور، ج ٢ ص ١٠١٨ ١٠١٩

(٣) حده في سار العرب لابن منظور: (مادة حصد) «حصد عن الشيء» وتصحب من» وتصحب تصحب من»
يتصحب عن (الله) أي يحل إلى العن وفي هو الذي يتصحب فله ثبت ثمرة عن منه برهم

(٤) حول أخبار زيد بن عمرو بن نفيل راجع أسد الغابة لابن الأثير، ج ٢ ص ٢٩٥، والأعني للأصنام، ج ٣ ص ١٣٣ ١٣١

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل الأول

قریش ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية قبل الإسلام

قریش بين القبائل العربية:

تنقسم القبائل العربية كما ذكرنا إلى قسمين أساسيين: القحطانية والعذنية. وقد ارتبط القحطانيون بحوض شبه الجزيرة العربية أو اليمن، كما ارتبط العذنيون بشمال شبه الجزيرة العربية، وتعد مكة المكرمة موطنهم الأصلي.

وقد تفرعت من العذنيين قبائل مصر وريعة وإياد وأسماء، وتفرعت من مصر قبيل عيلان بن مصر وثياس بن مصر، وتفرعت من إثياس مصر قبائل عدة أشهرها تبعم وهذيل وأسد بن حزيمة والنهول بن حزيمة، وكنانة بن حزيمة^(١)

وتتبع قریش إلى كنانة، وهي تنقسم إلى بطون شتى منها جُمُح وسهم وغدي ومخزوم وتيم وزهرة وعد النادر، وعد مناف^(٢)

الآراء حول اشتقاق كلمة «قریش» ومعناها

تحتف الآراء حول اشتقاق كلمة «قریش» ومعناها، فقول إنها مأخوذة من تَقَرَّش بمعنى تَحْمُج بعد الحرق، وقيل إنها من التَقَرَّش بمعنى الشكيب والشجيرة. وقيل بل هي تصغير كلمة «قَرَش» وهي سمكة البحر المعروفة، وقيل غير ذلك. والواقع أن كل هذه الآراء لا تستند إلى دليل قاطع؛ فكثير من أسماء الأعلام تفقد دلالتها الأصلية

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص ١٠ ١١

(٢) لشمسودي: مروج الذهب، ج ٢ ص ٩٩

نقداد العهد ولا تعي أكثر من الحسمي الذي تشير إليه، ويبدو أن أصحاب هذه الآراء اسندوا في تفسير تهم هذه إلى ما اشتهرت به قبيلة قريش من صواب أو أنشطة صحو لولا الربط بين سم «قريش» وبين كلمات تفيد هذه المعاني فائرأي الذي يذهب إلى أنها مأخوذة من التقرش بمعنى التجمع بعد التفرق يستند إلى ما قام به قصي بن كلاب من لم شذاب قريش وجمعهم بالحرم، ولهذا قال الشاعر حذافة بن عامر العدوي في حديثه لقريش^(١)

أموكم قصي كان يُدْعَى مُجْمَعًا به جمع الله القبائل من فُهِر^(٢)

ولرأيي لذي يذهب إلى أن الكلمة مأخوذة من التقرش بمعنى السكسب والجارة بسند إلى لشدط لتجاري المتعبير الذي اشتهرت به قبيلة قريش^(٣)، أما الرأي الذي يربط بين الكلمة وبين سمكة القريش فهو يستند إلى ما عرفت به قريش من القوة والسيدة على غيرها من القبائل^(٤) ولا يههما البحث في أصول الأعلام عن أي حد بقدر ما يههما معرفة الحدلول الموضوعي لهذه الأعلام عن وجه الدقة

مكانة قريش من كنانة

يذهب الأكثرون إلى أن القرشيين هم هؤلاء الذين يتسبون إلى النصر من كدنة من حريمه من مدركة بن إلياس بن مصر بن بزاز من معد بن عدنان، والنصر هو قريش^(٥)، وهناك من يقول إن فهر بن مالك بن النصر من كنانة هو قريش^(٦)، ولكن الأرجح أن النصر هو قريش

(١) . جمع تصحيح دند في تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٠٥، ٢٠٦، البداية والنهاية لاس كثير، ج ٢ ص ١٨٧.

سكسب حرم - لاس مطبوع (مادة قرش)، ج ٥ ص ٣٥٨٦ ٣٥٨٥

(٢) من كثير بداية ونهاية ج ٢ ص ١٨٧ وحول أصل هذا لقب رجح أياف إلى من منه لمعد ف من ١٧٠ وتاريخ الخفوي، ج ١ ص ٢٤٠

(٣) ابن مطبوع لسان العرب، مادة (قرش) ج ٥ ص ٣٥٨٦

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٦٤

(٥) ابن قسمة معارف ص ٦٧ تاريخ الطبري، ج ١ ص ٢٢٣، سيرة ابن هشام، ج ١ ص ١٠٢.

ابن كثير البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨٦

(٦) ابن حزم جمهرة أساط العرب، ص ١٢

ويشير حديث رسول الله ﷺ إلى أن قريشاً هم صعوة كنانة، وذلك حيث يقول إن الله اصططفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم». رواه مسلم

نص للمعجم يدل أن يكون النصر وهو أصل قريش أمر أولاد كنة وكان لكنة من الولد سمير النصر ملك وملكان وعد ماء^(١)

ولكن مما لا شك فيه أن قريشاً تدين بالكثير مما تمتعت به من قوة وعود بمكة إلى قصي بن كلاب

مكانة قريش بمكة ودور قصي بن كلاب في تأسيس تلك المكانة

تعددت قبيلة «خُرهم» اليمانية بالسلطة زماناً في مكة بعد أن استطاعت طرد العمالقة من الحجاز وخُرهم هؤلاء هم الذين تزوج منهم إسماعيل عليه السلام وقد صارت سدة النبي الحرم ومفاتيحه لهم، وبقيت فيهم نحو ثلاثمائة سنة، فأكنوا من الكعبة الذي يُهدى إليهم واستحلوا حرمها^(٢)

ثم أكل سدة النبي ومفاتيحه إلى قبيلة حراة حيث انتهت أخيراً إلى رجل منهم يقال له سيمد (أو سليم) بن عمرو ويكنى أبي عشان، وكان أبو عشان هذا معاصراً لقصي بن كلاب الذي اجتمع معه على شراب الطائف، ويروي المؤرخون أن أبو عشان سكر في مجلسه هذا واشترى منه قصي سدة النبي برق حمر وتسم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك، وأرسل ابنه عبد الدار المفاتيح إلى الكعبة، فمدى عبد الدار بأعلى صوته «يا معشر قريش، هذه المفاتيح مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردها الله عليكم» فلما أفاق أبو عشان بدم حيث لا يسمع الدم، ولهذا قيل في المثل «أحسر من صفقة أبي عشان»^(٣)، وقال بعض الشعراء في ذلك

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمر، فبُغِثَتْ صفقة البادي
باعت سدانتها بالنزر وانصرفت عن المقام وظل البيت والسادي^(٤)

(١) ابن حزم جمهرة أساطير العرب، ص ١١

(٢) العلقمدي صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٦٢، سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٢٥

(٣) صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٦٣

(٤) انصاف هذه الصفحة نفسها

ولكن حرعة لم تستسلم بسهولة، فجمعت جموعها لحرب قصي، فاستصر قصي قومه مصروه، وكاتب لهم الكثرة على حراة، فأجلوهم عن مكة، فحدثت هذه المدينة لقصي وأصبح له الأمر بها وتولى شئون البيت الحرام، وذلك في حوالي منتصف القرن الخامس الميلادي، وكان أهم ما فعله قصي بعد ذلك أن جمع قريش من مدبرهم في لشعاب ورؤوس حائل مكة، فقسم مكة بينهم، وأمرهم مدبرهم الي. أصبحو عليها^(١)

وقد حظ قصي خطوة أبعد في سبيل جمع كلمة قريش ورعاية أمورهم، فأشأ «دار البدوة»، وكانت تُعرف أحياناً باسم «دار قصي بن كلاب» وجعل بابها إلى الكعبة، وفي هذه الدار كتب قريش تقصى أمورها، «فما تُكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي بن كلاب، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لقاءً لحرب قوم من غيرهم إلا في داره»^(٢)

وهكذا بدأت المكانة الاجتماعية لقريش في مكة تبرز وتتأكد على يد قصي بن كلاب. وكان قصي مسجوع الكلمة في قريش، «وكانت قريش في حياته، وبعد وفاته، يرون أمره كالذين المتبع»^(٣)

ولم تكن تلك المكانة الاجتماعية التي توانها قريش على يد قصي، راحة فقط إلى برولها بمكة وإنشاء دار البدوة، بل كانت راحة كذلك إلى قيام قصي، ثم أولاده من بعده، بمسئولية رعاية البيت الحرام، كما أشرنا آنفاً، ذلك أن الكعبة المكرمة كانت موضع إحتلال لعرب جميعاً، ومن هنا فإن من يتولى القيام على أمورها لا بد أن يدع صيته بين العرب وترفع مكانته

وقد نظم قصي بن كلاب وظائف الكعبة على النحو التالي

السَّاقِيَةُ: وهي تعني جَلَبَ الماء من مصادره حيث وجدته إلى مكة لسقاة

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٦-٢٥٨

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٨-٢٥٩، وانظر أيضاً تاريخ الطبري، ج ١، ص ٢٤٠، ومعهذا نسخة السقوط

(٣) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢١٦

(٤) تاريخ الطبري، ج ١، ص ٢٤٠. وهو: اللادري. وكان أمر قصي عند قريش ديةً يعطونه ولا يحاربونه

أساس الأشراف ج ١، ص ٥٢

الحاج، ذلك أن شر دمهم كان قد ردمت قبل ذلك الوقت فم يكس الحصول على الماء سهلاً في مكة وخاصة في موسم الحج، ومن أجل ذلك، كان توفير الماء لمحتاج مكة عملاً حليلاً يصغر لصاحبه رصعة الشأن وطيب الذكر

الرفادة وهي تسمى إطفاء الحجاج في موسم الحج حتى يخرجوا راحيين إلى بلادهم، يروي الطبري وغيره أن قصياً فرس ذلك على قريش وقال لهم «يا معشر قريش، إنكم حيران الله وأهل بيته الحرام، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم شرباً وطعاماً أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليه فيصنع طعناً لئلا يس أيام من، فعزى ذلك من أمره على قومه في الجاهلية»^(١)

الحجابة وهي سداة اليب، أي القيام عليه وحفظه وتولي مدتيه^(٢)

اللواء وهي راية يعقدونها على رمح عند إعلان الحرب ويرفعونها علامة على الجيش الذي يسعون

الندوة وهي رئاسة الاجتماعات المهمة طوال العام، وهي الاحتماع الي كتب تعقد عدة في دار الندوة

سند هي أهم مناصب الكعبة أو وظائفها، وقد تولاها قصي بن كلاب فأحسن القيام بها، فمبكر ووهب منه العظم عهد بوظائف الكعبة كلها إلى ابنه عبد الدار^(٣) فقد كان أسيراً أولاده وأحبتهم إليه، وإن لم يكن أصلحهم لرياسة، وقد استمرت هذه الوظائف في يد عبد الدار، وكان إخوته لا يراعونه في ذلك، ولكن أبناءهم تشحروا بعد ذلك مع أبناء عبد الدار حول هذه الوظائف، وانقسمت بطون قرش على نفسها^(٤) ذلك أنه عندما عظم شأن بني عبد مناف بن قصي قالوا «نحن أولئنا ببولاء بنو عبد الدار منهم»^(٥) وأبدىهم في موقفهم ذلك من بطون قريش. بنو أمية، بنو زهرة، بنو تميم، بنو لحارث بن فهر، وتحالف هؤلاء جميعاً إلا يسلم بعضهم بعضاً، وأتوا بنو أمية في طيب فعمسوا أيديهم فيه ومسحوها بأركان الكعب فسُموا «المطيسين»، على

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٦٠ وأشباهه وانهاية لاس كثير، ج ٢، ص ١٩٢

(٢) جاء في لسان العرب لاس منظور في مادة (حجب)، ج ٢، ص ٧٧٧ «وفي الحديث نائب هو قصي بن معبد، يصون حجاب الكعبة، وهي سداها وتولي حفظها، وهم الذين بأيديهم مدتيه»

(٣) الاندلسي أساب الأشراف، ج ١، ص ٥٥

حين انقسم إلى سبي عبد الدار من قريش سو مخروم، وسو شُجَح، وسو سهم، وسو عدي بن كعب، وهؤلاء يعرفون بـ «الأحلاف»، ويروى أن سبي عدي قُتِلوا في هذه المدة «إِذَا الطَّيِّبُ لُمَاتِ الْحِجَالِ» وأتوا بحفنة فيها دم، فعمسوا أيديهم فيها، فسُبي سو عدي لذلك «لُعْقَةُ الدَّمِ» و«لُعْقَةُ الدَّمِ»^(١)، وقد همَّ المرقط أن يطبِّب الأحلاف بالحقن على وظائف الكعبة، ثم اصطلعوا على أن تكون سبي عبد مناف الرقبة والسقبة، «وَأَنْ تَسْقُرَ الْحِجَابَةُ وَاللَّوَاءُ وَالِدَوْدَةُ فِي سَبِي عَبْدِ الدَّارِ» فسُيِّم الأمر على ذلك واستمر^(٢).

ومهما يكن من أمر هذا الحلاف فقد بقيت تلك الوظائف الحبيبة في قريش، ولا شئت أن نقاءها في قريش منذ أن اصطلع بها قصي بن كلاب. أكسب هذه القبية منزلة فريدة، لا هي مكة وحدها، بل هي شبه الحرية العربية جمعة.

ولم تحصر مكة قريش قبل الإسلام في ذلك الجانب الاجتماعي البارز بل استمدت العريضة من التأكيد والقوة بما عُرف عن هذه القبيلة من نشاط اقتصادي مسير والواضح أن لدي ساعد «قريشًا» على أن تمارس دورها هذا الاقتصادي هو ذلك الموقع البحري العريض الذي تمتعت به مكة كملتقى للقوافل التجارية بين الشمال والجنوب. لقد سبق أن أشرنا إلى أن موقع مكة التجاري كان من بين ما أسهم في دعم مكانتها الخاصة قبل الإسلام. والواقع أن قبيلة قريش كانت من المهارة بحيث استطاعت أن تتحول مكة من مجرد محطة تجارية إلى عصر إيجابي مشترك فيما يدور حولها من شدة، وهكذا وحذا قريشًا تسهم بالدور الأكبر في الترحيب المعروفين باسم رحمة الشتاء ورحلة الصيف، وقد كانت الأولى إلى بلاد اليمن والحشة والعراق^(٣) ولثانية إلى بلاد الشام^(٤)، ومجد في القرآن الكريم ما يؤكد هذا الدور في قوله تعالى ﴿لَإِنِّي قُرَيْشٌ ۖ لِّإِنِّي لَكَنَّمُ خَلَّةَ رَبِّي ۖ وَأَصَّبْتُ ۖ فَيَعْتَمِدُوا رَبِّي هُنَا

(١) اللادري أساس الأشراف، ج ١، ص ٥٦. ويروي المنذوقون أنه كان في يوم أحد أني يدور لخصاص آخر عصر، أما جهنم بن حنيفة بن عاتم، فقال أنه أم النعمان، أما وُجَّعْ نداء، قال أنه يدور عند أئمة وُجَّعْ شئت! المصدر عنه ص ٥٧.

(٢) ابن كثير البداية والنهاية ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) اللادري أساس الأشراف، ج ١، ص ٥٩.

(٤) المصدر عنه والصفحة عنها، وانظر أيضًا تفسير الكشاف للزمخشري، ج ٢، ص ٨٠٦.

أَلَيْتَ ﴿٤١﴾ أَلَيْتَ أَطَعَمَهُمْ يَوْمَ تَوَلَّوْا وَآتَيْنَهُمْ مِّنْ خِزْيَانِهِمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ

والحدود ما ذكر أن تجارة قريش بلعب أوح اردهارها في عهد هاشم من عد مناف
من قُصَيٍّ وإخوانه عد شمس وبوفل والمطلب وقد استطاع هاشم أن يحصل من دوة
الروم على إذن لقريش بأن تجول تجارتها في أنحاء الشام، دون التعرض لها بأفئ،
وحصل على مثل ذلك من ملوك العساسة بالشام، وسمح عد شمس في إرام معاهدة
تجارية مع الحاشي ملك الحبشة، فتحت المجال واسعاً لتجارة القرشيين في ذلك
الإقليم، كما عقد بوفل معاهدة تجارية مع إمبراطور الفرس أناحب التماس مع العرف
والمدرس، وعقد المطلب مثل هذه المعاهدة مع اليمن التي كانت حينذاك تحت حكم
الحميريين^(٢١) وهكذا استطاع سو عد مناف بمواهبهم التجارية العدة أن يصنوا
ماقتصد قريش إلى مدى لم يسبق له نظير في العظمة، «فجر الله بهم قريشاً»^(٢٢) كما
يقول الطبري «فسموا الحميريين»^(٢٣) وقد كان من الطبيعي أن تُسهم هذه الحكمة
الاقتصادية التي تمتع بها قريش في دعم مكانتها الاجتماعية

طلب قريش تمتع بهذه الحكمة الثمينة اجتماعياً واقتصاداً حتى ظهور
الإسلام ونحن نقرأ ما يفيد أن عد الله من عد المطلب «والد الرسول ﷺ»^(٢٤) كما
يردد على الشاه في تجارة قريش^(٢٥)، كما كان أبو طالب من عد المطلب عم
الرسول ﷺ من بين من أسهموا من القرشيين نصيب في ذلك النشاط التجاري،
ويروى أن رسول الله ﷺ صاحب عمه أبا طالب في إحدى رحلاته التجارية إلى الشام

(٢١) والآلاف مصدر أع (المعجم) ويحرف الله على قريش ما بأنه سبحانه قد فعل لهم لأمر ولإسلامه ففعل
موسمهم تابع م حبه يشاء المتعديفة بالحدود في الشتاء والخصف، ومن هذا وقد عهده لتدبيره وحسب لشكر
معهده ربه قد سب سمي الحميريين لمعاده وتهدله ويقول الترمذيني «أطاع الآلاف» ثم أدركه الموت
بدر حابس فمضت لأمر الآلاف وتذكيراً بحسن النعمه به، ونصب أثره ببلادهم معقولاً به، لكنفس، ج ٤
ص ٨٠٢

(٢٢) . جمع تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢، وانظر أيضاً أسباب الأشراف للبلاذري، ج ١، ص ٥٩

(٢٣) في سب حرب لمر سغور مد (جبر) ج ١ ص ٥٣٥ «الغمر» خلاف الكسر، بحر المظم وتعبير وتسم
وحشره ويقال جثرت الكبر أجثره تجيراً وحشرته حراً

(٢٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢

(٢٥) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٤٥

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مآذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل الثاني الرسول ﷺ قبل البعثة

الهاشميون أسرة رسول الله ﷺ:

من الضروري قبل أن نتناول سيرة رسول الله ﷺ قبل البعثة أن نتعرف باختصار إلى تلك الشجرة التي استت ذلك الفرع الزكي، لأن التعرف إلى الفروع لا يمكن أن يتم بصورة صحيحة دون أن يسبقه التعرف إلى الأصول.

وسي الإسلام ﷺ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقبيلة قريش كما سبق أن أشرنا تنسب إلى النضر في أصل الأقوال، فالرسول ﷺ كناني قريشي، ولكنه قبل ذلك هاشمي، أي يتنسب إلى هاشم بن عبد مناف والهاشميون أو آل البيت هم أهل الرسول ﷺ، الأذنون الذين يحب علياً أن نعرف إليهم الآن.

ولنبداً بجذء الأعلى هاشم بن عبد مناف، و«هاشم» لقبه الذي علق على اسمه لأصلي وهو «عمرو»^(١)، وإما لقب هاشماً لأنه أول من هشم أشريد نقومه بحكمة وأطعمه^(٢)، ويعني اللادري النضوء على ذلك فقول «أصابت قريش سنة أي شدة ذهبت بأموالهم وأقحطوا فيها، وبلغ هاشماً ذلك وهو ناشام، وكان متحرره نحره

(١) ليلاني، سبب لأشرف، ج ١، ص ٥٩.

(٢) بن لائير، الكامن، ج ٩، ص ١٦، وهشم أشريد بن كسرة، وأشريد هو عما يهشم من حجر ويبل بعده بقدر وعيره، بقدر لسان العرب لأبي منظور، مادة (شرد)، ج ١، ص ٤٧٦.

وحايها، دأمر بالكعب والخبر فاستكثر منهما، ثم حملا في العرائر^(١) عني الإبل، حتى وافى مكة، فأمر بهنم ذلك الخبر والكعب، ونحرت الإبل التي خمدت فأشع أهل مكة، وقد كانوا يهدوا^(٢).

ومن العائر التي ينسبها الكثير من مؤرخينا إلى هاشم أيضا أنه أول من سنّ لقريش رحلتي الشتاء والصيف^(٣)، وفي ذلك يقول أحد الشعراء^(٤)

عمرو العُلى هُشمَ الشريد لقومه ورجال مكة مُسنِتون عِفاف^(٥)
وهو الذي سنّ الرحيل لقومه رحل الشتاء ورحلة الأضياف^(٦)

ويذكر ابن خلدون أن يكون هاشم هو «أول من سنّ الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب»، لأن لرحلتين على حد قوله «من عوائد العرب في كل حين شعاعي إنبهم ومصالحها» لأن معاشهم فيها^(٧) ولكن الواضح أن ابن خلدون يخطئ هنا بين الرحلتين والتجارتين لقريش في الشتاء والصيف وبين تغل العرب من مكان إلى مكان في المواسم المختلفة طلبا للكلأ، وهما أمران لا وجه لخطئ بينهما، وأقل ما يمكن أن يقال في هذا التصدد أن هاشما إن لم يكن هو أول من رحلتي الشتاء والصيف من الوجهة الواقعية فإنه كان يجمع تلك الرحلات ويظلمها فُسب إليه أنه أول من سنّها، كما يرى الأستاذ العقاد^(٨)

(١) العرائر جمع عرارة، وهي وعاء من ساج خش يوضع فيه القمح وسواه

(٢) البلاذري أسباب الأشراف ج ١ ص ٥٨

(٣) البلاذري أسباب الأشراف ج ١ ص ٥٩ والقرأ أيضا تاريخ نبطي ج ١ ص ٢٤٣ و ابن خلدون ج ٢ ص ٢٥٢ والنهاية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٢٦ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٧

(٤) هو عبد الله بن ربيعة طه رواية البلاذري المعتمد عليه - انصفحه هنا

(٥) عمرو بن عبدود بن هاشم - وسنبت أصلهم به وهي التحف والخط وبه قوله تعالى ﴿ولقد أهدأ اليك ربك فاستمع﴾ [الأعراف ١٣٠]

(٦) البلاذري أسباب الأشراف ج ١ ص ٥٨ ويروي هذا سنن أبي عيسى بنحوه الثاني

عمرو الذي هشم الشريد لقومه ورجال مكة مُسنِتون عِفاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سمر الشتاء ورحلة الأضياف

نظر ابن كثير والنهاية ج ٢ ص ٢٢٦

(٧) ابن خلدون المغرب ج ٢ ص ٢٨٦

(٨) مطبع النور ص ١٢٠

وتذكر بعض الروايات أن هاشمًا كان أكبر أولاد عبد مناف^(١)، وإذا حار ل أن شككت في صحة هذه الرواية فلا مجال للشك في أنه كان أعظمهم مكانة، ومن أجل هذه المكانة لمتبررة ولي بعد أبيه منصب السقاية والرفادة^(٢).

وقد توفي هاشم بعمره من أرض فلسطين في إحدى رحلاته التجارية وهو في ريعان شبابه، ودفن هناك^(٣).

أما عبد المطلب - الجد المباشر للرسول ﷺ - فقد كان أبزر أولاد هاشم^(٤)، وإليه صار شرف قبيلته، فلا شك أن عبد المطلب كان سيد قومه بلا منازع، وقد ارتبطت به أحداث أعطت لاسمه ذبوعًا ومكانًا في التاريخ، فقد جدد حجر بن رمرم بعد أن كانت مطبوسة من عهد جدهم، ولكن لعل أبرز ما ارتبط به اسم عبد المطلب من أحداث كان محاولة أبرهة الحبشي عمرو الكعبة، وهي تلك المحاولة التي دأب بالقتل، وقد أعلن أبرهة أنه لم يأت لقتال أهل مكة وإنما أتى لهدم البيت الحرام^(٥)، وكان قد بنى كنيسة عظيمة في صنعاء باليمن سماها «القيس»^(٦) أراد أن يصرف إليها حجاج بيت الله الحرام لتصبح كعبة العرب جميعًا^(٧)، وكانت اليمن حينئذ تحت حكم أبرهة. ويذكر المؤرخون أن أبرهة استخدم الفيلة في حملته تلك، وهدم عرف العام الذي حدث فيه عام الفيل (٥٧٠ أو ٥٧١م) وهو العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وكان أبرهة قد اتصل بعد المطلب سيد مكة وهو في طريقه لعرو الكعبة

(١) ابن الأثير الكامل، ج ٢، ص ١٦، وتذكر بعض الروايات الأخرى أن هاشمًا وعد شمس كان توأم، ويرى أيضًا أن عبد شمس كان أكبر من هاشم انظر تاريخ الشعوبي، ج ١، ص ٢٤٢، وتاريخ لطفي، ج ٢، ص ٢٥٢، وجمهرة أسلاف العرب لأس حرم، ص ١٤.

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٣) البلاذري أسباب الأشراف، ج ١، ص ١٣، وانظر أيضًا تاريخ شعوبي، ج ١، ص ٢٤٤، وتوفي هاشم من خمسة وعشرين عامًا، وقبل من عشرين عامًا، والآن أثبت ثلاثي المصدر نفسه، ولصحة نفسه (٤) خلف هاشم عبد من أولاد عبد المطلب وهو الشفاء وبنوه وأبو صفي وضعفه وحده، وحده، انظر تاريخ المعوفي، ج ١، ص ٢٤٤.

(٥) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٣.

(٦) وهي من الكعبة اليونانية Ekklesia بمعنى «الكنيسة» انظر

Trimingham, Christianity among the Arabs, P 304

(٧) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٠، وانظر أيضًا مادة فأبرهه في - لزم المعارف الإسلامية (نسخة ثرية عام ١٨٠٠ - ج ١، ص ١٨٠) ونسب وجه نظر تختلف مع ما في المصادر العربية.

وأُنبِعه رسالة مؤدّه أن أهل مكة هي أماني إن حلّوا إليه وبين عابته الأساسية وهي هدم
 البيت الحرام، فكان ردّ عبد المطلب أنه يريد إبّله التي استولى عليها جد أُرهة،
 وعددها مائة معبر فتعجب أُرهة وقال لعبد المطلب أنك تكمي في ماتي معبر قد
 أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين اباك قد جئت لهدمه لا تكمي فيه فقال
 عبد المطلب إني أنا رب الإبل، وإن الميت ربنا سيمعه^(١) وقد مضى أُرهة لعابته
 التي أعلها وهي هدم الكعبة، ولكن الله صان بينه الحرام، وسحق جيش أُرهة
 ﴿فَمَلَأَهُمْ كُفْرًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ (القصص ٥) على ما جاء في سورة القصص

لقد كان عبد المطلب إذن بمثابة زعيم مكة أو أميرها بدليل تلك المداوصات
 التي دارت بينه وبين أُرهة، وقد أضاف عبد المطلب إلى هذا أنه اصطنع بوطيحي
 الرعدة وسقاية لحاح بعد مهلك عمه المطلب من عبد مناف^(٢)

أما عبد له من عبد المطلب والد الرسول ﷺ فقد كان أحب أبناء عبد المطلب
 إليه، وهو الملقب بالذبيح الثاني^(٣)، وتروي مصادرتنا في تفسيرها لهذا القاب أن
 عبد المطلب يمر على نفسه إن رزق عشرة من الولد استطاعوا بصرته ومنعه أن يبيع
 أحدهم له عبد لكعبة. وسب هذا النذر أن عبد المطلب كان قد بقي عبء وهو بعيد
 حجر نمرم ولم يكن له من الولد غير الحارث، وقد حدثته قريش في البداية، فمما
 استنق الماء من نمرم قامت تنازعه حقه فيها، ولم تحلّ بينه وبين نمرم إلا بعد مكيدة،

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٣ ١٣٤

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥١ وكاب الرعدة، والشعابه قد صارت لمطلب من عبد مناف بعد وفاة أحمه
 هاشم بنظر أسباب الأشراف للنادري، ج ١، ص ٥٧ وكان المطلب شديد الحب لأبى أحمه
 عبد المطلب واسم عبد المطلب شه أو شه الحمد، وإنما عرف عبد المطلب لشدة ارتباطه بعمه لمطلب
 وكانت أم عبد المطلب وهي سلمى بنت زيد بن عمرو بن نفيل من بني عدي بن النجار وعقب ولد بها
 شه الحمد (وهو عبد المطلب) كانت مقمة مشرب، وفي تلك الأثناء توفي هاشم بن عبد مناف بعرض، فمكث
 عبد المطلب مشرب سبع سنين أو ثمان سنين ثم ذهب عمه المطلب من مكة إلى يثرب وجمعه معه إلى مكة
 وكاب هاشم لا يبرونه فصل هو عبد المطلب فاشهر عبد المطلب بذلك وتولى سمه شه الحمد
 متعاضد رجع بن تاريخ الطبري ج ٢، ص ٢٤١ وما بعده وأسباب الأشراف للنادري ج ١،
 ص ٦٤ ٦٥، وتاريخ الطبري ج ١، ص ٢٤٥

(٣) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٣٥

ومن ها أحسَّ عبد المطلب بقية الدية التي تمع جناحه وتشدَّ أزره، فأحد عنى نفسه
 البدر السابق. فلما تكامل أولاده عشرة^(١)، وعرف أنهم سيمعنوه جميعهم وأحبرهم
 سدره ذلك، ودعاهم إلى الوفاء به فأجابوه، ثم اتفقوا على أن يأخذ كل منهم
 قَدْحاً^٢، ويكتب عليه اسمه، ودخلوا على هل بهذه القداح. وكان ذلك شأن العرب،
 كلما حل بهم أمر لم يكن وحده الرأي فيه واصحاً ذهبوا إلى «هل» بنحوف الكعبة
 يسألونه أن يُخرج لهم الحق في هذا الأمر. وكان هالك في الكعبة من يستنى عددهم
 صاحب القداح، وهو الذي يتولى مسئولية ضربها. فلما ضرب صاحب القداح عنى
 أولاد عبد المطلب قداحهم التي هي أيديهم حرج القَدْح عنى عبد الله، وكان أحب
 أسدته إليه كما أشرنا. فأحد عبد المطلب شعرته وهم مذبحه فوقفت قرش في وجهه
 قائية: «لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي باسمه فيذبحه، فما بقاء أسد عنى هذا؟»
 ثم انتهت بهم الرأي إلى أن يذهب إلى عرقة بالمدينة ليعرض عليها أمره مع ابنه،
 وقلوا له في ذلك. «إن أمرتك أن تذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فوج
 قنته» وتمضى لرواية قاتلة إن عبد المطلب ذهب مع بعض قومه إلى تحت العرقة،
 ولم تكن حينئذ بالمدينة بل كانت بخير، فتوجهوا إليها وعرضوا عليها الأمر،
 فطست منهم لقاءها في اليوم التالي، وعندئذ سألتهم: كم الدية فيكم؟ فقالوا عشر من
 الإبل. فطست منهم أن يصرموا بالقداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل آدم صم
 هل. فوج حرج القَدْح على عبد الله فعليهم أن يريدوا في الإبل عشرًا عشرًا حتى
 يرضى هل. ففعلوا ذلك، فحرج القَدْح على عبد الله، فرادوا عشرًا من الإبل، ثم
 صرموا بالقداح مرة أخرى. فحرج القَدْح على عبد الله، فرادوا عشرًا ثم لم يراوا،
 يصرمون بالقداح ويخرج القَدْح على عبد الله، فكلما حرج عليه رادوا من الإبل
 عشرًا، حتى صرموا عشر مرات ولعبت الإبل مائة، وعبد المطلب قد تم بدعو، ثم

(١) يذكر البلاذري أسماء التي عشر من أبناء عبد المطلب وهم: الحارث، والبربر، وأبو طاب، ولعاب
 وعبد الله، وصرار، وحمرة، والظوم، وحجل، وشم، وأبو لهب، والعدان، انظر أسد الأشراف.

ج ١ ص ٨٧ ٩٠

(٢) يدح هو سهم من أشر وتصل، أي قد أن يدح به الرئش والفضل

صربو، فخرج لُقذح على الإبل، فقالت قريش ومن حصر قد انتهى رصا ريث
 يا عد المطلب^(١) وهكذا بحر عد المطلب مائة من الإبل فداء لاسه عدائه
 المطلب بالمبيع لكسي، ومن ذلك الوقت أصبحت الدية مائة من الإبل
 هذه هي الرواية التي يوردها الكثير من المؤرخين حول فداء عد المطلب لاسه
 عدائه، وهناك رواية أخرى مؤداها أن عد المطلب كان قد نذر إن رُوي عشرة من
 الولد أن يبحر أحدهم فلما بلغ عدد أولاده عشرة أقرع بينهم فطارت القرعة على ابنه
 عدائه، وكان أحب أولاده إليه فقال عد المطلب انهم هو أو مائة من الإبل، ثم
 أقرع بينه وبين لإبل، فطارت القرعة على الإبل^(٢)

ومهما احتسب الروايات حول حقيقة نذر عد المطلب فإن الذي لا مجال للشك
 فيه أن ابنه عدائه كان عنه بأحسن مكان ومن هنا سعى نفسه لترويجه فاحتار له
 مئة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة^(٣) وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش ست
 وموضعة^(٤)، وقد تزوجها عد الله فحملت منه بمحمد ﷺ، ثم سافر عد الله إلى
 الشام في تجارة لقريش، فلما فرغ من تجارته وانصرف راجعاً أحس بالمرص قل
 وصوله إلى مكة، فمر بالمدينة عد أحوال أبيه من سى عدي بن الجار، فسئ هذا
 شهر، وهو مريض، ثم توفي ودفن بالمدينة وسنه حينذاك خمس وعشرون سنة^(٥)،
 وكان ﷺ حين توفي والده ما زال حياً طقاً لأشهر الروايات^(٦)

(١) ينظر تصحيح هذه الرواية في تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٤٠ ٢٤٣ وينظر أيضاً سورة من هذه، ج ١ ص
 ١٦٤-١٦٨، والتكميل لاس الأثير، ج ٢ ص ٥ ٧، والنهاية والنهاية لاس كثير، ج ٢ ص ٢٣٠ ٢٣١
 وكذلك مئة عشر من الإبل من هذه القصص وأور من ودي مائة عد أنه تسهي نزوحه لألف، ج ١
 ص ٢٧١

(٢) تاريخ طبري، ج ١ ص ٢٥٠ ٢٥١ وينظر هذه الرواية أيضاً في تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٣٩ ٢٤٠
 (٣) مئة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن
 سب وصول الله ﷺ عند كلاب بن مرة

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٤٣

(٥) اللادري أساب الأشراف، ج ١ ص ٩٢ وابن كثير النهاية والنهاية، ج ٢ ص ٢٤٥

(٦) ابن كثير المصنف نفسه، والمصنف نفسه، وانظر أيضاً أساب الأشراف، ج ١ ص ٩٢

محمد ﷺ منذ مولده إلى وفاة جده عبد المطلب

هكذا شاء الله أن يولد محمد ﷺ بيتاً، وكان مولده عام الفيل، وهو العام الذي توجه فيه أرمه لحشى لعرو مكة، ويوافق سنة ٥٧٠ أو ٥٧١ م^(١) فكتب ولادته ﷺ يوم الاثنين في ثلثي عشر من شهر ربيع الأول على أشهر الروايات^(٢)، وهو يوافق نيسان (أبريل) من شهور السنة الشمسية^(٣)، وقد قام جده عبد المطلب مقدم ربه عبد الله، فأحاطه بكفالاته ورعايته

وقد رضع محمد ﷺ في البداية بحجاب أمه من ثؤنية جارية عمه أبي لهب، وهي التي أَرْضَعَتْ عمه حمزة، وحعفر بن أبي طالب، وأما سبعة من عبد الأسد المحرومي^(٤) ثم حطيت بشرف إرضاعه ﷺ حليلة بنت أبي ذؤيب التي تنتمي إلى بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، ومن ثم عرفت بالسعدية. وكان من عادة فريش وغيرهم من أشراف العرب أن يرسلوا أولادهم في مرحلة مبكرة جداً من حياتهم إلى البدية ليمسكوا من طبيعة الحياة هناك صلالة وعزماً وصحة بدن، وليكون ذلك أفصح لألسنتهم^(٥) وكتب المراضع من ساء البدية يأتين إلى الحضر بحثاً عن الرضعاء والنماسة للورق من وراء حصانتهم وإرضاعهم في البدية ومن بين القبائل التي اشتهرت بذلك قبيلة بني سعد المذكورة. وقد ترددت حليلة في البدية أن تأخذ محمدًا لإرضاعه لما عرفت من بئسه، ولما قد يترتب على ذلك من ضلالة الأجر الذي ستقاضيه مقابل إرضاعه وحصانته فلما لم يتخ لها سواء قبته حتى لا تعود بعيد رضيع، وذلك بعد أن استشارت زوجها الحارث بن عبد العزى^(٦) في أخذه، فقال لها: «لا عليك أن تفعل، فعسى أن يجعل الله لنا فيه مركة» وهذا ما كان تقول

(١) يحتار محمود باشا الشنكي سنة ٥٧١ م تاريخاً لمولده ﷺ انظر محمد المعصري نور الثمير في سره سد حرمين، ص ٩

(٢) سورة ابن هشام، ج ١، ص ١٧١، وقيل في الثاني من شهر ربيع الأول، أو ثامن أو ثمان منه. انظر أساطير الأشراف للنادري، ج ١، ص ٩٢، وتاريخ المعقوي، ج ٢، ص ٧

(٣) يذكر السهلي أنه ولد في العشرين من نيسان (أبريل) انظر ترويض الألف، ج ١، ص ٢٨٣

(٤) تاريخ المعقوي، ج ٢، ص ٩

(٥) السهلي، الترويض الألف، ج ١، ص ٢٨٧

(٦) الحارث بن عبد العزى من رفاة بن ملان ينتمي كزوجة حليلة إلى بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور حمزة أساطير العرب، ص ٢٥٦

حديقة ، فلم يرب لله ثرياً المركة تتعرفها حتى بلغ ستين ، فكان يشئ شئ لا تشئ العلمان ، فوالله ما بلغ الستين حتى كان علماً جفراً (أي قوياً) ^(١)

ولو اوضح أن حديقة السعدية أسعت على محمد ﷺ كل اهتمام ورعاية وقد شاركها هذا الاهتمام كل أفراد أسرته ، وكان لحديقة وزوجها الحارث بن عبد العري من الولد عبد الله وأنيسة وحذامة ، وهى التى يقال لها الشيماء ، فهؤلاء هم إحوه الرموب ﷺ من لرصاعة . ويذكر بعض المؤرخين أن الشيماء كانت تحضه مع أمه ^(٢)

وتحفظ الروايات حول الحدة التى قصاها محمد ﷺ في حصنة حديقة السعدية . ويذكر البعض أمه كات خمس سنوات ، وقيل أربعاً ^(٣) ، وتذكر بعض الروايات أنه ظل في حصنتها حتى السادسة ^(٤) ، وتذكر الرواية الأولى أصح الروايات ، فقد رجع محمد ﷺ من عند حديقة قبل وفاة أمه ، ولكن الحدة التى نعم فيها بحدن أمه ورعايتها لم تطل ، فقد توفيت وقد حاور السادسة بثلاثة أشهر ^(٥)

وهكذا وحده محمد ﷺ نفسه في سن مبكرة محروماً من حنان الأوبة والأمومة معاً ، ولكن حده عند المطلب حاول جاهداً أن يعوضه بعض ما فقد ، فقد كان بالغ الرأفة به ، شديد لحرص عليه ، حقيقياً به أعين ما تكون الحفاوة ، فمما يروى في ذلك أنه كان يوصع لعيد المطلب فراش في ظل الكعبة ، ولم يكن سوء يجترئون على الجنس عليه إحلالاً لأبيهم ومهانة له ، فكان محمد ﷺ يأتي وهو صبي فيجس عليه ، فيحاول أعمامه معه ، فيأبى ذلك عند المطلب قائلاً : «دعوا ابني» فوالله إن له لشأناً ، ثم يُحسسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده «ويسره ما يراه يصعب» ^(٦) ويذكر المؤرخون

(١) ابن كثير البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ وانظر أيضاً سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٧٥

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ، وراة الشما لاس النبى ، ج ١ ، ص ١٩

(٣) تاريخ طبري ، ج ٢ ، ص ١٠

(٤) ابن كثير البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨

(٥) تاريخ طبري ، ج ٢ ، ص ١٠ وقد كانت أمه في زيارة قبر زوجها عبد الله من عند المطلب -عليه السلام ثم توفيت -لأبو- وهو موصع معروف به مكره -عليه السلام- وهو ابن -عليه السلام- نظر -عليه السلام- لروحه

لأنه ج ١ ص ٢٩٩

(٦) سيرة ابن هشام ، ج ١ ، ص ١٨٠

أن عبد المطلب ضم محمداً ﷺ إليه بعد وفاة أمه آمنة، «ورق عليه رقعة لم يرقها عني ولده وكان يقرئه منه ويديه، ويدخل عليه إذا حلا وإذا نام»^(١) إلى هذا المدى وصل حب عبد المطلب لحفيده محمد ﷺ وحنوه عليه، ولكن العمر لم يمد طويلاً بعد المطلب بعد وفاة أمه ليمسح على الرسول ﷺ مريداً من عطفه ورعايته، فوفاه لأهل وقد بلغ الرسول ﷺ من العمر ثمانين سنين على أشهر الأقوال^(٢)

محمد ﷺ منذ وفاة جده عبد المطلب إلى زواجه بخديجة

الحق أن مظهر رعاية عبد المطلب لمحمد ﷺ امتدت لتشمل المرأة التي تمت وفاة عبد المطلب نفسه، فتوصية منه تحمّل أبو طالب من عبد المطلب مسئولية رعاية محمد ﷺ، والواضح أن عبد المطلب لم ير أجدر من أبي طالب بين شرف هذه المسئولية الجليلة، والمعروف أن أبا طالب كان شقيقاً لجد الله وأب الرسول ﷺ، فقد كان لام واحدة هي فاطمة بنت عمرو من عاتكة، وكان لهما شقيق آخر هو الربيع من عبد المطلب، وشقيقت أربع هي عاتكة، وبرة، وأروى، وأميمة^(٣) ولكن هذا لم يكن كل ما رشح أبا طالب في نظر أبيه عبد المطلب لتكفالة محمد، وإلا لاستدع أن يحذر الربيع لهذه المهمة إن الذي رشح أبا طالب لذلك حصلاً عن كونه العم الشقيق لمحمد ﷺ - هو مؤهلاته الشخصية التي لم يتمتع بها غيره، فقد كان سيم بدمنة الحنق وسماحة النفس، ويُعرف في الوقت ذاته بصلاته ومهارة بين فريش ولده، كان حليفاً بأن يمسح محمدًا عطفه وحمايته معاً، يقول اليعقوبي «كمل رسول الله ﷺ بعد وفاته عبد المطلب أبو طالب عمه، فكان حير كافل وكان أبو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً مع إملاقه»^(٤)

ولا حد في أن أبا طالب قام بمهمة علي حير وجه، وقد نبع تعني محمد به في طفولته منحه لا يكاد يصر على مراقبه، ومما يروى بهذا الصدد أن أبا طالب تهيأ يوماً لمسير في تجارة إلى الشام، فلما أجمع السير ضُبط به رسول الله ﷺ فرق به

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٠١، ٢١٢

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٣، وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٦٦

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٣٩، وألسن الأشراف للتلوي ج ١ ص ٨٧، ٨٨

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٤

أبو طالب فقال: والله لأخْرُجَنَّه معي، ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً^(١) وقد برئ أبو طالب خلال تلك الرحلة نُصْرِي من أرض الشام، وكان عمر الرسول ﷺ حينئذ تسع سنين^(٢) (وَأَشْتَى عَشْرَةَ سَنَةً طَفْلاً لِعَصْرِ الرِّوَايَاتِ)^(٣) وهذه هي لرحلة النبي تذكر مصدرون أن محمداً التقى خلالهما في أثناء تروله نصري^(٤) راهب في صومعته بقا له بحيرى^(٥)، وهو الراهب الذي استطاع في هذا البقاء أن يسأ سمعه ﷺ

والحدير بالذكر هنا أن رعاية أبي طالب لمحمد ﷺ كان لها انعكاسها على روحه وأم أولاده جميعاً وهي فاطمة بنت أسد من هاشم وقد تقدم السنن بفاطمة حتى أدركت للإسلام وماتت مسلمة ويروى أن الرسول ﷺ قال يوم مات: «اليوم ماتت أُمِّي»، فوكلها بقميصه وبرل على قبرها واصطحع في لحده، فقبل له يا رسول الله، لقد أشد حركك على فاطمة! قال: إنها كانت أُمِّي، إن كنت لجميع صديدي وتُسَمِّعني، وتُسَمِّعهم وتُدْهِسني، وكانت أُمِّي^(٦)

هكذا شَبَّ محمد ﷺ في رعاية عمه أبي طالب الذي قام بدور الأب، وفي رعاية فاطمة روح عمه لتي قامت بدور الأم

وكان من أبرز الأحداث التي عاصرها الرسول ﷺ خلال تلك المرحلة المبكرة من شبابه حرب الجعر، وهي التي كانت بين كنانة وقيس عيلان، وتعرف هذه الحرب

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٧٧

(٢) انصهر عنه، ص ٢٧٨

(٣) البلاذري أسباب الأشراف، ج ١ ص ٩٦-٩٧ ويورد البلاذري ترويه لأولي ولكنه يرجح كنهه ويعبر حول ذلك أيضاً ابن كثير البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢١٥

(٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٧٧-٢٧٨ وتذكر بعض المصادر أن اسمه ترويه هو حرم أو سر حريم، وعلى حد يكون بحيرى هو عمه انظر الحنفي إنسان النبوة في سيرة لأسر النبوة، ج ٣ ص ١٩٣، هذا ويشكك أكثر من المستشرقين في قصة لقاء الرسول ﷺ بحيرى ويعبرها أوليري: حتى أصعب حائراً. به في حياة رسول النبوة انظر

Arabia before Muhammad, P 187

ويعبر أيضاً

M Watt, Muhammad: Prophet and Statesman, P ١

ومع ذلك بعض لا يبعد في أن أسر النبوة أمراً مسترخياً وغير أن التفاصيل التي ترويه بعض المصادر قد تكون في حاجة إلى إعادة نظر

(٥) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٤

د «الفجار الكبي» أو «الفجار الآخر» إشارة إلى حرب أخرى سابقة عليها بين كنة وقيس عيلان أيضًا تعرف بـ «الفجار الأول»، ولم يكن لها كبير شأن^(١)

أما الفجار الذي يوصفه ابن الأثير بأنه «لم يكن في أيام العرب أشهر منه ولا أعظم» ويصنف ابن الأثير أنه «بما سُمي الفجار لما استحل الحيات كنة وقيس فيه من المحارمة»^(٢) ويرى بعض المؤرخين أنه سمي بذلك لأن كنة وقيس عيلان «قتلوا في رحب، وكان عندهم الشهر الحرام الذي لا تسفك فيه الدماء، فسمي الفجار لأنهم فحروا في شهر حرام»^(٣)

وتحسب لرويات حول سن الرسول ﷺ إبان هذه الحرب التي دامت أربع سنين^(٤)، وذلك راجع في المقام الأول إلى عدم التحديد الدقيق لبداية هذه الحرب وبدايتها، ثم به راجع كذلك إلى أن بعض الروايات تنظر إلى بداية الحرب، في حين تنظر بعضها إلى نهايتها، وتظهر بعضها الآخر إلى ما بين ذلك^(٥)

وفي هذا السياق يذكر بعض المؤرخين أن حرب الفجار التي كسب بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة^(٦)، وذلك دون أن يعرف على وجه التحديد هل المقصود بذلك بداية الحرب أو نهايتها

ولطروف لني أدت إلى قيام حرب الفجار تنلخص في أن النعمان بن المنذر المحمي منكم الحيرة أراد أن يفتح نقالة تجارية له إلى سوق عكاظ لبيعها هناك، وأراد في الوقت نفسه أن يؤخر هذه النقالة ضد هجمات قطاع الطرق وكان في محبته البرص بن قيس بن رافع (وهو من قبيلة كنانة)، وعروة بن عسة بن جعفر

(١) حو - مصدر لأو - رجع إلى التكمال لابن الأثير ج ١، ص ٥٨٨ ٥٨٩، والأدبي للأصمعي،

ج ٢٢، ص ٥٤ ٥٦

(٢) التكمال ج ١، ص ٥٨٩ ٥٩٠

(٣) تاريخ الخلفاء ج ٢، ص ١٥

(٤) من - رسول - كان - حسان - ابن أربع عشرة سنة، وقبل خمس عشرة، وقبل سبع عشرة، ومن

عشر، وقبل ثمان وعشرين، انظر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩٨ ٢٠١، والأدبي للأصمعي، ج

٢٢، ص ٥٦، وتاريخ الخلفاء، ج ٢، ص ١٥

(٥) د محمد حسن هكل حلة محمد، ص ١٣٣

(٦) ابن الأثير التكمال، ج ١، ص ٥٨٩

الرشاح (وهو من قبيلة هوازن التي تنتمي إلى قيس عيلان) فعرض عروة الرشاح على
العمام أن يجير قافلته، فقبل العمام عرضه، فأخبط ذلك الرصاص وقال لعروة
محباً أنجيره على كنانة؟ قال نعم، وعلى الحنزا فأصر الرصاص قبل عروة،
وعندما خرج عروة في قافلة العمام خرج وراء الرصاص يطلب عصفه حتى تمكن من
قبضه، فهاجرت الحرب بين قيس وكنانة من أجل قتل الرصاص لعروة^(١)

وقد اصعب قريش إلى كنانة في هذه الحرب وشهد الرسول ﷺ بعض أيامها مع
أعمامه، وروي عنه أنه قال «كنت أيام القحار أبيل على عمومي» أي أدولهم
الكل، أو أرذ عنهم بل عدوهم إذا رموهم بها^(٢) وقد انتهت الحجار بعد أربع سنين
من بدايتها بصلح قام على أساس أن يدفع الغريق الذي قتل عدد قتلاء دية القس
الرشاحين في الغريق الآخر، فذهب قريش وكنانة بمقتضى هذا الصلح دية عشرين رجلاً
من قيس^(٣)

ولم يمض طويل زمن على انقضاء حرب الحجار حتى شهد الرسول ﷺ حلفاً عُرف
باسم «حلف نُصُول»^(٤) ولا بد أولاً من معرفة الملابسات التي عقد فيها هذا
الحلف فقد قدم مكة رجل رُبَيْدِي من أهل اليمن مصاعبة له^(٥)، فاستراها منه العاص

(١) راجع الترمذ من المتعاضل في سيرة ابن هشام، ج ١ ص ١٩٨ ٢٠١، وتاريخ المعرفي ج ٢ ص ١٥
والكمال لأبي الأثير ج ١ ص ٥٩٠ ٥٩١، والأعالي للأصفهاني، ج ٢٢ ص ٥٨ ٥٩، ونسبه ونسبه
لأبي كثير، ج ٢ ص ٢٦٨ ٢٦٩

(٢) وروي «كنت أبيل على عمومي يوم الحجار» بعد التجره في (الكل) وفتح ثوب وتشديد له، وبعض
وجه أي أدولهم كل مني كما يذكر ابن مقفور في شأن العرب، مادة ج ٦ ص ٤٣١ ويؤيد
ابن هشام أن الرسول ﷺ «كنت أبيل على أعمامي» أي ارد عنهم بل عدوهم إذا رموهم بها، سيرة
ابن هشام، ج ١ ص ٢٠١

(٣) ابن الأثير، الكامل ج ١ ص ٥٩٥

(٤) تذكر بعض الروايات أن حلف النصول عقد بعد انقضاء حرب الحجار «بأربعة أشهر وثلث عشر» عام
أي - عمر الرسول ﷺ حتى كان عشرين عاماً، النباهة والنهاية لأبي كثير، ج ٢ ص ٢٧٠، ويذكر
ابن الأثير كسبي أن حلف النصول عقد وعمر الرسول ﷺ تسعة عشر عاماً، نظر عبد الوجيع، ج ١ ص
٣٧ وهذا روايات أخرى في هذا الصدد لا تأتي لتوضح فيها أو تكتب على كل حال أن حلف النصول
كان بعد انقضاء حرب الحجار بوقت غير طوي

(٥) رجل رُبَيْدِي (بضم الراء) مسلوب إلى بني رند وهي قبيلة من ملجج، أما «رُبَيْدِي» بفتح الراء فهي من
إلى رُبَيْد، وهي عليه بالنسبة، راجع ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأسماء، ج ٢ ص ٦٠

من وائل لشهمي ورفص أن يعطيه ثمنها، فاستعانت اثريدي بالاحلاف من قریش (وهم بنو عبد نذر وبنو مخزوم وبنو حنظل وبنو سهم وبنو عدي) فأبوا أن يعيروه، فدعى رجل أمي قيس وقریش في أمديتهم حول الكعبة فأشد عدة أياد مطعبي

بأ آل فنهز لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والفر

فما سمع ذلك الوبير من عبد المطلب من هاشم قال «ما لهذا شركاء» فجمع في دار عبد له من خدعان التيبي عدد من بطون قریش وهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم^(١)، وتعاثوا في ذي القعدة، في شهر حرام، «عنى لا يظلم بمكة عريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأحدوا له بحقه ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم»^(٢) ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل وقالوا له «والله لا نقارئك حتى تؤدي إليه حقه»، فبرل العاص عنى إردتهم وأعطى الرجل حقه فمكثوا كذلك لا يظلم أحد حق بمكة إلا أحده له^(٣) وحين رأب قریش ذلك قالت «لقد دخل هؤلاء في فصل من الأمر»، فعرف ذلك الحيف ر حيف الفصول^(٤)

إلى التقدير لعين الذي لقيه حلف الفصول بمكة عثر عه أصدق تعبير عنة من ربيعة من عبد شمس الذي لم يدخل قومه في حلف الفصول، وذلك حين قال «لو أن رجلاً وحده حرج من قومه ألغرحب من عبد شمس حتى أدخل في حلف الفصول»^(٥)

(١) بنو كثر ابتداءً ونهاية ج ٢ ص ٢٧٠ ٢٧١

(٢) بنو كثر ابتداءً ونهاية ج ٢ ص ٤١

(٣) أبو جرح لأصعدهي لأعابي ج ١٧ ص ٢٨٩

(٤) حصار مكة ص ٢٩٠

(٥) بنو كثر ابتداءً ونهاية ج ٢ ص ٢٧١ وقد وردت في سبب نسبه رواية أخرى من سببه أنه لما سمع بهد حلف بعض من لم يدخله من قریش قال «هذه من فصول نقود»، وقال بنو سبي بدت لأن حشر كين فيه فائرا «لا بدح لأحد عند أحد فصل إلا أهداه منه» وقال بنو السب أن فوفا من حريم عمو حلف نسبه بهد الحلف بهد عنى نصر المقتلوه وكان اسمهم ففص بن ففصاه ونفص بن ودعه ونفص بن جدث، فمما عرفت قریش مثل حلفهم سموه بذلك انظر الأعابي للأصعدهي ج ١٧ ص ٢٩٤

وص ٣٠٠، والنباهة والنهابة لأب كثر، ج ٢ ص ٢٧١

(٦) أبو جرح للأصعدهي، الأعابي ج ١٧ ص ٢٩٠

لقد كان لرسول ﷺ أحد شهود هذا الحلف وهو في صدر شبه، وبعد الإسلام أشر ﷺ إلى هذا الحلف إشارة تتعدد صيغها في مصادرها ويتنوع مضمونها، فمن ذلك ما يروى من أنه قال: «شهدت حلفاً في دار عبد الله بن جُدعان لم يزد الإسلام إلا شدة، ولهو أحدٌ إلى من حمر العسم، أما لو دُعيت إليه اليوم لأجست»^(١). فالواضح أن مدعى هذا الحلف تنقّى في جوهرها مع قيم الإسلام وتوجيهاته، لأنها مدعى تهدف إلى حماية حقوق الإنسان وبصاف المظلوم من الظالم، ولم يرد الإسلام هذه المدعى إلا شدة كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ

لقد كانت لقصة التي شهدت صدر شاب الرسول ﷺ فترة وداعة وسكينة وتأمل وقد اشهر الرسول ﷺ معروفة عن لهُو الشاب ولهُو الحدث وتحمله المعسر لمعشولية ومن هذا أراد في سن مسكرة أن يخفف عن عمه أبي طالب بعض مؤوسه وكان أبو طالب كثير لعين فاشتغل برعى عسم أهله وأهل مكة وكان رعى العسم كما ذكر ﷺ حرفة لآسياء، ومما يروى عنه في هذا الصدد قوله «ما من شيء إلا وقد رعى العسم» قيل «وأت يا رسول الله؟» قال «وأما»^(٢)، وشرح «السهيلي» الحكمة من وراء ذلك بقوله «بما جعل الله هذا في الآسياء مقدمة لهم، ليكونوا رعاة الحبر، وليكون أمهم رعاة لهم»^(٣) ثم إن رعى العسم يتيح لراعى فرصة التفكير والتأمل وتصفية النفس، فلا شك أن «راعى العسم الذكي القلب» كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل «يجد في مساحة الجو الطلق أثناء النهار وفي نلألُ النجوم إذا جرت الليل موضعاً للتفكير والتأمل يسبح فيه في هذه العوالم يتعنى أن يرى ما وراءها، ويلتبس في محض مظهر لطيفة تفسير لهذا الكون وحلقه وإذا كان نظام هذا القطيع من العسم أمام محمد ﷺ يقتضى انتباهه ويقظته حتى لا يبدو انذب على شاة منها وحتى لا تصل إحدها في مهامه البادية، فأي انتباه وأية قوة تحفظ عن نظام العالم كل إحكامه» وقد للتفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير في شهوات الإنسان لديه ولسموّه عنها»^(٤)

(١) مصدر سنن نسفة من ٢٩٢ ٢٩٣

(٢) سيرة من هشام ج ١ من ١٧٨

(٣) روضة لأحد ج ١ من ٢٩٦

(٤) د محمد حسين هيكل حياة محمد، من ١٣٥

ومصّب الحياة برسول ﷺ على هذا النحو الوادع العظيم في مكة حين أُنِحت له حين بلغ السادسة والعشرين من عمره فرصة الخروج من مكة مشعلاً في تجارة السيدة خديجة بنت خويلد^(١) ويروي المؤرخون في هذا السياق أن خديجة كانت امرأة تاحرة ذاب شرف ومال، تستأجر الرجال في مالهأ وتصارهم إليه شيء تجعله لهم، وقد سمعها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث وكرم الخلق وتعمد الأمانة (وكأن يفت بالأميين) فلما عرفت ذلك منه عرضت عليه أن يحرر في مالهأ إلى الشام تاحراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، فقبل ذلك منها رسول الله ﷺ وحرر في ثلث لعممة مع علام لها يقال له ميسرة، حيث توجهأ إلى الشام^(٢) وهذا ناع ﷺ السلع التي حرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم رجع إلى مكة ومعه ميسرة، وقد باعت خديجة ما جاء به محمد ﷺ فتصاعف ربحها فصاءت به حيراً ثم كان حديث ميسرة لها عما شد انتباهه في شخصية محمد ﷺ من سمات ودلائل تفوق مسوى البشر العديدين كان ذلك الحديث سبباً لأن ترداد عليه حرصاً، وبه تمسك^(٣) ومنذ ذلك الوقت بدأت حياة محمد ﷺ تتخذ مساراً جديداً

محمد ﷺ منذ زواجه بخديجة حتى البعثة

لقد أُنِحت لخديجة أن تتعرف إلى محمد ﷺ عن كثب، واستطاعت خلال فترة وحيرة من تعرفها إليه أن تكتشف مواطن السمو والعظمة في شخصيته وكانت خديجة -شاهدة ثقات المؤرخين- «أوسط نساء قريش نساً وأعظمهم شرفاً وأكثرهن

(١) هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وهي تنتمي مع رسول الله ﷺ عند قصي بن كلاب

(٢) في بعض المصادر شارة سريعة إلى أن أحد الزهاد، واسمه سفيان أو سفيان (كما في من حديث) أبي محمد ﷺ في أحد رويته أنه أنى إنشاء وشاهد فيه من الدلائل ما جعله يحرر ميسرة أنه لم يلد له ولكن مصادر لا تنفي صحة كنه عن ذلك بشر أن شاعر الكندي عيون نورج، ج ١ ص ٣٨ من حديث -بصر ج ٢ ص ٣٩٥، السهلي الترويض الألف ج ١ ص ٣٢٣ وقد ساء أن ذكره أن محمد ﷺ -خلال- رعيته الأولى إلى إنشاء وهو علاء يصحبه عبد أبي طالب -فإن- هل يقال له بحري وأشر، نى ما يشهد بعض المستشرقين من تشكك حول ذلك، وهي شكوك لا تقوم على أساس حبر عم منه

لعممة بخاصة في عهد الخلفاء

(٣) سيرة من هشام، ج ١ ص ٢٠٣-٢٠٥ تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٨٠-٢٨١، الكامل لابن الأثير، ج ٢ ص ٣٩٤

مألاً^(١)، وكان سدات قريش ينظفون إلى الرواح منها ولكنها لم تكن راحة في ذلك،
فما رأب محمد ﷺ وعرفت ما كان يتحلل به من صفات نادرة عرصب عليه نفسها،
فذكر ذلك لأعمامه، فخطبها له عمه حمزة من عمها عمرو بن أسد (وكان أبوها قد
توفي)^(٢)، فزوجهها محمد ﷺ، وكانت سبه حينذاك حسماً وعشرين سنة، وكانت
حديجة تكرمه بخمسة عشر عاماً طقاً لأشهر الروايات^(٣)

لقد كان رواح محمد ﷺ من حديجة معلماً بارزاً في مسار حياته، فقد وجد فيها
معاوناً على كل مصاعب الحياة، وأعدت عليه هذه الروحة المحببة من حبه
ورعايتها ما عوّضه عن مرارة اليتيم الذي دافه صغيراً، ومما زاد في توثيق وشيجة الصلة
الروحانية بين محمد ﷺ وحديجة أن الله رزقه منها كل أولاده إلا إبراهيم، فقد ولدت له
رئيس، ورقية، وأُم كوثوم، وفاطمة، والقاسم، وعبد الله (الملقب بالظاهر والطيب)،
فأما سبه فقد مات قبل الإسلام، وأما سانه فكلهم أدرك الإسلام فأسلموا وهاجروا
معه ﷺ^(٤)

في بيت حديجة نعم محمد بالطعامية والأمان، وأتاح له هذا الزواج الهديئ
المستقر أن يمارس رياضته الروحانية المحبة، وهي التأمل المستغرق العميق الذي
لا تشته مشاغل الحياة ومصادر القلق فيها وفي تلك الفترة كان يحبو له الحلاء
والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من عادة الأوثان، فكان يحبو بغير حياء فيحسث
فيه والتحسث التعبد ... ويمكث الليالي قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٠٥، تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨١

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨١، ٢٨٢

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٠ وانظر أيضاً الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ٢٩، وعبود لتاريخ لابن شاذان
لكني ج ١، ص ٢٨، ورواد الجماعة لأب السج ج ١، ص ٢٤، ويذكر من كثير في بعض رواياته أن عمر
حينما عد رواجها من محمد ﷺ كان حسماً وثلاثين ألفاً في النهاية ج ٢، ٢٧٢، وتخرج تسبته
منهذه الكتب، راجع تاريخ احتشالاً موداد أن عليه كتاب دون لأربعين رواجها من محمد ﷺ لأنها
أحببته من أطفال انظر كتابها سيرة النبي محمد ص ١٢٥، ١٢٦ وتكون ذلك نفس ذلكا حساً على كل

(٤) تاريخ طبري ج ٢، ص ٢٨١، والنهاية والنهاية لابن كثير، ج ٢، ص ٢٧٣، ورواي تلاميذ أن عبد الله
أبو عبد الله حث في الإسلام وتوفي بسببه، فقال الناصر بن علي محمد أسير لا يشر له ولد ذكر فارتد
عن ﷺ ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا فَهُوَ كَأَنَّكَ﴾ [التكوير ٢] أسباب لأشرف، ج ١، ص ٤٠٥

حديجة فيثروا^(١) وكانت حديجة تشجعه على ذلك النهج القويم الذي ترك في نفسها أعين الأثر، وهياها لتكون أول من آمن برسول الله ﷺ

علت مكانة محمد ﷺ بين أهل مكة في تلك الفترة لما اشتهر به من صدق وأمانة واستقامة وتغلب عن سفاست الأمور، وقد لقوه بالأميين كما ذكرنا ومن أمر بالأحداث نرى رتبط بها اسم محمد ﷺ في تلك المرحلة إعادة بناء الكعبة، ففي العام الخامس والثلاثين من ميلاد محمد ﷺ أي قبل السنة خمس سنين قررت قريش هدم الكعبة وإعادة بنائها، وسبب ذلك أن الكعبة كان قد أصابها سيل تصدع من حدرانها^(٢)، ولم تكن الكعبة مسقوفة، فكان ذلك يعري بها النصوص الذين يطعمون فيها تحوي من كور، ومن هنا أقدمت قريش على هدم الكعبة وإعادة بنائها بعد أن ترددت طويلاً محذرة أن تزل بها بقعة الألهة إن فعلت ذلك، ويروى أن الوليد بن المعيرة المحرومي كان أول من بدأ الهدم، «فترى الناس به تلك البينة وقالوا سطر، فإن أصيب لم يهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله صنعه، فهبط^(٣) فلما أصبح الوليد غادياً على عمله أطلع الناس فهدموا معه فهدموا البيت من هدم الكعبة أخذوا يجمعون الأحجار لإعادة بنائها، ثم ساء حتى إن ارتفع لواء وان أن يوضع الحجر الأسود في موضعه من الجانب الشرقي^(٤) تدارع قاتل قريش في ذلك، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى لسأل شرف ذلك واحتدم الصراع حتى تحالفت القبائل وتواعدت لقتال وكذب الحرب أن تشعل بينها

مكثت قريش على ذلك أربع ليالي أو خمساً، ثم رأت عنى اقتراب من أبي أمية بن المعيرة^(٥) الذي كان وقتذاك أسير قريش كلها، حيث قال لهم «يا معشر قريش،

(١) البلاذري أسباب الأشراف، ج ١، ص ١٠٥

(٢) تاريخ ابن عسك، ج ٢، ص ١٩

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢١٢

(٤) هكل حياة محمد، ص ١٤٠

(٥) أبو أمية ابن المعيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم واسمه أبو حديجة، من بني مخزوم هو عم خالد بن الوليد ووالد أم سلمة (واسمها هند) زوج رسول الله ﷺ انظر البلاذري أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٤٩.

وأي حرم جمهرة أسباب العرب، ص ١٤٤ ١٤٦

«جمعوا بينكم فيما تخلقون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه» فكان أول من دخل عليهم محمد ﷺ، فلما رأوه قالوا «هذا الأمين، قد رصيد به، هذا محمد». وعندما قصوا عليه الأمر قال لهم «علم لي ثوباً» أي أحضروا لي ثوباً فجاءوه به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً»، ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه أحده فوضعه في مكانه بيده ثم نسي عليه^(١) وهكذا تجلب حكمة محمد ﷺ وبعد نظره، واستطاع بهذا الحل الدرع أن يجنب قريشاً محاطر فتنة كادت تعصف بأصهارها وسلامتها، وقد رضي القرشيون بحكم محمد ﷺ وقراره؛ فقد كانت مكانته لديهم قل العتة فوق مستوى الشهاد

وكذلك رعة محمد ﷺ في الحلوة والتأمل تترايد يوماً بعد يوم حتى بلغت دروتها في العام الذي أحضره الله فيه لرسالته والمعروف أنه ﷺ كان يتعد في حياته في عار حراء على الحلة الحنيفة التي أتى بها إبراهيم عليه السلام نفسه منها أسس دعوته، وهو ما يتضح في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّيَ لَكُمْ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَمَا مِثْلًا لَّيْتَهُ وَتَرْهَبُ حَيْثُ وَمَا كَانَ مِنَ الشُّرَكَاءِ﴾ [الأنعام ١٦٦] ولا شك أن تجربة الحبرة والتأمل التي عاشها محمد ﷺ قبل بعثته كانت إعداداً روحياً له من الله سبحانه لحمل أقدس رسالة عرفها البشرية وهي الرسالة الخاتمة أو دعوة الإسلام

(١) سيرة أبي هشام، ج ١، ص ٢١٣ ٢١٤، تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٨٩ ٢٩٠، وقارن بما في أنساب

الأشراف لملاذري، ج ١، ص ٩٩ ١٠٠

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل الثالث

بعثة الرسول ﷺ وتطور الدعوة في مكة حتى هجرة المسلمين إلى الحبشة

هكذا هيأ الله محمداً ﷺ لاستقبال دعوته، وهُوَ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَعْمَلُ رِسَالَتَهُ ﴿[الأنعام 124]﴾ فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة بدأ في تلقي الوحي، وكان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان^(١) وتذكر مصادرها أنه يسبحا كان ﷺ ذات يوم في غار حراء مستغرقاً في عبادته وتأمله كعادته إذ هفت به بعثة هاتفة بقول له يا محمد أنت رسول الله! فيروى أن رسول الله ﷺ قال: «فحثت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري^(٢)»، ثم دخلت على خديجة فقلت: «زملوني . زملوني .» حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال يا محمد أنت رسول الله قال فلقد هممت أن أطرح نفسي من حائط^(٣) من جبل، فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله. ثم قال اقرأ! قلت ما اقرأ؟ قال فأحذني فَعَنَيْتُ (أو فَعَنَيْتُ) ثلاث مرات (أي ضمنني بشدة) حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [المعلق ١] فقرأت، فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها

(١) يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ١١٥٠ هـ الموافق ١٢ أبريل ١٨٣٠ م، ج ١، ص ١٠٥

(٢) سواد جمع باده، قيل هي لحمه بين الشك والعمى، وقيل هي عروق تصطبغ عند الخوف ويروي

يرجع حروفي بقدر من كثير السدة والهاء، ج ٣، ص ٧

(٣) يدون بن منظور: «جاء حائس لا يات فيه كائن خلق، وهو فعل بمعنى مفعول» وفي بعض النسخ من بعض النسخاء: «جاء حائس لا يات فيه كائن خلق، وهو فعل بمعنى مفعول» وفي بعض النسخ من بعض النسخاء: «جاء حائس لا يات فيه كائن خلق، وهو فعل بمعنى مفعول» وفي بعض النسخ من بعض النسخاء: «جاء حائس لا يات فيه كائن خلق، وهو فعل بمعنى مفعول»

لمعنت فهمت. أخرج بعض النسخ، أي من جبل حراء، لمعاد العرب، ج ٤، ص ٩٦٦

حري، فقالت: أُنشِر، فوالله لا يخريك الله ألباء، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل وتقري الصيف وتعين على نوائب الحق»^(١)

كاتب هذه لتجربة شديده الوقع على الرسول ﷺ عميقة الأثر في نفسه، ولم تكن في البداية يعرف حقيقتها على وجه التحديد، بل يُروى أنه قال لحديجة حين ذهب إليها: «ما أرى بي إلا قد غرص لي»، أي أصابى من النجر، وقد حاولت السيدة حديجة أن تحفف عنه من وقعها، ولكنها هي أيضًا لم تكن على بينة من كُنه ما حدث، ولهذا اطمئنت برسول الله ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد الذي كان قد تصبر كما ذكرنا واستحكم في الصراية وقرأ الكتب، فلما عرف ورقة من رسول الله ﷺ ما حدث له قال: «هذا الناموس»^(٢) الذي أرسل على موسى بن عمران، ليس فيهما حدح»^(٣) يعني «كون حيًا حين يخرحك قومك» فقال ﷺ: «أُخرجني هم؟» قال: «نعم، إنه لم يحن رحل قط ما حث به إلا عُودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا»^(٤)

أُلفت كلمة «ورقة» الطمأنينة في نفس رسول الله ﷺ، وعرفته أن ما مر به من تجربة لم يكن إلا استهلالًا لأعظم رسالة. ولا شك أن ذلك أثار في نفسه الشوق لمواصلة الاستماع إلى ذلك النداء المقدس، ولكنه انتظر طويلًا قبل أن يستقبل الوحي مرة أخرى، وهذا ما يُعرف لدى علماء السيرة بـ «فترة الوحي» أي إبطانه على رسول الله ﷺ، وهي لفرة لثني مستمرت أربعين يومًا على أرجح الآراء^(٥). وقد اشتد حزنه ﷺ عندما فر عنه الوحي، لأنه طمأن أن الله قد حماه وقلاه، ولهذا يذهب البعض إلى أن الله بدد محادوه إذ أرسل عليه قوله سبحانه في سورة الصحن ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَاسِهِمْ يَتَخَذُونَ﴾^(٦) والذين هم عن آلهتهم يتخذون.

﴿وَذُنُوبُهُمْ يَوْمَ تَدُورُ السُُّّهُمُ﴾ [الصحن ٣١]

(١) تاريخ طبري ج ٢ ص ٢٩٨

(٢) سامور: تعريبه حكيمه اليونانية (homos) التي تعني المتشابه أو تشريعه أن قوم لهما في لؤدهم لأفد ج ١ ص ٢٠٨ أن الناموس هو صاحب سر الملك فلا أساس له

(٣) حدح أي صغر سر

(٤) تاريخ طبري ج ٢ ص ٢٩٩ والرواية في صحيح البخاري ج ١ ص ٤٣ (مع بعض اختلاف نسخ في اللفظ)

(٥) محمد محمدي نور سعيد ص ٢٤

ويسعى أن يشير في هذا السياق إلى خلاف المفسرين وعلماء السيرة حول أول ما أُنزل من لقول بعد فترة الوحي، فيرى البعض في صوء ما ذكرناه الآن أن سورة الصحن كآب أول ما نزل بعد هذه الفترة، فهي تعيد إلى نفس الرسول ﷺ الطمأنينة وتؤكد له أن لله ﷻ ما قلاه إذ أنطأ عليه الوحي في حين يرى آخرون أن أول ما نزل بعد فترة الوحي هذه كان قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ كُنِّي كُنِّي﴾ [المدينة ١٠١] أما سورة الصحن في رأي هؤلاء فقد نزلت بعد فترة أخرى للوحي استمرت ليالي يسيرة^(١)

والذي نميل إليه في ضوء السياق التاريخي هو أن هذه الآيات من سورة المدثر كانت أول القرآن نزولاً بعد الآيات الخمس الأولى من سورة العنق، فقد نزل حبريل على الرسول ﷺ أول ما نزل دون أن يحمل إليه تكليفاً بنبلاص دعوة^٢، بل أنزل في نفسه شعوراً قوياً أنه مقدم على أمر جليل. وعندما نزلت الآيات الأولى من سورة المدثر كان الأمر واضحاً غاية الوضوح أمام الرسول ﷺ إنها الرسالة أو أمانة السبع عن الله ﷻ، لقد استمر الرسول ﷺ يذهب إلى عار حراء ويحمو فيه بعد أن تنقذ آيات الوحي الأولى من سورة العلق. وكم كان يتوقد شوقاً إلى أن يصحي للقاء الإلهي مرة أخرى وبعد طوول انتظار تراءى له حبريل ثانية في عار حراء فتعلمته الرهبة وكثر راجعاً إلى أهله وهو يقول «رملوني» أي دثروني وغطوني، فأنزل الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ كُنِّي كُنِّي﴾ [المدينة ١٠١] إلى آخر الآيات فتصعب هذه الآيات كما أشرب تكليفاً للرسول ﷺ بالإنداء، أي بتليح كلمة الله، وهذا بدأ يدرك حتى الإدراك أنه أمام مهمة محددة، وبدأت آيات الوحي تتوالى لتحلله أسامة معلّم هذه المهمة بوضوح وترسم له خطوات التنفيذ.

ولم تكن تلك المهمة التي أطلب بالرسول ﷺ سهلة، بل كانت صعبة والصعوبة والعقيد، لقد كان عليه أن يبلغ كلمة التوحيد وشرعية الإسلام إلى قوم تأصبت فيهم روح الوثنية وسيطرت عليهم عاداتها وتقاليدها، كان عليه أن يقنع حذور الجاهلية

(١) نرى نقصاً في سلاية والنهاية (التركمي ج ٣ ص ١٧) ومطابقاً تابع نظري ج ٢ ص ٣٠٦-٣٠٥

(٢) د أحمد شفيح سلاية الاسلام ج ١ ص ١١١

الرسالة في عوالمهم، ويعرض مكانها حذور الدين الجديد بقيمه ومفاهيمه، وما أصعبها من مهمة! ولم يكن الرسول ﷺ يملك من أسلحة تنفيذ هذه المهمة إلا سلاح الإيمان المطلع برسالته ونصر الله

ككيف سارت الدعوة في مراحلها الأولى وتطورت؟

أ- الدعوة في مرحلة الكتمان

كان على الرسول ﷺ إذن أن يستجيب للأمر الإلهي ﴿فَرْمِذًا﴾، والمقصود بالإنذار مطلق السليق، سواء أكان جهراً أم سراً، ولكن الحكمة كانت تقتضي ألا يجهز الرسول ﷺ بدعوته على العلن وهي ما زالت ويلة ناشئة لم تكسب بعداً أصبراً، ولهذا كان أسلوبه في تلك المرحلة أن يدعو من يشاء فيه ويطنش إليه من أهله وحلته، فكان أول من صدقه وآمن به واتبعه من خلق الله - روحه حادثة رحمها الله^(١) - وقد أمر بجمع عليه ثقات المؤرخين، وهو مطلق تماماً، ولكن ما لا يجمعون عليه هو الترتيب الرسمي للسائقين إلى الإسلام بعد حادثة، فيذكر البعض أن عمراً بن أبي طالب كان أول هؤلاء إسلاماً، وقيل أبو بكر، وقيل ريد بن حارثة^(٢)، وتضع بعض مصادرنا هذا الأمر بصورة أكثر تحديداً حيث تذكر أن أول من آمن من الصديق عمراً بن أبي طالب، ومن الرجال أبو بكر الصديق، ومن العوالي ريد بن حارثة^(٣)، ويروي أن علي بن أبي طالب أسلم في اليوم الثاني لبعثة الرسول ﷺ، وكان عمره تسع سنين، وقيل عشر^(٤)، والحديث بالذكر أن عبداً كان في حجر محمد ﷺ

(١) تاريخ طبري ج ٢ ص ٣٠٧ وانظر أيضاً سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٥٩، وأساب لأشرف سلاوي ج ١ ص ١٢٢

(٢) سلاوي أساب لأشرف ج ١ ص ١٢٢ وتعيد من التفاصيل رجع إلى تاريخ طبري، ج ٢ ص ٣٠٩، ٣١٧

(٣) ابن كثير البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٨ والتحديث بالاشارة من ان الحشوري لبريطاني موسوم بمر و ت يبعث إلى أن ريد بن حارثة كان أسن إسلاماً من أبي بكر، وأن مصدر لسيرة حاملت أبا بكر على حساب ريد بن حارثة - لأن أبا بكر ساد هجرة المسلمين إلى الحبشة أصبح أحد شخصه بعد معجده ﷺ - غير كونه Muhammad at Mecca, P. 86 وأن هذا الرأي لا يبعد إلى أنس صحيح لأن مصدر، ذكرت ريد بن حارثة - ولا يشك أنها حاملت صحابة لمكانته الخاصة. ولا تعارض عمر بن الخطاب على سبل حطاب بغيره من تفاصيل رجع إلى د عبد الرحمن سائمه - قراءة نقدية في كتابات موسوم بمر و ت في سيرة نبيه وهو بحث مشهور في مجلة السلسلة المعاصرة العدد ٨٢ ص ٩٣، ٩٤

(٤) تاريخ طبري ج ٢ ص ٣١٠، ٣١٢

ولا يعرف على وجه اليقين متى بدأ الرسول ﷺ يتخذ دار الأرقم ملتقىً سرّيًا له مع صحابته ولكن بعض مصادرنا تشير إلى أن المسلمين عندما كملوا أربعين بإسلام عمر بن الخطاب (في العام الخامس أو السادس للمحنة) خرجوا من دار الأرقم^١ وقد يمكن أن يقال أن المسلمين ظلوا يدار الأرقم حتى أسلم عمر، ولكن من الصعب أن يصدق أنهم كملوا أربعين بإسلامه؛ لأن هجرة الحبشة الثانية، وقد حدثت في حوالي ذلك الوقت ضمت أكثر من سبعين

ولما كان الرسول ﷺ خلال المرحلة التي نتحدث عنها الآن قد أثر أن يحضر دعوته في نطاق أهله والمقربين إليه، فقد كان من الطبيعي أن يدعو عمه أبا طالب إلى الإسلام، فهو فصلًا عن قرانته القرية كان واحدًا من أفضل الناس به وأحبهم إليه، وقد قد أو طلب للرسول ﷺ عندما عرض عليه الإسلام «أي اس أحيي، إني لا أستطيع أن أدرى دين أمانى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخص إنيث شيء تكرهه ما بقيت»^(٢)

وفي هذه المرحلة من تاريخ الدعوة فرض الله الصلاة على رسوله ﷺ وعلى المسلمين ولدي فرض حيث كان أصل الصلاة، أما الصلوات الخمس بمبنياتها المعروفة فم تفرص إلا ليلة الإسراء^(٣)، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا إلى شعاب مكة فاستحقوا من قومهم، واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين كانت الدعوة خلالها محاطة بالسرية والكتمان^(٤) وبعد انقضاء السنين الثلاث الأولى دعت الدعوة في طور جديد.

ب- الدعوة في مرحلة الجهر

يروى الطبري أن الله ﷻ أمر نبيه محمدًا ﷺ بعد سنته ثلاث سنين أن يصدر بها حده منه، وأن ينادي الناس بأمره ويدعو إليه فقال له ﴿فَاصْبِرْ مَا تَأْمُرُ وَأَعْرِضْ عَن

١ - ثلاث وثلاثين سنة اطر اس الأثير أسد العام، ج ١، ص ٧٤ ٧٥، وحول دار الأرقم رجع إلى مادة لأرقم في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة المرسنة) بقلم ركنودف، ج ٣، ص ٨

(١) انصهر الناس، ص ٧٤

(٢) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٦٥

(٣) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٣ ٢٤، وابن الأثير الكامل، ج ٢، ص ٥٠ ٥١

(٤) هذه هي الرواية التي ترددها معظم المصادر وتذكر بعض الروايات أن الدعوة سرية سررت أبح سر

عمر اللادري أساس الأشراف، ج ١، ص ١١٦

لَتَشْرِكَنَ﴾ [الحجر ٩٤] وكان قبل ذلك في السنين الثلاث من معته إني أن أمر
بإظهار الدعاء إلى الله مُتَسَرِّعًا مُعْجِزًا أَمْرُهُ ﷺ، وأمرن عبده ﴿وَبَدَّرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾
﴿وَتَحْيُضَ جَنَّتِكَ إِلَيَّ لَتَحْكُ بِنَ الْقَوْمِينَ﴾ ﴿فَإِنَّ مَعْصُومَةَ نَفْسٍ بِي نَزَّيْتُمْ بِنَا نَعْمَلُونَ﴾
[الشمراء ٩١٤ ٩١٦]^(١)

هكذا تعبّر على محمد ﷺ بمقتضى هذا الأمر الإلهي الصريح أن يدخل في
مواجهة مباشرة مع مشركي مكة ومع تقاليد الوثنية المتأصلة في نفوسهم ورغم جسامته
العبء وفداحة لوعة مصيبي ﷺ في تنفيذ الأمر الإلهي دون تردد، بدأ بدعوة عشيرته
الأقربين وتحصيف الروايات في ذلك، فعصها يذكر أنه بدأ بدعوة بني عبد المطلب،
وقيل بل إن دعوته اتسعت عندئذ لتشمل بني عبد صاف، وقيل بل إنها شملت كل
قريش، وهذا واضح مما عرضه الطبري في إحدى رواياته حيث يقول إنما برئت هذه
الآية على رسول الله ﷺ ﴿وَبَدَّرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ بالاطمح
ثم قال يا بني عبد المطلب، يا بني عبد صاف، يا بني قصي قال ثم جحد^(٢) قریش
قبيلة قبيصة حتى مر على أحرهم إني أدعوكم إلى الله وأندركم عداه^(٣)

ولكنما تميل في صوء السياق المنطقي للأحداث إلى القول بأن الرسول ﷺ بدأ
بدعوة بني عبد المطلب عندما أمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين، فهو عبد المطلب
هم أقرب الناس إليه وأعزهم به، وهم ساء على ذلك يسعى أن يكونوا أسرع الناس
استجابة لدعوته وقد دعاهم الرسول ﷺ إلى طعام في بيته وهم يومئذ أربعون رجلاً،
يريدون رجلاً أو يقصونه ثم حاول ﷺ أن يعرض عليهم دعوته فقاطعه عنه
أبو لهب، فترقى تقوم قبل أن يكلمهم رسول الله ﷺ ثم دعاهم الرسول ﷺ في العدد
إلى مثل ما دعاهم إليه بالأمس، فلما طعموا قاتل لهم «يا بني عبد المطلب، إني والله

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣١٨

(٢) جاء في كتاب العرب لاس منظور ج ١ ص ٢٩٩ ٣٠٠ لا يطمح سبيل: سح فح دعوى نحصى قال
ابن الأثير وطعامه الزاوي وأطعمه حصاه أنثري في نفس النعس. ومنه تحدث أنه ﷺ صلى لا يطمح،
يعني أطمح مكة، قال هو سبيل وأدبها وفضاء مكة وأطعمها معروضة لا يطمحها وقریش لا يطمح
يعني يرون أباطح مكة ويطعموها، وقریش الظواهر الذين يرون ما حول مكة

(٣) جحد قریش أي دكرها فعد فعداً والمعروف أن الشعب أكثر هذه النصفين عدداً، وتبعه نفعه ثم
محصنه ثم جحدته ثم نطق له النجد

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٢

ما أعلم شأناً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتمكم به؛ إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأياكم يوازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى ووصي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم جميعاً ولكن عبدٌ وكان ما زال حدثاً أحاب بقوله «أما يا سبي الله أكون وزيرك عليه». فأحد الرسول ﷺ عرفته ثم قال: «إن هذا أخى ووصي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا». فقدم القوم يصحبون ويقولون لآلئ طالب: «قد أمرك محمد أن تسمع لاسك وتطيع»^(١)

هكذا صد القوم عن دعوة رسول الله ﷺ، ولكن هذا الصدود لم يزد إلا إصراراً على العصي في طريق تبليغ رسالته، وإذا كانت عشيرته الأقربون قد حدثت اليوم هو هذا لا يعنى أنها ستستمر في حذائه، ولا يعنى أيضاً أن غيرهم من قرش وسائر العرب سيعرضون عن دعوته. وقد كان الرسول ﷺ يعلم حتى العم أنه يحمل أمانة ثقيلة وأنه وحده في سبيل أدائها كل عب ومشقة. وكانت كلمة ورقة بن نوفل ما رأت تتردد في أذنيه: «إنه لم يجر رحلٌ قط بما حثت به إلا عُودي»^(٢) ولهذا مصنى ﷺ في طريقه وهو على استعداد لمواجهة كل التحديات والمصر عليها

سيحة لذلك قرر الرسول ﷺ أن يسير في دعوته خطوة أبعد لكنه يجد أداناً صاعية في دائرة أوسع من دائرة سبي عبد المطلب، فيروى أنه صعد «الصفا» ذات يوم فنادى قرشاً جامعاً إليه فقال لهم: «أرايتكم لو أحررتكم أن خيلاً تخرج بسفع هذا الجبل أكنتم مُصدقين؟ قلوا: «ما جربنا عليك كذباً» قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: «تأ لك! ما جمعتنا إلا ل هذا»^(٣) فأَنزَلَ اللهُ ﷻ فيه ﴿نَسْتَبْدَأُ بِذِي الْقُرْبَىٰ وَنَسْتَبْدَأُ بِمَا أَقْرَبُ مِنْهُ مَالَهُ وَنَسْتَبْدَأُ بِمَا كَرِهَ لَنَا لَبَّيْكُمْ﴾ [المسد ١-٣]

كان واضحاً من كل هذا أن دعوة الإسلام سوف تواجه مقدومة عيفة وأن هذه المقاومة سوف تتصاعد كلما سارت الدعوة على طريق الجهر. وكان عين الرسول ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، وألا تذعب نفسه حشرات عنى الدين صدوا عن صراط الله، فالله غالب على أمره

(١) انصهر عنه، والجره عنه من ٢٢٠ ٢٢١

(٢) انصهر عنه، وانجره عنه من ٣١٩، ويروى: «تأ لك ماثر اليوم، ألهذا جئت؟» انظر للاذري

أسباب الأشراف، ج ١، ص ١٢٠

ومما لا شك فيه أن كلمة الحق حتى لو لم تجد في البداية أداناً صاعدة تستقر في
 نفوس من وهبهم الله القطرة الصحيحة وتمارس تأثيرها الكاسح فاحدها حتى تجعلها
 تُسمِّم وجهها لله طائفة وهذا ما سوف يحدث مع كثير من هؤلاء الذين أعرضوا في
 البداية عن دعوة الإسلام، أما الذين طمع الله على قلوبهم فقد أصروا واستكروا
 استكباراً وقاوموا دعوة الحق باللسان واليد حتى لفظوا آخر أنفاسهم
 والحدير بالملاحظة هنا أن قريشاً لم تأخذ ما جاء به الرسول ﷺ في البداية مأخذ
 الجد؛ ولهذا كانت مقاومتها له مقصورة على الامتنعاز به والسحرة من دعوته، وقد
 شمل ذلك مرحلة الدعوة السرية، فلا شك أن أساءها تزامت إلى بعض مسمع
 القرشيين فلم يعيروها التفاتاً تهويناً من أمرها، وقد شمل ذلك بداية مرحلة الجهر
 بالدعوة، ذلك أن قريشاً لم يكن يدور بخاطرهم أن الرسول ﷺ سوف يستمر طويلاً في
 دعوته هذه عندما يلجس إعراس قومه، ولهذا اكتفت في بداية مرحلة الجهر بالدعوة
 بأن تصد عنه وتجاهل أمره، ولكن الأمور احتلت تماماً بعد قليل

قريش ومقاومة الدعوة

لا شك أن لتوحيد هو حجر الزاوية في دعوة الإسلام والتوحيد يعني إسلام
 اللوحه حاصف له لواحد الآخر الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في المحدث فعم
 يكن هناك من أن يجهر الرسول ﷺ بكفه دعوته، وإلا لما كان منعاً عن ربه، ولكن
 قريش كسب تتحد آلهة من دون الله أحجاراً لا تنصر ولا تمنع ومن هذا جاء الصدام
 المباشر بين دعوة الإسلام وعقيدة القرشيين الذين يدؤوا يدؤوا مدى خطورة هذه
 الدعوة على موروثاتهم وتقاليدهم ونظام حياتهم

فعندما بدأ الرسول ﷺ يوضح موقف الإسلام من عبادة الأصنام ويذكر آلهة قريش
 ويعيبها، ويتهم من يعبدونها بالصلال والربيع أدركت قريش أبعاد هذه الدعوة الجديدة
 وأنها ما جاء إلا لهدم معتقدات وقيماً وعادات تأصلت في مجتمعهم وقد رأى
 مشركو قريش أن يتنحروا في المقاومة، فذهبوا في البداية إلى أبي طالب عم
 الرسول ﷺ، وهم يعرفون مدى حبه له وحرصه عليه، فقالوا له: «أب طالب، إن
 من أحببت قد ست آلهتنا وعاب ديناً وسفّه أحلاماً وصلل أباها، فرب أن تكفه عاب

وإما أن تحلي بس ويصه، فبك على مثل ما يح عليه من حلافه، فكيفك^(١) ولكن
أنا طالت لم يرد على أن ردهم رثاً حميلاً وقال لهم قولاً رقيقاً كما يروي لمؤرخو
وهكذا مضى الرسول ﷺ على ما هو عليه؛ يظهر دين الله ويدعو إليه ويهاجم الوثنية،
دون أن يلقى اعتراضاً من عمه.

ومن هنا ذهب كراء قريش مرة أخرى إلى أبي طالب يشكون إليه رسول الله ﷺ
وكاتب لهجة الشكوى هذه المرة تشوبها برة التهديد؛ ليس لرسول ﷺ فقط بل
لأبي طالب نفسه، حيث قالوا له: «يا أبا طالب، إن لك ساءاً وشرقاً ومسرّة فينا، وإنا
قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا، وإنا والله لا نبصر على هذا من شتم
الله، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى نكفّ عنا، أو نأزله وإنا في ذلك حين
يهتأ أحد العريقين». وهذا أحسن أبو طالب صرح موقفه، لأنه وجد نفسه بين حيدر
كلاهما يعص إلى نفسه فهو إما أن يخذل ابن أخيه ويقف في وجه دعوته، وهذا ما
لا يرضه، وإما أن ينكر لقومه ويأصهم العداء، وهذا أيضاً ما يود لو تحاشه، وفكر
أبو طالب طويلاً في مخرج من هذه الأزمة، ثم انتهى به التفكير إلى أن يدعو
رسول الله ﷺ إلى الاجتماع به محضر من سادة قريش، وفيهم أبو جهل بن هشام،
والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم ويواجههم بهم لئله يصل معهم إلى
كلمة سواء، فلما جاء رسول الله ﷺ قال له عمه: «أي ابن أخي، ما بال قومك
يشكوك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول ما تقول؟» فأجاب قائلاً: «يا عم، إني
أريدكم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها المحرم
الحزبية». ولما سأله القوم ما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» فصرخوا عنه فرعين وهم
يقولون: «أحسن آفقه، إنها وجبة، إن هذا كذب» [سورة ص: ٥]^(٢)

ويروى أيضاً في هذا السياق أن أبا طالب عندما هدده قريش بعث إلى
رسول الله ﷺ فقال له: «يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأنت

(١) سورة ص: ٥٤، ج ١ ص ٢٧٦ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٢٢ م. لمقصود أن أبا طالب لم يكن يحذف
رسول ﷺ في فمه كما يحذفه القرشيون في الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يحذفه موهف معدداً بغير
محركته عليه، فإن القرشيين يستطيعون أن يكفوه لغة حرمة أي أن يتنزلوا عنه هذه لغة

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٢٥

عمر^(١) وعمر بنعت ولا تُحْمَلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ^(٢)! وقد ظن الرسول ﷺ عدم
سماع هذه الكلمة «أنه بدا لعمه فيه مداء» (أي ظهر له فيه رأي)، وأنه حادته وشتمه إلى
قريش، وأنه قد صُغِفَ عن نصرته والقيام معه فقال له: «يا عمّ، والله لو وضعوا
الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك
فيه ما تركته»، ثم أحش بالكاء فقال له عمه «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحست»
فوالله لا أسلمك لشيء أبداً^(٣)

وقد أُرِدَ قريش أن تعرب مع أبي طالب وسيلة أخرى من وسائل الصعظ
والإغراء معاً، فأخذوا إليه عمارة من الوليد من المعيرة المحرومي وفادوا له «هدى»
عمارة من الوليد أبهى^(٤) فتى في قريش وأجمله، فخذَه فبك عقده ونُضِرته، واتَّحدَه
ولداً، فهو لك، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي قد حالف دينك ودين أدنت وهرق
حماسة قومك وسفه أحلامهم فقتله، فإنما هو رجل مرجل! فقال أبو طالب «والله
لنشر ما تسوموني أن تعطوني أسكنكم أعذوه لكم، وأعطيك أس تقبونه! هذا والله ما
لا يكون أبداً» فقال المظعم بن عدي بن نوفل من عبد مناف «والله يا أبا طالب لقد
أصعبت قومك وحيدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً»،
فقال أبو طالب للمظعم «والله ما أنصفوني، ولكك قد أجمعت حدلاني ومطهرة
القوم عليّ! فاصنع ما بدا لك»^(٥)

بعد أن استفدت قريش كل وسائلها في الضغط على أبي طالب دون جدوى بدأت
تتحا إلى أسلوب آخر من أساليب الصعظ وهو تعذيب المستضعفين من أصحاب
رسول الله ﷺ، أما رسول الله ﷺ فقد سعه الله منهم نعمه أبي طالب، وقد وثت كل
قبيلة على من فيها من صعاقة المسلمين فجعلوا يعتوبهم بالחס والنصر والرجوع
والعطش ورمضاء مكة في شدة الحر وقد تأثر بعض هؤلاء من شدة العذاب
فاضطروا إلى المطلق بكلمة الكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، على حين صر بعضهم
لأحر على كل ألوان الأدى والتشكيل. ومن بين هؤلاء الذين عذبوا فصرخوا ببال من

(١) سيرة بن هشام ج ١ ص ٢٧٨ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٢٦

(٢) أبهى كد هو: سهي «أي أبوى وأجلد وهدى» فربما تدل على تعدد تحمل وأصل هذه الكلمة لعمه
وسه يد. بهذا المعنى تحذيره أي يورق فلهذا التوضيح الألف ج ٢ ص ٩

(٣) سيرة بن هشام ج ١ ص ٢٧٩ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٢٧، وتاريخه: نهاية لاس كثير ج ٣ ص ٤٦

ربح، وكان عبد حشياً، وكان سيده أمية بن خلف النجفي^(١) «إذا حبيب الشمس وقت الظهيرة يبقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأسر بالصخرة العظيمة فيلقى على صدره ويقرب. لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعد اللات والعري^(٢)، فكان يلبس يقرب وهو في تلك الحال أحد أحد» وما أعطاهم قط كلمة مما يريدون^(٣) وقد اشترى أبو بكر بلالاً من أمية وأعتقه فحصله معا فيه من لعاب^(٤) ومن هؤلاء الذين تعرضوا لأشنع ألوان التعذيب عمار بن ياسر أبو اليقطين النحسي وأبوه وأمه سحبة، وكان ياسر (والد عمار) حليفاً لسي محروم، فكانوا يُخرجون عماراً وأباه وأمه إلى رمضاء مكة المظنفة ويطرحونهم بها ويعسبون في تعذيبهم، فمات ياسر في العذاب، وأعظم أمراته سمية القول لأبي جهل قطعها بحربة فماتت، فهي أول شهيدة في الإسلام، أما عمار فقد شددوا عليه العذاب بالحر تارة، وبوضع الصخر على صدره أخرى، وقالوا له: «لا تركك حتى تست محمدًا وتقول في اللات والعري حيرة» ففعل فتركوه، «فأبى النبي ﷺ ينكح، فقال ما وراءك؟ قال شرب رسول الله كان لأمر كذا وكذا» قال فكيف تجد قلبك؟ قال أجده مطمئناً لا يبعد فقال يا عمار، إن عدو فقد، فأمر الله تعالى ﴿لَا مَنَ أَصْكُمَ وَقَدْ أَقْبَمَ بِأَلِيمٍ﴾ [الحمل ١٠٦]^(٥). ومن اشتد عليهم إيذاء قريش من المستضعفين أيضاً صهيب بن سنان^(٦).

(١) هو أبى من خلف بن وهب بن حذافة النجفي القرشي. كان هو وأخوه أبي من خلف من أكثر شارب عبد الله.

دعوه للإسلام وقد قتل أسير خلف في عروء بدر. أما أخوه أبي فذهبه رسول الله ﷺ يوم أحد بعد

أبي حزم - جمهرة أسباب العرب، ص ١٥٩

(٢) أبي الأثير الكامل، ج ٢، ص ٦٦

(٣) اللادري أسباب الأشراف، ج ١، ص ١٨٥

(٤) انصهره منه، وانجده منه ص ١٨٥ ١٨٦

(٥) أبي الأثير الكامل، ج ٢، ص ٧٦، وتام الآية ﴿مَنْ صَكَّرَ بِلَهِّ بْنِ سَيْدٍ يَمْشِي إِلَى مَنَ أَصْكُمَ وَقَدْ أَقْبَمَ بِأَلِيمٍ﴾ [الحمل ١٠٦]

(٦) صهيب بن سنان مائة يسبي منه إلى أسير رمضاء من بدر. فهو من ثمرت نعداس كان أبوه سنان دعماً كبيراً على لآله من قبل النصارى من الظلمة ثم أعاد البراءة على هذه ناحية فبص صهيب وهو صغير منشأ بالبراءة ثم اشتراه رجل من عشيرة كلب فهداه به مكة فاشتراه به عبد الله بن جندب النسي ثم أعتقه وحرره - صهيب مع - جندب بن أبي نوح رسول الله ﷺ فأسلم، انظر أسباب الأشراف للنادري،

ج ١، ص ١٨٠، وجمهرة أسباب العرب لأبي حزم، ص ٣٠٠

وعامر بن فهيرة^(١)، وحجاب بن الأرت^(٢) وبيروى عن حباب أنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو مُنَوِّدٌ يَبْرِدُ، وهو في ظل الكعبة، وقد ثَقِبَا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو مُخَضَّرٌ وجهه فقال: لقد كان من قبكم لِمُشْطٌ بأَشْطٍ لِحَدِيدٍ ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وبوصع المشرك على مفروق رأسه فيُثْقَلُ ما يشين ما يصرفه ذلك عن دينه، وَيُثْمَرُ اللهُ هذا الأمر حتى يسير لراكب من صغاء إلى حصرموت ما يخاف إلا الله^(٣) هكذا لحاب قرئش إلى هذا الأسلوب المبط القاسي في مقاومة الدعوة، وقد شَرَّ على رسول الله ﷺ ما يلقاه أصحابه من العنت والأذى من جراء تمسكهم بدعوة الحق، فأحد يفكر في وسيلة لتخلصهم من العذاب وتتيح لهم أن يعدوا الله دون خوف على عقيدتهم أو دمايتهم أو أموالهم

(١) جاء في أسد الغابة لأبي الأثير، ج ٣، ص ١٣٦ ١٣٧ أن عامر بن فهيرة «كان مولياً من موالي لآلِ أبي سفيان، ممنوناً لتطويل من عبد الله وكان من السابقين إلى الإسلام. أسلمه من أن يدخل من موالي آلِ أبي سفيان، فاشترى آلُ أبي سفيان من بني أمية، وهو مطوك، وكان حسن الإسلام، وعلم في الله، فاشترى آلُ أبي بكر دأبهم وشهد عامر بدرًا وأحداً وتل يوم شر محبته من أربع من الهجرة، وهو ابن أربعين سنة»

(٢) حباب بن الأرت: اختلف في نسبه، قيل غزاعي، وقيل تميمي، وهو الأكثر فهو إبن عربي صميم، ويكنى شبي في النجاشية فتح مكة وقيل حلف بن دهر، وقيل هو مولى عتبة بن عروة وهو من بني أمية الأوسى إلى الإسلام أسد الغابة ج ٢ ص ١١٤

(٣) صحيح بخاري ج ٥ ص ٥٦ ٥٧ (باب ما نهي النبي ﷺ وأصحابه من تمسكهم بمكة)

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مآذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل الرابع

الهجرة إلى الحبشة وتطور الدعوة في مكة حتى وفاة أبي طالب وخديجة

أولاً - الهجرة إلى الحبشة - ملاساتها ودوافعها وموقف القرشيين منها .
شئت الأذى بأصحاب رسول الله ﷺ ، وخاصة المستضعفين منهم على ما
وصحه في لفصل السابق . وأصبح هذا الأذى نهدياً حقيقياً نهولاً في حياتهم
وعقيدتهم . ولكن قرشاً لم ينع بذلك بل وشعت دائرة هذا الأذى لتسقط على من تبع
محمد ﷺ من بطون قرش نفسها ، محاولين بذلك قتلهم عن دنهم ، وهذا ما تجمع
عليه مصادر السيرة . يقول الطبري بعد أن تحدث عن توسيع قرش لدائرة أذاها ضد
المستضعفين « فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل لإسلام ،
فقتل من قتل » ، وعصم الله منهم من شاء . ففما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم
رسول لله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان ذلك صالح يذل له
الحاشي ، لا يخدم أحد بأرضه . وكانت أرض الحبشة متحرراً لغريش يتجرون فيها ،
يحدون فيها رقاعاً^(١) من الرزق وأماناً ومتجرراً حسناً ، فأمرهم بها رسول الله ﷺ ،
فذهب إليها عامتهم لما قهرؤا بسكة وخاف عليهم الغنى ، ومكث هو فلم يرح^(٢)

(١) يذكر البغوي أن المسلمين حين اشتد عليهم العداء «أنهم من أمر عظيم» رجع منهم عن (سلام حبشه
نهر ، وفيه نهر قوي يدعى «نهرهم كناية عن كثير أنفسهم» [الحج ٢٨] ، نهر تاريخ البغوي .

ج ٢ ص ٢٨

(٢) وثقاً من نرى أي سعة فيه

(٣) تاريخ البغوي ج ٢ ص ٣٢٨ ٣٢٩ ونهر أيضاً تاريخ من خلدون ، ج ٢ ص ٣٩٩

بدور هذا لصح لمهم حول نقطتين أساسيتين. تتعلق النقطة الأولى بدوافع الهجرة منها، وتعمق النقطة الثانية بأسباب اختيار الحشة دون سواها لتكون مهاجراً للمسلمين. وفيما يتصل بالنقطة الأولى يبدو من الواضح تماماً أن دوافع الهجرة ارتكزت على محورين هما حماية الدين، وحماية النفس. لقد استطاع المشركون أن يغسوا بعض المسلمين عن دينهم، أو على الأقل أن يجعلوهم يتظاهرون بترك دينهم ثم إن وحشية التعذيب الذي تعرض له المسلمون على أيدي هؤلاء جعلهم لا يأمنون على حياتهم، وقد أورد الرسول ﷺ أن يرفع عنهم هذا التهديد المردوح، وهو تهديد الدين وتهديد النفس، فأمرهم بالهجرة.

مناقشة رأي «مونتجومري وات» حول دوافع الهجرة إلى الحشة

دعم أن ملاسات الهجرة إلى الحشة ودوافعها كما عرصده الأك تدو مسجحة تماماً مع السياق التاريخي الذي حدث فيه. فإن للمعشوق اسرطبي «مونتجومري وات» رأياً آخر تجدر مناقشته هنا. فهو يرفض الدوافع التي تقدمها مصادر السيرة، ويطرح بدلاً منها دوافع أربعة محتملة. أما أولها فهو رغبة محمد ﷺ في الحصول على مساعدة عسكرية من الحشة تمكنه من السيطرة على مكة. وأما الثاني فهو رغبته ﷺ في تحويل الحشة إلى قاعدة لمهاجمة مكة، كما فعل بعد ذلك في المدينة. وأما الدافع الثالث فهو محاولته ﷺ أن يتوصل إلى طريق تجاري بديل يهجه من الجنوب إلى الإمبراطورية البيزنطية حتى يكسر الاحتكار الذي كان يمارسه المكيون على طريق التجارة إلى هذه القاع. وأما الدافع الرابع والأخير فهو وحود خلافات حادة في الرأي داخل صفوف المجتمع الإسلامي بين مجموعة سرحمها أبو بكر الصديق، ومجموعة أخرى معارضة يترعمها عثمان بن مظعون وحائد بن سعيد بن العاص. وفي ضوء هذا الدافع الأخير يرى «وات» أن الهجرة إلى الحشة لم تكن تعبيراً لوجهيب الرسول ﷺ بل تمت مصادرة قام بها المهاجرون أنفسهم، ولكنه في الوقت نفسه بطرح احتمال أن يكون الرسول هو الذي أمر أصحابه بالهجرة عندما ترامب إليه أبناء الاشقاق الذي حدث في صفوفهم، وعندما يوارن «وات» بين هذه الدوافع الأربعة يرى أن الأخير منها هو أكثرها قولاً⁽¹⁾.

(1) M. Watt, Muhammad at Mecca, pp. 114-117. See also the same's Muhammad, Prophet and Statesman, P. 63.

والحق أن كل الدوافع التي طرحها «وات» وراء هجرة المسلمين إلى الحشة لا تصمد أمام لمناقشة وهو فيما يحرصه لا يستند إلى أي دليل تاريخي، بل يعتمد على العيب، والعيال لا يصلح حجة للمؤرخ. فرغة الرسول ﷺ في الحصول على مساعدة عسكرية من الحشة لو صححت لم تكن تتطلب هجرة المسلمين للإقامة هناك، بل كان يكفي حيالها إرسال بعثة من شخص أو عدة أشخاص لتؤدي المهمة ثم تعود ولم يكن لرسول ﷺ شكل ما أوتى من فطنة، وبعد نظر ليوقع من إمراطور الحشة أن يقل لقيده معامرة غير محسوبة ويلبى طلباً كهذا أما رغبة الرسول ﷺ في تحويل الحشة إلى قاعدة للمهاجرة تجارة مكة فهي لم توجد إلا في حيل «وات»^{١٠} ذلك أن إمراطور الحشة لم يكن ليقبل مساطة أن تتحول ملاده إلى مركز للمهاجرة تجارة المكيين، لأن قبوله بذلك كان يعني تعريض بلاده لأزمات اقتصادية وسياسية هي في عيني عنها، هذا فضلاً عن أن وضع المسلمين في ذلك الوقت لم يكن يسمح لهم بالدخول في مثل هذه المواجهة.

أما القول بأن الرسول ﷺ كان يتطلع إلى التوصل إلى طريق تجاري يدين بجه من الحبوب إلى الإمراطورية البيزنطية فهو قول لا سند له من تاريخ أو منطق، فم تكن إمكاتب المسلمين المحدودة في ذلك الوقت تسمح لرسول ﷺ بالتفكير في مشروع كهذا، ثم إذا تقول لها ما قلناه قبل ذلك، وهو أنه لو صح هذا الافتراض لما تطلب الأمر هجرة إلى الحشة واستقراراً فيها، بل لأمكن تحقيق هذه العاية من خلال بعثة محدودة العدد تلعب رسالتها ثم ترحع، لا من خلال مهاجرين مع رواديتهم وأسلحتهم يذهبون بهدف الإقامة المفتوحة.

يبقى الدافع الأخير الذي بعده «وات» أكثر الدوافع قبولاً، وهو وجود خلافات حادة في الرأي بين مجموعة أبي بكر ومجموعة عثمان بن مظعون والحق أن هذا الدافع هو أكثر دوافع التي طرحها «وات» تهافتاً وأشدّها إمعاناً في الحبال فليس في مصادرنا ما يشير إلى انقسام السابقين إلى الإسلام إلى مجموعتين فصلاً عن وحود خلافات حادة بينهما وكيف لنا أن تصور أن السابقين الأولين سمحوا لأنفسهم أن يهزقوا، في وقت كان فيه مشركو قريش يقتلونهم كل مرصد يوعدهم ويصدونهم عن سبيل الله؟، لقد كانت معركة المسلمين مع المشركين معركة حياة أو موت، ومن

المستحيل أن يتطوع بعض المسلمين في تلك الظروف ليعبوا المشركين عن أنفسهم^(١)

فلا يبقى أمامنا من تفسير مقول لهجرة المسلمين إلى الحشة إلا ما تقدمه مصادر الموثقة من أن لهنف من ورائها كان حماية الدين والنفس في ظروف حادٍ فيها اضطهاد قريش للمسلمين حدود الاحتمال

تغى النقطة الثانية المتعلقة بأسباب اختيار الحشة دون سواها مهاجرةً للمسلمين ويتضح من نص لطري الذي اقتضاه أن هذا الاختيار قام على سبيل أساسي **أولهما** ما عُرف عن مجاشي الحشة آنذاك^(٢) من عدلٍ وصلاحٍ مما سيج للمسلمين في دياره أن يتمتعوا بالأمن والطمأنينة، ويعموا بحرية العادة، مع أن المجاشي كان يدين بالمسيحية

أما السبب الثاني: فيتمثل في أن الحشة كانت مكاناً تجاريّاً معهوداً لقريش، بل كانت من لا يمكن لشيء تروح فيها تجارتهم وتنتع فيها أرزاقهم، ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن يجد فيها المسلمون المهاجرون إليها مصداً للرزق وسعة فيه عن طريق شغلهم بالحجارة، وما كانوا سيعيشون عائلة على أحد

وقد أثر رسول الله ﷺ ألا يهاجر مع مهاجرة الحشة وأن يظل حيث هو بمكة حتى يشر كلمة له بين عدة الأوثان رغم كل المضاعف والعقبات

ويقسم معظم المؤرخين هجرة المسلمين إلى الحشة إلى هجرتين الهجرة الأولى وكسب في رحب من السنة الخامسة للمعة السوية، وكانت تصم عشرة رجال وأربع سوية طبقاً لرواية من إسحاق، أما الرجال فهم عثمان بن عفان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سمنة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة بن مالك، وأبو سبرة بن

(١) حريش من الحاصل هو - غير من وثاقته - أراءه - وهذا يقصد بهجرة المسلمين إلى الحشة ودفعها حج إلى د عبد الرحمن بن - أفراد بعده في كتابات موسعوري - و في نسخة السوية - مع أنه انقسم حاضره عند ٨٢ من ٩٦ ١٠٦

(٢) و سنة أصبحت خلف حصاره العرس التي يذكر بعضها أنه اعلم للإسلام في وقت متأخر من سلاوي أسبب لأشرف ح ١ من ٤٣٨، وابن النعمان - راء العناد - ح ٢، من ٤٥

أبي رُهم، وسهيل بن يضاء، وأما النسوة فهن رقية بنت رسول الله ﷺ وهي امرأة عثمان، وسهية بنت سهيل بن عمرو وهي امرأة أبي حذيفة، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة امرأة أبي سلمة، وليلئ بن أبي حنيفة امرأة عامر بن ربيعة^(١)، ولكن اللادري بصيف إلى هؤلاء الرجال العشرة رحلين أحريين هما عبد الله بن مسعود، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وإلى النسوة أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، وهي امرأة أبي سبرة بن أبي رُهم^(٢) صاء على هذه الرواية تكون الهجرة الأولى قد صمت اثني عشر رجلاً وحمس نسوة، وهي الرواية التي نطعمن إليها

ونحن نلاحظ من حلال نظرة سريعة إلى أسماء هؤلاء المهاجرين أن بعضهم كان يسمي إلى عشر دات قوة ومكانة كعثمان بن عفان، وأبي حذيفة، وأبي سلمة، والربيع بن العواء، وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه من أن دائرة الأدنى الذي كان يتعرض به المسلمون لأولون اتسعت بحيث لم تعد مقصورة على المستضعفين

لم يظل مُكث المسلمين بالحشة في هجرتهم الأولى؛ فقد هاجروا إليها في رحب من السنة الخامسة للمعة كما ذكرنا، وعادوا إلى مكة في شوال من السنة نفسها^(٣) والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا عاد المسلمون من الحشة بعد حوالي ثلاثة أشهر من هجرتهم إليها؟

تذكر بعض مصادر السيرة والتفسير سبباً لذلك يدور حول الحادثة المعروفة بقصة العرايين^(٤)، وحلّاصتها أن الرسول ﷺ لما رأى إغراض قومه عنه تمتن في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبينهم، فأرسل الله ﷻ ﴿وَالْأَخِيرَ إِنَّا هُوَ ۝ مَا صَلَّ صَلَّكُمْ وَمَا عَزَى ۝ وَمَا سَلَّ عَزَى الْمُؤَيَّ ۝﴾ فلما امتنن إلى قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَ وَالْمَرْكَ ۝ وَسَوَاءَ الْكَيْفَ لَأَخْرَجَ﴾ [الحج ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه «تلك العرايين العلل، وإن

(١) سيرة أبي هشام، ج ١، ص ٣٤٤ ٣٤٥

(٢) أسباب الأثر ٥، ج ١، ص ٢٠٤، ص ٢١٩ ويدكر الحفوي أن الذي هاجروا هجرة البعث الأولى كانوا اثني عشر رجلاً، ولكنه لا يحدد أسماءهم تاريخ السعودي، ج ٢، ص ٢٩

(٣) ابن الأثير الكامل، ج ٢، ص ٧٧

(٤) العرايين جمع عُرَيُون أو عُرَيِين، ومن بين ما ذكره علماء اللغة من معانيها أنها ضار أصح من طير لعداء، ويدكر ابن منظور أن المشركين «كانوا يرمعون أن الأصنام تحرقهم من الله ﷻ وتشتع لهم إله، فسميت «بعضور التي تعمر وترفع في السماء» لسان العرب مادة عرس ج ٥، ص ٣٢٤٩

شعاعهم لترتحي^١ فلما سمع المشركون ذلك فرحوا وأعجبهم ما ذكره الله عنهم،
وعندما انتهى لرسول الله ﷺ إلى آية السجدة من سورة النجم وهي حدم السورة
سجد، «سجد المسلمون يسجدون نبيهم ﷺ، تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره، وسجد
من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم، لما سمعوا من ذكر الله عنهم»^٢
ووصل ما هذه السجدة إلى من أَرْضِ الْحِشَّةِ من المسلمين فم يساورهم الشك في
أن قريش قد أُسْلِمَتْ بِدَسَدَتِ سَجُودَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ومن هه قرروا الحق
بالرسول ﷺ وللمسلمين بمكة وتمضى الرواية قائلة إن جبريل أتى الرسول ﷺ بعره
أنه تلا على لسان ما لم يأت به عن الله سبحانه، فحزن ﷺ حزناً شديداً، فأمر
الله ﷻ وكان به رحيماً بعمره ويحفظ عليه الأمر ويحرمه أنه لم يكن فيه شيء ولا
رسول تمى كما تمى، ولا أحب كما أحب، إلا والشيطان قد ألقى في أميته، كما
ألقى في لسانه ﷺ، فسبح الله ما ألقى الشيطان وأحكم إياته فأمر الله ﷻ
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَمَنْحَ اللَّهُ
مَا يَلْقَى فَتَحَكُمَ بِهِ أَكْفَرْتُمْ وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ حُكْمٌ﴾ [الحج ٥٢]، فأذهب الله ﷻ
عن سبه الحزن وأمه من الذي كان يحاف، وسبح ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر
الله ﷻ بقول الله ﷻ حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا
وَلَهُ الْآلِافُ ﴿١﴾ يَذَّكَّرُ بِهَا مَنَافِعُ عَالَمِينَ﴾، أي عوحاء ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْ بِأُمَّ وَأَبَاؤُكُمْ﴾
إلى قول ﴿لَسَ يَكُنْ لَهُ رِيحٌ﴾ [النجم ٢٦]^(٣) فكيف نفع شعاعه اللهكم
عده ١٩٤^(٤)

فلما رأب قريش أن محمداً مذم على ما ذكر من مكره الله عنهم عبد الله اردادوا شره،
إلى ما كانوا عليه وشدة على المسلمين، «وأقل أولئك القر من أصحاب رسول الله ﷺ
الذين خرجوا من أرض الحشمة لما بلغهم من إسلام أهل مكة حين سجدوا مع

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٣٨

(٢) شعر كندس بن زيد ﴿لَكُمْ ذِكْرُ اللَّهِ الْوَاقِعُ يَذَّكَّرُ بِهِ عِلْمٌ مِنْ رَبِّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُشْرِكُوا لَهُ وَمَا يُدْرِكُهُ
شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ يَخُودُ إِلَّا نُفُورٌ وَمَا يُوقَى الْفِتْنَةَ وَدَّ بَدْرُهُ مَنْ رَزَقَهُ فَدَقَّ ﴿١﴾ ثُمَّ لَا يَمَسُّهُ شَيْءٌ
بِهِ أَكْرَهُ وَالْأَوَّلُ ﴿٢﴾ وَكَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْلَمُهُ شَيْءٌ إِلَّا مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِشَيْءٍ نَزْراً﴾
[نجم ٢٦ ٢٧]

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٣٩

رسول الله ﷺ حتى يدبوا من مكة بلعهم أن الذي كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مستحقاً^(١)

هذه خلاصة قصة العرائق وما ترتبط به من بيان السب في عودة مهاجري الحبشة، والأولس إلى مكة. وقد احتفل المستشرقون كثيراً بهذه القصة وأخذوا عن أهل حنفية مؤكدة، كما أطلقوا عليها اسماً مثيراً هو «الآيات الشيطانية» Static Verses بل إن الكتب البريطانية، الجسبية الهندي الأصل سلمان رشدي (الذي يتحدث من أسرة مسيحية) جعل من «الآيات الشيطانية» عنواناً لروايته المشهورة التي أصدرها في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين وحشاها بكل ما لا يخطر على البال من صور الدعوة والافتراء ضد الإسلام وتبنيته ﷺ.

ولنظر لنحصر في قصة العرائق يؤكد أهلها مختلفة في جوهرها، فهي تحمل في طبيعتها عوامل تهايتها وانتهيارها، وهذا ما انتهى إليه كثير من الساتحين المحققين في العصر الحديث مثل الإمام محمد عده، والشيخ محمد الحصري، والدكتور محمد حسين هيكل، ولأستاذ سيد قطب وغيرهم ومجئنا في بعض كتب التفسير لا نعي وثقتها، فما أكثر التحليل في مصادر التفسير ويمكننا أن ننور الأسباب التي تدعو إلى رفض هذه القصة فيما يأتي

أولاً إن حجر الرواية في رسالة الإسلام هو التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من شرك، فكيف يطق الرسول ﷺ بكلمات فيها تمجيد للآل والعربى ومدة، وإشارة إلى ما يرتجى من شفاعتها؟

ثانياً إن مبدأ عصمة الأنبياء فيما يلعبونه عن الله مبدأ ثابت لا جدال فيه والآيات والادلة والرابعة من سورة «النجم» تؤكد ذلك بما لا يدع مجالاً للشك ﴿وَمَا يَجْنِي عَنِ الْقَوْلِ﴾ ﴿إِنَّهُ قَوْلُ إِلَهِ وَمَنْ يُوْثِقْ﴾ فكيف يرغم راعم أن الرسول ﷺ فقد العصمة في هذا الموقف فطق بما ينظر به نوحى من الشيطان؟^(٢)

ثالثاً لو صح أن الرسول ﷺ في أثناء تلاوته سورة النجم جرى لسانه بهتات الجمالين «تلك العرائق العلاء» وإن شفاعتهن ليرتجى، لما دأب سامعيه من

(١) المصدر عنه والجزء عنه، ص ٢٤٠

(٢) راجع محمد حسين هيكل حياة محمد، ص ١٧٦، وسد قطب في خلافتك، ج ٤، ص ٢٤٣

المسلمين ولشركيين على السواء. وهم أهل فصاحة وبيان أن يدركوا مدى الانقاص
 الصريح بين هذين الكلامين وبين قوله سبحانه بعد ذلك بقيل ﴿يَنْهَىٰ عَنْ إِتْلَاءِ آثَانِهِ﴾
 ﴿يَنْهَىٰ عَنْهُ﴾ وَمَا يُؤْكَلُ مَا أَفْرَأَ أَنَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الحج ٢٣] فكيف يجمع دم صريح
 لشيء ما مع مدح صريح له في سياق واحد دون أن يسترعى ذلك اسم أحد؟^(١)
 والمعروف أن الرسول ﷺ طبقاً لهذه الرواية تلا السورة بعدها في المجلس
 المذكور حتى وصل إلى آية السجدة في حتامها فسجد وسجد الجميع معه

وابتداءً من قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَلَّيَ
 الشَّيْطَانُ فِي أُنْيَابِهِمْ فَسَمِعَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُجَعِّلُهُ اللَّهُ نَجِيهً﴾ بعيد أن صبح
 الشيطان هذا أمر عام في الرسائل كلها مع الرسل كهم، وليس أمراً خاصاً
 بالرسول ﷺ، فهذه إذن قاعدة شاملة، ومن هنا كما يستنتج الأستاذ سيد قطب إلا
 بد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة في العطرة مشتركة بين الرسل جميعاً،
 بوصفهم من البشر، مما لا يحالف العصمة المقررة للرسل^(٢) يمكن أن نقول بعبارة
 أخرى إن هذه الآية لا تصلح على الإطلاق مستنداً لحديث العرايين

وفي ضوء هذا يكون التفسير العقول للآية هو أن الرسل عديم يبط بهم إبلاغ
 الرسالة إلى الناس يتمون لو استطاعوا حذب الناس إلى دعوتهم بأسرع السبل وبودود
 لو هذبوا، ليس بصورة مؤقتة فيما رسخ في نفوسهم من عادات وتقاليد، وذلك حتى
 يقسموا الدعوة، ثم يمكن بعد ذلك صرحهم عن تلك العادات المتأصلة لديهم وبعد
 الشيطان في ذلك فرصة للكيد للدعوة وإلقاء الشهات حولها في النفوس، ولكن الله
 يحول دون كيد الشيطان ويبين الحكم الغايل (أي يمحكم إياته) فيما يحول الشيطان
 الكيد فيه^(٣)

هذا يتبين له أن حديث العرايين حديث متهاون لا يتسق مع رسالة الوحيد ولا مع
 العصمة السوية ولا مع المطلق السليم. ومن هنا كان علينا أن نبحث عن سبب آخر
 وراء عودة مهاجري الحشة الأوليين إلى مكة غير ما قيل من أن عودتهم كانت من أجل
 ما سمعوه من إسلام قريش في قصة العرايين

(١) محمد حمدي، دور غير من ٤٤ ومحمد حيدر هككي، حياة محمد ص ١٨٠

(٢) في حلال، لقن ج ٤ ص ٢٤٣٣

(٣) الترحيم نفسه، والنصحة نفسه

إن ما يمكن أن نستنتجه هو أن الظروف التي أحاطت بهؤلاء المهاجرين الأولين لم تكن مشجعة تمام لتشجيع، فقد كانوا عددًا قليلًا، ما عثر إحسانهم «لحرية رعم حس استغاب الحاشي لهم وتشير بعض مصادرتنا إلى ما تعرض له الحاشي خلال تلك الفترة من اضطرابات داخلية جعلت بعض المسلمين يأخذ صفه ويقاثل بجانبه، ومن هؤلاء الربيع بن نعوام، الذي يقول عنه البلاذري إنه «قاتل مع الحاشي عددًا له»^(١) والوصح أن هذه مسألة لم تكن تثير بواعث الطمأنينة في نفوس المهجرين وبصاف إلى ذلك ما لعله تزامن إلى أسماعهم من اتساع دائرة الإسلام بمكة، وهكذا اجتمعت هذه العوامل كلها لتشجع مهاجرة الحشة الأولى على العودة إلى مكة، فعادوا وهم يطمعون في أن يجدوا موقف أهل مكة من المسلمين قد تغير، وتكفهم «لم كانوا» دور مكة ساعة من بكرة كما يقول ابن القيم «بلعهم أن قريبًا أشد ما كانوا، عداوة لرسول الله ﷺ، فدخل من دخل منهم بجوار»^(٢)، ودخل بعضهم مستحبًا^(٣) وكان عثمان بن مظعون أحد هؤلاء الذين دخلوا مكة بجوار، حيث أجازه الوليد بن المعيرة، ثم رد عثمان حور الوليد قائلًا «أكون في دمة مشرك» بجوار الله أخيرًا قدم بعض بني المعيرة بطنم عين عثمان بن مظعون، فصحك الوليد شمانية به حيث رد عليه حوار، وقد له ما كان أعياك عن هذا فقال عثمان إن عبي الأحرى لمصاحبة إلى مثل ما طلب هذه فقال له الوليد هل لك أن تعود بجواري؟ قال لا أعود إلى حوار غير الله^(٤)

هكذا تهيأت الظروف للهجرة الثانية إلى الحشة، فقد تعرض المهجرون الأولون للآذى بعد عودتهم إلى مكة، كما تعرض للآذى غيرهم من المسلمين، فهاجر إلى الحشة ثانية من رجع منها، وانضم إليهم كثير من المسلمين المناب لحمة عقيدتهم وأرواحهم. ولا نجد في مصادرتنا إشارة إلى التاريخ الدقيق الذي حدثت فيه هذه

(١) أسد الغاب لأثيري، ج ١، ص ٢٠١، ٢٠٢ ويشير ابن هشام إلى هذه الاضطرابات في روبر بها ولكن كلام ابن هشام يصادفها حشيت بعد الهجرة لكنه انظر سيره ابن هشام، ج ٢، ص ٣٦١ وترجع مع ذلك أن هذه الاضطرابات ترجع بطورها إلى وقت أبعد من ذلك

(٢) زاد المسند، ج ٢، ص ٤٤

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٧٧

(٤) المصدر نفسه، والجزء نفسه ص ٧٨ وانظر أيضًا للمؤلف عنه أسد الغاب، ج ٢، ص ٥٩٩

الهِجْرَةُ الثَّابِتَةُ، وَلَكِنَّا مَرَّحَ أَهْمَا كَانَتْ فِي مَطَالَعِ الْعَامِ السَّادِسِ لِلْعَتَّةِ؛ لِأَنَّ أَصْحَابَ
الهِجْرَةِ الْأُولَى عَدَدُوا فِي شَوَّالٍ مِنَ الْعَامِ الْخَامِسِ لِلْعَتَّةِ، وَالْعَلَبُ أَهْمُ مَكْتُوبِ بَصْعَةٍ
أَشْهُرٍ فِي مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ كَوْنُهَا مِنْ إِعْدَادِ أَنْفُسِهِمْ لِلهِجْرَةِ الثَّابِتَةِ، وَكَانَ الَّذِينَ تَصَمُّوْا
إِلَيْهِمْ بِحَاحُونَ، بَلَى مِثْلَ هَذَا الْإِعْدَادِ أَيْضًا

وَلَا يَتَعَقُّ مَزْجَهُو السَّيْرَةِ حَوْلَ عَدَدِ الَّذِينَ دَهَبُوا إِلَى الْحِشَّةِ فِي الْهِجْرَةِ الثَّابِتَةِ،
فَيَذْكُرُ مِنْ هَئِذَا أَهْمُ كَانُوا ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ رَحَلًا سَوَى سَائِهِمْ وَأَسَائِهِمْ إِنْ كَانَ عَدَدُ مَنْ
يَسِرُّ فِيهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ فَقَدْ كَانُوا اثْنَيْنِ وَثَمَانِينَ^(١) وَيَذْكُرُ الْيَعْقُوبِيُّ أَهْمُ كَانُوا
سَعِينَ سَوَى سَائِهِمْ وَأَيَّانَهُمْ^(٢) وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يُذْخَلُ فِيهِمْ أَصْحَابُ الْهِجْرَةِ الْأُولَى،
وَقَدْ كَانُوا عِنْدَ ثَمَانِي عَشَرَ رَحَلًا وَيَقْدُمُ اللَّادِي عَرَصًا مَفْصَلًا بِأَسْمَاءِ كُلِّ مَهَاجِرَةٍ
الْحِشَّةِ، وَهِيَ عِنْدَ سِتَّةٍ وَتِسْعِينَ رَحَلًا وَلَكِنَّهُ يَشِيرُ فِي أَثْنَاءِ عَرَصِهِ إِلَى مَنْ احْتَفَلَ فِي
هَجْرَتِهِ وَهِيَ عِشْرُونَ، كَمَا يَذْكُرُ أَسْمَاءُ النِّسَاءِ الْمَهَاجِرَاتِ بِصَحَّةِ أَرْوَاحِهِنَّ، وَهِيَ
ثَمَانِي عَشْرَةَ^(٣)، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمَهَاجِرِينَ فِي الْعَرَةِ الثَّانِيَةِ بِالْإِلَاصَافَةِ إِلَى مَنْ ذَكَرَهُ
أَسْمَاءُ هُمْ فِي الْهِجْرَةِ الْأُولَى جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ^(٤)، وَأَبُو عَيْلَةَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
الْحَرَّاحِ، وَلِعُقْدَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ ثَعْلَبَةَ (وَهُوَ الْحَقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ)، وَشَرَحِيْبِ بْنِ حَسَّةٍ،
وَسِمَّةُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمَعْبِرَةِ (أَخُو أَبِي جَهْلٍ)، وَهَشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ (أَخُو عَمْرٍو
بِالْعَاصِ) وَلَا شَكَّ أَنَّ هَجْرَةَ هَذَا الْعَدَدِ الصَّخْمِ مِنَ الْمُسْتَعْبِجِ إِلَى ذَلِكَ الْمَدِّ الدَّائِي
وَفِيهِمْ الْكَثِيرُ مِمَّنْ يَتَنَبَّهُ إِلَى عِشَائِرِ دَاتِ قُوَّةٍ يَشِي بِمَقْدَارِ مَا كَانُوا يَعْصُونَ لَهُ مِنْ
إِيْدَةٍ وَمَلَا حَقَّةٍ، بَلْ إِنْ أَمَا يَكُرُّ نَفْسَهُ بِكُلِّ مَا كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ مَكَّةَ رَجِيعَةً بَيْنَ أَهْلِ
مَكَّةَ أَجْمَعٍ أَمْرُهُ عَلَى الْهِجْرَةِ فِي الْعَرَةِ الثَّانِيَةِ فَرَارًا مِنَ الْإِلَاصَافَةِ، فِيمَا هُوَ فِي بَعْضِ
الطَّرِيقِ لَفِيهِ أَحَدُ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ الْمَعْرُوفِ بِالْمَدْنَةِ^(٥)

(١) سيرة من ههنا ج ١ ص ٣٥٣ وانظر أيضًا زاد المعاد لابن عبد الجبار ج ٢ ص ٤٥ ٤٤ ولنديه ولنديه
لا يكثر ج ٣ ص ٦٤

(٢) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٢٩

(٣) جمع من كذا في أسد الأشراف ج ١ ص ١٩٨ ٢٢٧

(٤) يروى أن جعفرًا كان أمير المهاجرين إلى الحشمة انظر انطباعات لكتري لابن سعد ج ٤ ص ٣٤

(٥) هو سيد بني الهذيل بن خزيمة، وهم الغارة انظر جمهرة أسد العرب لابن خرداذبة ج ١ ص ١٩٠ وأساب

الأشراف لملادي ج ١ ص ٢٠٥

(أو من الدُّعية) فسأله عن وجهته، فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فإني أسيح في الأرض فأعد رمي فقال ابن الدُّعة: مثلك يا أبا بكر لا يُخرج ولا يُخرج، وأحد بعدد فضائه، ثم عرض عليه أن يجيره بمكة، فقل أبو بكر، وأعدت قرش حواري ابن الدُّعة شرط أن يستخفي أبو بكر بصلاته وقراءته في منزله، فمكث أبو بكر بعد الله في داره، ثم به انتهى بقاء داره مسجداً فكان يجتمع نساء المشركين وأباؤهم حين يقرأ لقرن، فراع ذلك قريشاً، فأحرقوا ابن الدُّعة بما يصنع أبو بكر، فقال له: قد عصمت ما عاهدك القوم عليه، فإما أن تقتصر عليه، وإما أن ترد عن حواري ودمي فقال أبو بكر: يسي أرحم إليك جوارك وأرضى بجوار الله^(١) وواجه أبو بكر بغير حور ابن الدُّعة أدنى المشركين صاراً لا تفلح له قاة ومن المشروع هنا أن نتساءل ماذا كان رد فعل قريش إزاء هجرة المسلمين إلى الحبشة؟

يحدث لتاريخ أن عباد مشركي قريش في مقاومتهم لدعوة الإسلام تبع بهم حدثاً جعلهم يتفقون هؤلاء المهاجرين في ماؤاهم الجديد وتُعل قريشاً حشيت أن تؤثر حماية الحبشي للمسلمين تأثيراً إيجابياً في الدعوة المحمدية في داخل شبه الجزيرة العربية، فيريد أنناع هذا الدين، أو لعلها حشيت أن تشتد شوكة هؤلاء المهاجرين فيعودوا إلى مكة أكثر قدرة على تقديم كل صور العون لدعوة الإسلام^(٢)

وتجمع مصدراً على أن قريشاً أرسلت بعض معوثيها إلى الحبشي في محاولة منها لصره عن إيواء المسلمين وتقديم الحماية لهم، ولكنها تحسف حول عدد البعثات التي أرسلتها بهذا الصدد وحول بعض الشخصيات التي اشركت فيها، فرواية ابن إسحاق وهي التي وردت في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وغيرهما تشير إلى أن قريشاً أرسلت إلى الحبشي بعثة واحدة مكونة من عمرو بن العاص وعد الله بن أبي ربيعة^(٣) ورواية موسى بن عقة وهي التي وردت في تاريخ البعقوبي وغيره تشير إلى أن قريشاً أرسلت إلى الحبشي بعثة واحدة مكونة من عمرو بن العاص،

(١) أنساب الأشراف، ج ١ ص ٢٠٥ ٢٠٦

(٢) د محمد حسني هيكل حياة محمد، ص ١٦٩

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٥٦ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٣٥. وأنساب الأشراف لابن كثير ج ١ ص ٣٣٧

وعُمارة بن الوليد بن المعيرة^(١) وهناك من الروايات ما يشير إلى أن قريش أرسلت بعشرين الأولى مع عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد، والثانية مع عمرو بن العاص وعد الله بن أبي ربيعة^(٢)

على أن ما رويته هو أن قريشاً أرسلت إلى الحاشي بعثة واحدة هي بعثة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وذلك في ضوء اتفاق معظم مصادرنا على ذلك ويعني لبلادري عمياً قطعاً أن يكون عمارة بن الوليد هو الذي صاحب عمرًا في بعثة قريش إلى الحاشي، ويذكر أن عمارة صاحب عمرًا في رحلة تجارية إلى الشام لا صلة لها بأي سفارة سياسية وكانت مع عمرو امرأته، فراودها عمارة عن نفسها فمسيب، ففعل عمرو لذلك ونبذ الشر لعمارة، فعندما انتهيا إلى أرض الحشة حول عمارة أن يتصل بامرأة للحاشي وأن يُغويها، وعلم عمرو بما حاوله عمارة فحدث به الحاشي، فيبقى إن للحاشي قتل عمارة، ويقال إنه سحره^(٣). وهناك رواية يرويها ابن كثير عن الهريري خلاصتها أن بعثة عمرو بن العاص وعد الله بن أبي ربيعة إلى الحاشي أرسلها قريش بعد عروة بن مذياب^(٤)، أما بعثة عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد فقد حدثت في المرحلة التي ساقشها الآن وهذه رواية لا تجد لها صدى في مصادر التاريخ، ولهذا بعيد ما سنرى أن رجحناه منذ قليل وهو أن قريشاً أرسلت إلى الحاشي بعثة واحدة هي بعثة عمرو بن العاص وعد الله بن أبي ربيعة بعد الهجرة إلى الحشة بقليل

ومهما يكن من خلاف حول عدد البعثات التي أرسلتها قريش إلى الحاشي وحول بعض الشخصيات التي شاركت فيها فإن ما يتفق عليه مؤرخو السيرة هو أن محاولة قريش لموقع بين الحاشي وبين المهاجرين المسلمين جاءت بالفشل لقد حمل عمرو بن العاص وعد الله بن أبي ربيعة معهما هدايا قيمة إلى الحاشي وحاشيته، وحاولا إغراء الحاشية بأن تشجع النجاشي على طرد هؤلاء المهاجرين وعندما أذن لهما

(١) تاريخ المعمرين، ج ٢، ص ٢٩

(٢) هذه إحدى الروايات التي يصرحها ابن كثير ونقلها عن أبي بصير في الدلائل نظر النديم والنهاية، ج ٣، ص ٧٤

(٣) البلادري أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٢٢ ٢٢٣

(٤) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٣، ص ٧٤

الأمير طور بالثول بين يديه قالا له «أيها الملك، إنه قد صرئ إني بذلك ما عصب
سفيهاً، فارقوا دين قومهم ولم يذحلوا هي ذبك، وجاءوا بدين استدعوه لا نعرفه نحن
ولا أب، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من أئانهم وأعمامهم وعشائرهم لردهم
عبيهم» ومع أن الحاشية أغلب تصديقها للكلام السفيرين فإن الحاشي أني إلا أن
يسمع ما يقوله المهاجرون أنفسهم، فأرسل إليهم يستدعيهم فدخلوا عليه، وعدتد
سألهم الحاشي «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم وتم تدخروا في دسي ولا في
دين أحد من هذه الملل؟» فتصدى جعفر بن أبي طالب للإجابة عن سؤاله قائلاً «أيها
الملك، كن قوم أهل جاهلية، بعد الأصنام وأكل الخينة، وأتت الفواحش ونقطع
الأرحام، ونسئ الجوار. ويأكل القوي ما الضعيف، فكنا عنى ذلك حتى بعث الله
إليهم رسولاً ما يعرف به صدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إني الله لنوحده ونعبد،
ونجمع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث
وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، وبهت
عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله
وحده لا شريك له شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقته وأبى به
واتبعه على ما جاء به من الله فعنا علينا قوماً فعدونا ونسبوا عن دس ليردوا
إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن يستحل ما كنا يستحل من الحلال، فبعنا
قهرود وطعنوا وصيقوا علينا وحالوا بينا وبين دينا خرجنا إني بلادك وأحبرناك على
من سواك ورعب هي حوارك ورحونا ألا نعلم عندك أيها الملك»^(١) ثم طلب
الحاشي من جعفر أن يقرأ عليه بعض ما أرسل على محمد ﷺ، فقرأ عليه جعفر صدرًا
من سورة مريم، فلما وقف الحاشي على معانيها قال: «إن هذا والذي جاء به عيسى
ليخرج من مشكاة واحدة» وأين أن يرد المهاجرين إني قريش، فقال عمرو بن العاص
لرفيقه عبد الله بن أبي ربيعة بعد أن خرجا من عند الحاشي حائنين «والله لأتبعه عدو
بما أسأصل به حصراهم»^(٢) والله لأحبرته أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عدو

(١) سورة أبي هشام، ج ١، ص ٣٥٩

(٢) يقد - أورد به حصرا بعد أصبه الذي به نزعوا أو خصه وصيه وصيه، ونحصره - عود تقوم
ومعهم وفي حديث التميمي «أبنت حصرا في ش» انظر المعجم الوسيط مادة «حصرا» ج ١، ص ٢٤٩

ثم جاءه في العد فقال له «أبها الحلك، إنيهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً» فأرسل إليهم المجاشي يسألهم عن هذا القول، فأجاباه جمعفر: «نقول فيه الذي جاء به نبي» هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء السول فأحد المجاشي عوداً من الأرض ثم قال «والله ما عدا عيسى بن مريم ما قتت هذا العود»^(١)

هذا هو موقف المجاشي إزاء من هاجر إلى أرضه من المسلمين كما تجمع عليه مصادرنا. وفي هذا الجو الأم طالت إقامة بعض المسلمين إلى أربعة عشر عاماً تقريباً، ومن هؤلاء جمعفر بن أبي طالب، وحالد بن سعيد بن العاص، وحطاب بن عمرو بن عبد شمس وغيرهم، في حين أن بعضهم العودة إلى مكة قبل هجرة الرسول ﷺ منها إلى المدينة عندما رأوا الظروف مواتية لذلك، ومن هؤلاء عثمان بن عفان، وأبو حذيفة ابن عتبة بن ربيعة، والربيع بن العوام، ومصعب بن عمير، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وعتبة بن عروان، وكثير غيرهم. وقد مات بعض المسلمين بأرض الحشة ودعوا هناك، ومن هؤلاء عمرو بن أمية بن الحارث ابن أسد بن عبد المطلب، وعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي، والمطلب وطبيب بن أهرم بن عبد عوف^(٢) وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأحباش اعتنقوا الإسلام عن أيدي هؤلاء المهاجرين، وهذا واضح من قول اللادري عند حديثه عن عودة جمعفر بن أبي طالب من أرض الحشة «قدم منها هو وجماعة أقاموا معه من المسلمين وجماعة أسلموا من الحبش، وقد فتح رسول الله ﷺ حيرة»^(٣)، أي في العام السابع من الهجرة.

إن هجرة الحبشة بكل ما أحاط بها من ملاحظات وما ترتب عليها من ردود فعل لم تصبح المدي لدى ومصل إليه مشركو قريش في محاولاتهم اليائسة من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية وملاحقة أنصارها حيث وجدوا «وكن دعوة الحق كانت تمضي في ثوب، وكان بعض في حظ مواز لها كيد المشركين وعنادهم وقد كان

(١) سورة مائدة ح ١ ص ٣٥٩-٣٦٠

(٢) نظر خاص في أسد الأشراف للادري ج ١، ص ١٩٨-٢٢٧

(٣) انصفه عنه، وانجده عنه، ص ١٩٨

أمام القرشيين في تلك المرحلة كثير من أساليب الحكم التي لم يجرؤوا، وكما فشل أسلوب لجؤوا إلى سواء. ﴿وَيَسْكُرُونَ وَيَسْكَرُ اللَّهُ (أَلَمْ يَكُنْ فِي يَدَيْهِ الْغَفِيرُ)﴾ [الأعراف ٣٠]

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب وتأثير ذلك في مسار الدعوة

يتفق المؤرخون على أن حمزة بن عبد المطلب (وهو عم الرسول ﷺ) كان أسبق إسلامًا من عمر بن الخطاب، ويتفقون كذلك على أن المسلمين عرّفوا وامتنعوا بإسلام حمزة وعمر، ومع ذلك لا نجد اتفاقًا في مصادرنا على التاريخ الذي أسلم فيه حمزة عمي وجهه للحديد. ونحن نتردد كثيرًا في قول ما يروي عن الأثير من أنه أسلم في العام الثاني للبعثة^(١)، فالواضح من السياق الذي يتناول فيه المؤرخون ومن بينهم الأثير إسلام حمزة أنه أسلم بعد دخول الدعوة الإسلامية في مرحلة الجهر، والمعروف أن الدعوة ظلت ثلاث سنين في طي الكتمان، والواضح أيضًا من السياق نفسه أنه أسلم بعد أن بدأ المشركون يوجهون أذاهم انباشت إني الرسول ﷺ، وهذا لم يحدث إلا بعد أن حاولوا حقل عمه أبي طالب على محه من الاستمرار في دعوته ثم إنهم عديم فشلوا في ذلك لم يوجهوا أذاهم إني الرسول ﷺ مباشرة بل إلى المستضعفين من أصحابه، ثم إلى الذين أسلموا من عشائر قريش وربما حارل أن يستنح في صوة ذلك أن إسلام حمزة تأخر إلى العام الخامس للبعثة، ويقال إنه أسلم قبل عمر ثلاثة أيام، أي في العام السادس للبعثة^(٢)، كما سيأتي.

يروي المؤرخون في سياق حديثهم عن إسلام حمزة أن أبا جهل (وهو عمرو بن هشام بن المعيرة المخزومي)^(٣) مر برسول الله ﷺ وهو جالس عند الصف فذابه وشتمه وبأن منه بعض ما يكره من العيب لديه والتصنيف لأمره فتم يرد عليه رسول الله ﷺ. وقد شهدت هذا الموقف مولاة لعبد الله بن جندب فأحبرت حمزة بذلك وهو على شركه، فاحتلمه العصب وكان راجعًا من رحمة صيد له، فعم يظف بالكلمة كعادته، بل انطلق يبحث عن أبي جهل، فوجده جالسًا في الكعبة بين جمع من

(١) سند عامه ج ٢ ص ١٥

(٢) انظر سويحي تاريخ النبوة، ص ١٢٣ ١٢٥، وأبو نعيم الأصبهاني حله الأول، ج ١ ص ٤٠

(٣) أبو جهل هي الكعبة التي أطلقها الرسول ﷺ على عمرو بن هشام بن المعيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ويكنى بل ذلك «أبا الحكم» انظر التلادري أسباب الأشراف، ج ١ ص ١٢٥

قريش، فأقبل نحوه ورفع قوسه فصره صرّة شجعت رأسه شجرة مكبرة، وقال أنشسه؟
فإن عني دبه أقول ما بقول، فردّ ذلك عليّ إن استطعت! وكان حمرة أعر قريش
وأشدها شكيمة، ولما قام رجال من بني مخزوم إلى حمرة ليصروا أن جهل قال
أبو جهل «دعوا، أنا غمارة، فبي والله قد سست ابن أخيه سئاً قبيحاً» هكده، دخل
حمرة في الإسلام منذ ذلك الوقت، وعرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عرّ وسمع
وأن حمرة سيمعه، فكفوا عن بعض ما كانوا يبالون منه^(٢)

ثم جاء إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمرة فيريد الإسلام عراً ومعة
والمعروف أن عمر كان قبل إسلامه عليلاً قاسياً يلقى المسمومون منه أدنى وشدة، وكان
المسمومون يستعدون إسلامه لما يرون من قسوته حتى إن بعضهم قال لا يسلم عمر
حتى يسلم حمرة، الخطاب^(٣) والرواية التي تقدمها معظم مصادر حول الملاحظات
التي أحاطت بإسلام عمر تلخص في أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت مصدر
إيلاء لبعض ذويهم من غير المسلمين، وكان عمر يرى أن الدين الجديد هو سب
تعميق أمر قريش، ومن هنا صمم على أن يقتل محمداً بصفته في نظره مسؤولاً عن
ذلك، وهكذا حرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ، فبقية نعيم بن
عبد الله النخعي^(٤) وهو رجل من بني عدي كان مسلماً يكتنم لإسلامه فقال له أبن
تريد يا عمر؟ قال أريد محمداً هذا الصابي الذي فرق أمر قريش وسفّه أحلامها
وعاد دهبها وسب آلهها فأقتله! فقال له نعيم والله لقد عرتك بصفت يا عمر! أترى
بي عد مذهب تركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أملاً ترحع إلى أهل بيتك
تقيم أمرهم؟ وكسب أحب عمر فاطمة بنت الخطاب، ووجه سعيد بن زيد بن
عمرو بن نفيل قد أسلما وأحنيا إسلامهما عن عمر خوفاً من نبطه، فأحمره نعيم

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١٢ ٣١٣ وأبو حمزة أنه حمرة

(٢) المصدر نفسه، والجزء منه، ص ٣١٣، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٣٤

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٦٥، والكمال لابن الأثير، ج ٢، ص ٨٤، وعبود شريح لأم شاذر لكثبي

ج ١، ص ٧٥، وقاتل هذه المرأة هو عامر بن ربيعة بن مالك، أحد أصحاب نهضة الأولى التي لحقت

(٤) نعم بن عبد الله بن أسد بن عبد عوف، عرف بالثعلب، لأن الرسول ﷺ «أدب نحه فصعب نحوه

من نعم فيها»، والثعلب الثعلب محمد بن سعد الثعلب الكوفي، ج ٤ ص ٣٨، و«ر لأثير أسد

نعمه، ج ٥، ص ٣٤٦

بدلت، فذهب إليهما، وكان عندهما حجاب من الأثر يقرئها القرآن من صحيفة كانت معه، فلما أحسوا بقدوم عمر استتر حجاب وأحست فاطمة الصحيفة، وكان عمر قد سمع قراءة القرآن عندما اقترب من بيت أخته، فلما دخل قال: ما هذه الهيئة؟^(١) إلي سمعت؟ فلم يجيباه إجابة شافية فأحرهما مما علم من إسلامهما، ثم نطش بحسه سعيد بن زيد، فحاول أخته أن تدافع عن زوجها فأمسكها فأمسكها، فلما رأى عمر ما بأخته من لذه رفق بها ودم على ما صنع وطلب منها أن تعطيه الصحيفة، وكان بها سورة «طه»، فقبل له إنا نخشاك عليها، فحلف لها بأنه لن يردّها إليها، إذا قرأها، فطست منه أخته أن يمتلك قل أن تعطيه الصحيفة، فاعتسل فأعطتها له

فلما قرأ قدر مما فيها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! وكان حجاب في مكانه يسمع هذا الحور، وعندما لمس تأثر عمر بالقرآن طمع في إسلامه، فخرج عليه وقال له: والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد حصك دعوة نبي ﷺ فربى سمعته أمس وهو يقول: «لهم أيّد الإسلام بأبي الحكم من هشام أو بعمر من الخطب» فلهذه يا عمر! فقبل عمر. فدلني يا حبيب علي محمد حتى أتيه فأسمع، فقال له: هو في بيت عبد الصمد مع نفر من أصحابه فذهب عمر إلى هناك متوشّحاً سيفه، فمما طرق الباب وهم أحد لمسمعين أن يفتح له راه من حلق الباب، فرجع إلى الرسول ﷺ فرمى وهو يقول: يا رسول الله، هذا عمر من الخطب متوشّحاً سيفه! وكان حمرة بين الحصريين، فخرج علي الرسول ﷺ أن يأتى له، وقال في ذلك إن كان جاء يريد حياً! بدله له، وإن كان يريد شراً! قتلناه سيفه، فأذن له الرسول ﷺ فلما دخل عمر أحد الرسول ﷺ بمجمع ردها ثم جذبه جذبة شديدة وقال له: فما جاء بك يا ابن الخطب؟^(٢) فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة! فقبل عمر يا رسول الله، حثب لأومئ بالله ورسوله وما جاء من عند الله فكرر رسول الله ﷺ تكبيرة، فعرف أصحابه في البيت أن عمر قد أسلم^(٣)

وهذا رواية أخرى في إسلام عمر مؤداها أنه بينما كان عبد الكعبة يريد الطواف إذا

(١) نسخة كلام لا يبعد أو حجب لا يسمع وعنده عهد، واسم الداعل منه مجهول

(٢) سيره برهانه ج ١ ص ٣٦٥-٣٦٨ واشتداه والنهاية لأس كثر، ج ٣ ص ٧٧ و٧٨ ونكس

الأس لآخر ج ٢ ص ٨٤-٨٦ وعيون البوارق لأس شاذر الكشي، ج ١ ص ٧٥ و٧٧

برسول الله ﷺ قائم يصلي ويقرأ القرآن، فرق قلب عمر تأثراً بما سمع من القرآن، وبكى، وأصبح نفسه مهيأة للدخول في الإسلام، فلما قصي الرسول ﷺ صلاته وفرغ من تلاوته انصرف إلى بيته، فانصرف وراءه عمر حتى أدركه، ثم أقرأ أمهه بالإسلام، فطلق لسان الرسول ﷺ بحمد الله، ثم قال له «قد هداك الله يا عمر» ومسح صدره ودعا له بالثبات^(١)

ومهما تكن الرواية الصحيحة حول المحاسن التي أحاطت بالإسلام عمر، فإن ما نطمئن إليه أن إسلامه لم يكن قراراً عفويًا جاء وليد اللحظة، بل كان مسوقاً بتدبر عميق وصراع دخلي حاد. ومثل عمر لا يتخذ القرارات الارتجائية، وقد كان إسلامه راسخاً رسوخ لجيل، ولا يتأثر ذلك عن طريق قرار سريع خاطف. لقد أعطى عمر للإسلام نفسه، فعز بالإسلام وعز به الإسلام. ومما يروى عن عبد الله بن مسعود في هذا الصدد قوله: «إن إسلام عمر كان فتناً، وإن هجرته كانت بصراً، وإن إمارته كانت رحمة». ولقد كنا ما يصلي عبد الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عبد الكعبة وصلينا معه»

ويحتم حديثاً عن إسلام عمر بمحاولة تحديد التاريخ الذي أسلم فيه، والملاحظ أن العديد من مصادرنا تذكر أن المسلمين اكتملوا أربعين مائتة عمر إليهم^(٢)، وبعضها يرفع هذا العدد قليلاً^(٣)، ولكننا شككنا كثيراً في ذلك، فقد اكتمل المسلمون أربعين والدعوة في مرحلة الكتمان. وقد بلغ عدد مهاجري الحبشة في المرة الثانية أكثر من سبعين، وربما حار لنا أن نقل ذلك لو كان المقصود به المسلمين المسقيين في مكة بعد هجرة من هاجر معهم إلى الحبشة^(٤)، وهي صوء ذلك نطمئن إلى التاريخ الذي تقدمه بعض مصادرنا لإسلام عمر وهو العام السادس لبعثة^(٥)

(١) سيرة أبي هشام، ج ١، ص ٢٧٠

(٢) انظر عن سبل الثالث أسفة المطارقة، ص ١٨٠، وإلى الأثر الكامل، ج ٢، ص ٨٤، وأسد

النبوة، ج ٤، ص ١٤٦، وأبو بصير الأصماني حله الأولاد، ج ١، ص ٤١

(٣) السهني الروض الأنف، ج ٢، ص ١٢٠

(٤) ابن كثير النهاية والنهاية، ج ٣، ص ٧٧

(٥) انظر لأثر أسد النبوة ج ٤ ص ١٥١ ويورد البيهقي الأمر بتحديد حين يذكر أنه أسلم في ذي الحجة

من سنة ست مائة من سيرة تاريخ الخلفاء ص ١٢٥

اتجاه قريش في مقاومة الدعوة بعد هجرة الحبشة

ارتفع بهجرة المسلمين إلى الحبشة إسلام عمر بن الخطاب كما رأيت، وكان إسلام حمزة قبله بوقت غير طويل كما سبق الإشارة، وقد ذكرنا أن المسلمين عرفوا واسمعو، بإسلام حمزة وعمر، وأن المشركين كفوا عن معص ما كانوا ينادون من محمد ﷺ، وهذا ما تردده معظم مصادرنا. ولكننا نجد في هذه المصادر نفسها ما يشير إلى أن قريش لم تكف أدعاه عن الرسول ﷺ وأصحابه بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر بل إن عمر نفسه ناله نصيب من هذا الأذى، ذلك أنه ذهب ببعض قريش بعد إسلامه ويعلم على الحلال أنه قد أسلم. وعندما سمعوا ذلك ثاروا إليه، فما برح بشغلهم ويقالونهم حتى قامت الشمس على رؤوسهم^(١). وقد أحمره حاله أبو جهل بن هشام^(٢) فرده عمر عليه جواره. يقول عمر: «فما رلت أضرب وأضرب حتى أعر الله الإسلام»^(٣)

إن ما يبدو أكثر قبولاً هو أن قريشاً لم تتوقف عن إيذاء الرسول ﷺ وإيذاء المسلمين بعد هجرة الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر، بل عدلت أساليبها في الإيذاء ومقاومة الدعوة وطورتها حتى تتناسب مع التغييرات الجديدة. والحق أن هجرة الحبشة وما ارتفع بها من إسلام عمر وحمزة قللة تعد نقطة تحول أساسية في تاريخ الدعوة الإسلامية في مكة وموقف المشركين منها. فقد كانت قريش حتى ذلك الوقت تنظر إلى الإسلام نظرة فيها قدر كبير من الاستحفاف والاستهانة، فهذا الدين الجديد لم يكن في رأيها إلا بدعة روج لها مذع يحجب الظهور، ومن السهل القضاء عليها بأساليب المقاومة العادية البسيطة؛ ولهذا رأينا مقاومة قريش للدعوة تنحصر في البداية في عدم الإصغاء للرسول ﷺ وعدم أخذ دعوته مأخذ الجد، ثم اتخذت المقدمة شكلاً آخر وهو محاولة إغراء أي طالب بالتخلي عن بصرة ابن أبيه حتى لا تجد دعوته من

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧٠

(٢) تذكر بعض مصادر، أ. أم عمر هي حنيفة بنت هشام بن النخيلة أخت أبي جهل. نظر سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧١، ومروج الذهب للمسعودي، ج ٢، ص ٣١٣ وتذكر مصادر أخرى أن حنيفة هي بنت هشام بن النخيلة المعروف في بيت عم أبي جهل ابن حرم. جمهرة أساطير العرب، ص ١٢٢، ومن الأثر أسد الغابة، ج ٤، ص ١٥١ وأهل الأم كلهم أحوال، كما يقول ابن الأثير

(٣) ابن الأثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ١٤٩

بمساعدة فتتجهي إلى دوان، وأخيراً اتجهت قريش في مقاومتها للدعوة إلى أنشاع رسول الله ﷺ تصب عليهم سوط عذاب، وتذيقهم صوف الأدنى والهوان حتى تصرفهم عن دعوته فيطوبها النسيان

ولكن الدعوة مضت في طريقها واثقة تكتسب مزيداً من الأنصار، ووجد هؤلاء الأنصار ملاذاً مما في كنف نجاشي الحشة واكتسب الإسلام أنصاراً في قبة حمرة وعمر. وهنا سقط في أيدي قريش وأدركت أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن هذه الدعوة التي استحقوا بها أخطر كثيراً مما يظنون، ومن هنا لم يجدوا بُدّاً من أن يعيدوا تقييم الموقف كله وأن يعدلوا أساليب مقاومتهم للدعوة في ضوء هذا التقييم. ولهذا بعيد ما سبق أن ذكرناه مد قبل من أن هجرة الحشة تعد خطاً فاصلاً في تاريخ مقاومة مشركي قريش للدعوة الإسلامية

وقد ارتكزت مقاومة قريش للدعوة بعد هجرة الحشة على محورين: أما أولهما فهو إبراء الأدنى لماشر بالرسول ﷺ، وأما الثاني فهو ملاحقة كل من يسدده من بني هاشم وبني المطلب

١- إنزال الأدنى المباشر بالرسول ﷺ

كانت قريش قبل هجرة المسلمين إلى الحشة ترعى مكانة أبي طالب وحقوقه عليها فلا تسمح بدخول الناس إلى محمد ﷺ لما تعلمه من حماية عمه له. أما بعد هجرة الحشة فقد أسقط قريش هذا الاعتزاز من حسابها، فوجهت أهاج المباشر إلى الرسول ﷺ. بل إن أبا طالب نفسه امتدت إليه بعض آثار هذا الأدنى كما سوف نرى. وقد رأب قريش أن تتدحرج في يديها بالرسول ﷺ، فستطعت عبه في المدينة ألواناً من الأدنى لمسى، فمرته بالسحر والكهانة والجنون وأنه شاعر، وقد أراد من وراء ذلك أن تقضى على مصداقية دعوته وأن تصرف الناس عما يقول. وتكر الرسول ﷺ لم يعرف عنه شيء من هذه الصفات التي رموه بها، فلم يتسبب ذلك بالتالي في صرف الناس عن دعوته. وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلى هذه الأفعراء التي حاول المشركون بإصافها بالرسول ﷺ، وكان بحثه دائماً عن أن يحصي قداماً في طريق دعوته وأن يصر على ما يقولون. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَدَّحِرّاً قَالُوا أَتُتَّبِعُ رَّبَّهُمْ يَكْفِيهِمْ وَلَا يُجِيبُونَ﴾ ثم يقولون: ﴿شَاعِرٌ كَذَّابٌ﴾. رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴿١٥﴾ قُلْ رَتَّبُوا لِي

مَعَكُمْ يَرْكَبُ اسْتَرْعِيْنِ﴾ [الطور ٢٩ - ٣١] وَأَيْضًا ﴿كَذَلِكَ نَأْتِي الْقُرْآنَ بِأَيْمَانٍ مِنْ رَبِّهِمْ يُرْسِلُ بِهِ أَتُتَبِّرُ مَا لَمْ تُؤْمَرُ بِهِ﴾ [الأنعام ١١٤] وَكَذَلِكَ نَأْتِي الْقُرْآنَ بِأَيْمَانٍ مِنْ رَبِّهِمْ يُرْسِلُ بِهِ أَتُتَبِّرُ مَا لَمْ تُؤْمَرُ بِهِ﴾ [الأنعام ١١٤] وَكَذَلِكَ نَأْتِي الْقُرْآنَ بِأَيْمَانٍ مِنْ رَبِّهِمْ يُرْسِلُ بِهِ أَتُتَبِّرُ مَا لَمْ تُؤْمَرُ بِهِ﴾ [الأنعام ١١٤]

وعنده لم تأخذ هذه الأساليب في الحد من انتشار دعوة الإسلام بدأت قرش تسطد لسانها في لرسول ﷺ بالسب العاشر القبيح، كما بدأت تناله بالادب الديني ومما يروى في هذا السياق أن الرسول ﷺ مر يومًا على مشركي قريش عند الكعبة فوثقوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له أنت الذي تقول كذا وكذا^(١) لما يسعهم من عيب أكههم وديبهم، فيقول نعم، أنا الذي أقول ذلك فتقدم إليه عقبة بن أبي معيط^(٢) فموى ثوبه في عنقه وحنقه حنقًا شديدًا، فقام أبو بكر من خلفه، فوضع يده على منكبه، فدفعه عن الرسول ﷺ وهو يقول «يا قوم اتقوا رسول الله ﷺ أن يقول ربِّي الله»^(٣) وقد كان عقبة من أشهر من عرفوا بين القرشيين ببيداء النبي ﷺ، وقد قال فيه ﷺ «إنه وطني على عتي وأنا ساجد، فما رفع حتى ظننت أن عني قد سقطنا»^(٤) ومن بين من اشتهروا كذلك ببيداء الرسول ﷺ في هذه المرحلة أبو جهل وأبو لهب، وأمّية بن خلف، وأخوه أبي بن خلف^(٥)

أما أبو جهل فقد كان يكتي أبا الحكم فكتاه الرسول ﷺ أنا جهل لمرط فحوره، وقد «من قال لأبي جهل أنا الحكم فقد أخطأ خطيئة يستعمر الله معها»^(٦) وكان أبو لهب (ومعه عقبة بن أبي معيط) من بين جيران رسول الله ﷺ فقال ﷺ في ذلك «كسب بين شر حازين بين أبي لهب، وعقبة بن أبي معيط»^(٧) وأمّية وأبي لهب حبيب «كسب على شر ما يكون عليه أحد من أدنى النبي ﷺ وتكديته» كما يصعبهم، البلاذري^(٨)

(١) هو عذراء أبي سفيان بن أبي عمرو من أمه من عبد شمس انظر جملة أسباب العرب لابن حزم، ص ١١٤

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٣٣

(٣) البلاذري أسباب الأشراف، ج ١، ص ١٤٨

(٤) أنه وأبي هما أبا خلف من وجه من خلفه من جمع

(٥) البلاذري أسباب الأشراف، ج ١، ص ١٢٥

(٦) انصهر ص ١٣١

(٧) انصهر ص ١٣٧

والحق أن لادى الذي لقيه رسول الله ﷺ من هؤلاء ومن غيرهم من وحوه قريش في المرحلة لى شاولها الآن لم يزده إلا تمسكًا بدعوته وإصرارًا على حمل أمانة تجميعها

ب حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب

وبما كتب هذه الخطوة من أكثر الخطوات التى اتخذتها قريش ضد دعوة الإسلام تطرفًا وعزلة وقسوة ووجه التطرف والعزلة فيها أنها لم تكن موجبة ضد رسول الله ﷺ فقط بل ضد غير المسلمين أيضًا من عشيرة الرسول ﷺ من بني هاشم وأشباههم من سى المطلب، وعلى رأس هؤلاء جميعًا أبو طالب الذي وقف مع ابن أخيه مد لدابة بإصراره بكل ما أوتى من حول وقوة

أما وجه القسوة فى هذه الخطوة فهو أنها فرضت على من وُجهت صدهم نوعًا من الحصار الاقتصادي والاجتماعي كان يهدف إلى القضاء عليهم ماديًا ومعنويًا بتحويلهم وعزلهم فيسهل على قريش حينذاك أن تحل عليهم شروطها أو تتركهم لمصيرهم. وقد حدث هذا الحصار فى السنة السادسة من البعثة بعد هجرة الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر، وتم ساء على صحيفة كتبها قريش ووثقتها بشاهدين حائضين كما يقول اليعقوبى^(١)، وعلقتها فى خوف الكعبة أما ما تعاقدت عبه قريش فى هذه الصحيفة فهو ألا يروحوا أحدًا من سى هاشم وسى المطلب ولا يروحوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم وقد وقعت مو هاشم وسى المطلب مسلمهم وكفرهم فى هذه المحنة صفاً واحداً مع رسول الله ﷺ

أما المسلم فقد اسعث موقعه من إسلامه ودينه، وأما الكافر فقد فع ذلك «حمية أو بضام وقومه»^(٢) لكن أنا لى من عبد المطلب خرج من بني هاشم وانضم إلى قريش فى حصارهم لقومه^(٣) يقول اليعقوبى فى حديثه عن حصار الشعب «ثم حصر قريش قريش رسول الله ﷺ وأهل بيته فى الشعب الذى يقال له شعب سى هاشم»^(٤) بعد

(١) تاريخ المعقبين، ج ٢، ص ٣١

(٢) اللادري أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٠

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٧٢

(٤) ويروى أيضًا «شعب أبي طالب» انظر أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٠، وتاريخ الطري ح ٧، ص ٣٣٦

ست سب من معته، فأقام معه جميع بني هاشم ومن عبد المطلب في ثلث سب سب حتى أتى رسول الله ﷺ ماله، وأبقى أبو طالب ماله، وأبقت حديجة ست حويهد ماله، وصاروا إلى حد النصر والفاقة^(١)

وقد استعجب قريش هذا الموقف الدقيق الذي كان يمر به رسول الله ﷺ ولدين معه، فبدأت تلجأ إلى أسلوب المساومة معهم لأنها تطهر منهم بما عجزت عنه قبل ذلك فيروى أن سادتها عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أعز رحل مكة، وأن يروحوه من أراد من النساء مقابل أن يكف عن شتم الهنم، فبما لم يجهم الرسول ﷺ إلى هذا عرضوا عليه أن يعد الثلاث والعزى ستة ويعبدوا إلهه ستة^٢ فرب في ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْعَصْرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون ٢٠: ١] وقوله ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ثَمَّارُونَ ﴿١﴾ أَعْبُدُوا اللَّهَ ثَمَّارُونَ﴾ [الزمر ٦٤] وحاول القرشيون أنص أن يؤثروا في أبي طالب مستغلين هذه الظروف، فقد جاءوه وقتلوا له فقد ان يا أب طالب أن تذكر العهد وأن تشتاق إلى قومك وتدع الجحاح في اس أحيث^(٣) ولكن أب طالب كان على موقفه السابق الذي لا يلين

وقد أسر سو هاشم وسو المطلب يعانون من وطأة هذا الحصار ثلاث سب^٤، وصل الأمر بمشركي قريش حلالها إلى حد أنهم قطعوا عنهم الأسواق، فم سركونا طعاما يقدم مكة ولا يبعأ ولا يادروهم إليه فاشتروهم^(٥)، ثم أحس بعض رجال من قريش بمدى الضرر الذي يتركه صده بني عمومته فسعدوا إلى نقص هذه الصحيفة الطالعة دون أن يدلو، واعتراض المعتصين وعلى رأسهم أبو جهل وكان أول من سعى إلى تكوين جهة مقدومة قرشية لهذه الصحيفة هو هشام بن عمرو بن ربيعة (من بني عامر بن لؤي) وقد نجح هشام في إقناع أربعة من وجهاء قريش بوجهة نظره، وهؤلاء هم رهير بن أبي أمية بن المعيرة المحرومي، والمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأبو الحنثري لعاص بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، وزمعة بن الأسود

(١) تاريخ طبري ج ٢ ص ٣١

(٢) تاريخ طبري ج ٢ ص ٣٣٧

(٣) تاريخ طبري ج ٢ ص ٣١ ٣٢

(٤) البلاذري أسناد الأشراف، ج ١، ص ٢٢٣

(٥) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٣، ص ٨٢

ابن المطلب بن أسد بن عبد العزى^(١). وهكذا اتفق هؤلاء الخمسة على رفع الصحيفة من حوف الكعبة ونمريقها، وعندما توجهوا لتنفيذ قرارهم وقف دويهم أبو جهل معرّضاً فصحاء إجماعهم على هذا الأمر وإصرارهم عليه، فقال «هذا أمر قُصِي بيل، وتُشَوّر فيه غير هذا المكان» ثم تقدم المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليحرقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا عبارة «باسمك اللهم»، وهي التي كانت قرش تفتح بها ما تكب^(٢)، وبدلت انتهى هذا الحصار الأليم الذي كان قمة ما انتهت إليه قریش في مقاومة الإسلام وأصحابه، وخرج منه المسلمون كما دخلوا فيه، مستسكين بدعوة الدين الجديد، ملتجئين حول الداعي إليه.

وهناك عدد من الملاحظات الأساسية التي نختم بها حديثنا عن حصار شعب بني هاشم

الملاحظة الأولى: أن الذي دفع قریشاً إلى فرض هذه المقاطعة الطالمة هو ما أظهره الرسول ﷺ من عزيمة وإصرار على مواصلة دعوته رغم كل صور السجدي، وما كانت تحقّقه تلك الدعوة من نجاح وانتشار مطرد. ولا شك أن هجرة الحبشة أزعجت قریشاً وجعلت تحس أن الأمور هي طريقها إلى الخروج عن نطاق السيطرة وأنه لا بد من اتخاذ قرار سريع وحاسم لمواجهة هذا الموقف المتحدي. وما يقوله ابن هشام في ذلك: «فلما رأيت قریش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بدءاً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن لجشاً قد مع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمرة ابن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يشو في الغائل، اجمعوا ويثمنوا أن يكتنوا كناناً»^(٣)

الملاحظة الثانية: أن أما طالب كان هو الذي أخذ قرار اللجوء إلى الشعب عندما أدرك أن قریش ينصب الحية لقتل رسول الله ﷺ^(٤)، وقد كان يهدف من هذا القرار إلى توفير الحماية الكافية للرسول ﷺ عن طريق إحاطة أهله وعشيرته به، وعندما رأى

(١) أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٥ ٢٣٦

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٢ ٢٤٣

(٣) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧١ ٣٧٢

(٤) التاريخ أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٣٥، وابن كثير البداية والنهاية، ج ٣، ص ٨٢

مشاركو قريش ذلك اتخذوا قرار المقاطعة الذي كان يرمى إلى التقصص عن محمد ﷺ
وعنى كل من يقف بجانبه

والملاحظة الثالثة أن الرسول ﷺ حلال هذا الحصار الطويل ما وهن عزمه
ولا تكسر عن حمل أمانة الدعوة بكل ما أوتي من قوة وما أتبع أمانه من وسيلة، وهذا
ما يجمع عليه علماء السيرة في سياق حديثهم عن حصار الشعب. فمما يقولونه في
هذا الصدد «ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً، مدناً
بأمر الله، لا يبقى فيه أحداً من الناس»^(١)

وعندما سبى حصار الشعب بذات الدعوة الإسلامية تدخل مرحلتها الأخيرة في
مكة

وفاة أبي طالب وخديجة.

توفي كل من أبي طالب عم الرسول ﷺ، وخديجة زوجته، في عام واحد، وكان
ذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين، أي في العام العاشر من البعثة^(٢)، وتحصيف
الروايات في ترتيب وفاتها وفي التاريخ الدقيق لذلك، ولكن المشهور أن أبا طالب
توفي قبل خديجة^(٣)، ولا حاجة بنا إلى أن نتحدث كثيراً عن مدى التصاق هذين
بالرسول ﷺ وقربهما من نفسه ووقوفهما بجانبه، فلا عجب أن ترك وفاتها في نفسه
آلماً عميقاً، ومما يروى في ذلك أن الرسول ﷺ عندما علم بوفاة عمه أبي طالب «عظم
ذلك في نفسه واشتد حزنه، ثم دخل مصبح حبيبه الأيمن أربع مرات، وحبه الأسر
ثلاث مرات، ثم قال يا عم! زيب صغيراً، وكملت بيتاً، ونصرت كبيراً، فحزنك
الله على حزنٍ! ومشى بين يدي سريره وحمل يعرسه ويقول: وصلتك رحم، وجريت
حيزاً»^(٤) وكان أبو طالب حين توفي قد بنف على الثمانين

(١) سورة برهانه، ج ١، ص ٣٧٦، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٢٦، والنهاية لابن كثير، ج ٣، ص ٨٥

(٢) البداوي أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٢٦، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦٥

(٣) راجع شرح النووي على صحيح مسلم، ج ١، ص ٢١٥، حيث يذكر أن أبا طالب توفي من خديجة ثلاث
أيام وانظر أيضاً ابن الأثير أشباهه ج ٧، ص ٨٥، وابن كثير تهذيبه ج ٣، ص ١٢٠
وتذكر بعض مصادر أن خديجة توفيت من أبي طالب انظر على سبيل المثال، تنزيه أبي

الأشراف، ج ١، ص ٢٢٧، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥

(٤) تاريخ المعري، ج ٢، ص ٢٥

أما حديجة عليها السلام فقد كانت عوناً صادقاً للرسول ﷺ في كل مراحل حياته منذ رواجه منها حتى وفاته. وقد دخل عليها وهي تجود بنفسها فقال «لأنكره مني ما أرى، ولعل الله أن يجعل في النكره حيراً كثيراً» ثم عمر عن مدى تأثيره بوفاته أبي طالب وحديجة في رمد منقارب فقال: «اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري ما بهما أب أشد حرماً»، يعنى وفاة أبي طالب وحديجة^(١) ويروي أنه ذكر حديجة يوماً أمه عائشة فقالت «ما تذكر من عجزور من عجائر قرش حمراء الشدقين هنكس في لدهر، قد أندك الله حيراً منها»^(٢)، فعصب الرسول ﷺ من كلام عائشة «حتى اهتز مقدم شعره من العصب، ثم قال. لا والله ما أبدلى الله حيراً منها، است إد كهر الناس، وصدقنى وكذسى الناس، وواستى في ما لها إد حرمى الناس، ودرقى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء»^(٣) وقد توفيت حديجة عن خمس ومسين سنة.

ليس عجيباً إذن وهذه هي مكانة أبي طالب وحديجة من نفس الرسول ﷺ أن يطلق على لعمري لذي ماتا فيه «عام الحزن»^(٤) وليس عجيباً كذلك أن تردد حرارة المشركين عليه بعد أن فقد هذين النصيرين، وخاصة عمه أبو طالب الذي كان يدفع عنه كثيراً من طغيثهم. وما يروى في هذا السياق أن سفيهاً من سفهاء قرش شر العرب عمى رأسه ﷺ فدخل بيته والثراب على رأسه، فقامت إليه إحدى سته تغسل عنه الثراب وهي تكي والرسول ﷺ يقول لها «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أبائك»^(٥) ما هي التطورات التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة؟

هنا هو موضوع الفصل التالي ..

(١) انصهر عنه، والصفحة نفسها

(٢) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٤٨، ٤٩

(٣) ابن الأثير أشد العاج، ج ٧، ص ٨٥

(٤) محمد الحمصري، سيرة النبي، ص ٤٩

(٥) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل الخامس

تطور الدعوة في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة

تُعد السنوات الثلاث التي تلت وفاة أبي طالب وخديجة من أكثر الفترات حسناً في تاريخ الدعوة الإسلامية مكة، وقد نُوحب هذه السنوات الثلاث بهجرة الرسول ﷺ والمسلمين إلى المدينة

وأهم الأحداث التي مسير حوثها حدثنا في هذا الفصل هي على الترتيب التالي

١ رحمة الرسول ﷺ إلى الطائف

٢ الإسراء والمعراج

٣ بيعة العفة

١ رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

بوفاة أبي طالب فقد الرسول ﷺ أكبر تعبير له بين بني هاشم. وازدادت فريش عبه حرارة وبه مكرًا. وقد حل أبو لهب محل أخيه أبي طالب في رعاية بني هاشم^(١) وبه يجد فيه الرسول ﷺ إلا مريدًا من المكروه والكبد له والتحريض عبه ولكن لدعوة لا يد أن تمضي في طريقها رغم كل العقبات، تنعيدًا لأمر الله ببيع رسالته ومن هه فكر الرسول ﷺ في إنياد ميدان جديد من ميادين الدعوة لعله يحد فيه أدان صاعية، ذهب إلى مدينة الطائف يعرض على أهلها من ثقيف دعوة الإسلام ونو صبح أن

(١) M Watt, Muhammed. Prophet and Statesman. P 79

الرسول ﷺ كان يراوده الأمل في أن تجد الدعوة الإسلامية ملاذاً أساً في الطائف،
تدك المدينة الحصينة التي يُعرف أهلها باليأس وقوة الشكينة، فخرج إليها ثلاث ليل
نقيس من شوب سنة عشر من البعثة^(١)، وكان بصحة مولاه زيد بن حارثة، فمما أسهم
إلى الطائف التقى بثلاثة من أشرف ثقيف وهم عبد النليل بن عمرو بن عمير وأخواه
مسعود وحبيب، فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إليه، فأعرضوا عنه وسحروا منه، بل
إلى واحد منهم قال له: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟^(٢) ثم أعروا به سمعاً وهم
وعينهم يسونه ويرحمونه ويصيحون به^(٣) وكان من بين ما قاله سدة ثقيف في ردعهم
عنه: «كرو هذا أهل بلدك وقومك ولم يفلوا منك، فجننا، فجن والله أشد لك إداء»،
وعين رذ، ومنك وحشة»^(٤) وقد اضطرب الرسول ﷺ إزاء مطاردة سمهاء ثقيف به
أب يبعها إلى سدن لعنة من ربيعة وشيبة من ربيعة محتجاً به، فجنس هناك تحت ظل
كرمة، وبصرف عنه لباس فقال ياحي ربه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي
وهواني عني لباس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من
تكفي^(٥) إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري»^(٦) إن لم يكن بك عني عصب
فلا أدلي! ولكن عافيك هي أوسع لي أعود نور وجهك الذي أشرقت له الظلمات
وصبح عني أمر ندباً والأخرة من أن يزل بي عصك أو يحل عني سحطت لك
العتبي حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك»^(٧)

وبعد هذه التجربة القاسية التي تعرض لها رسول الله ﷺ بالطائف رجع بصحة
مولاه زيد بن حارثة إلى مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وهرق دمه^(٨) ومن
هنا لم يستطع أن يدخل مكة عبر حواري وقد التمس جوار غير واحد به فم بجره
إلا المطعم بن عدي^(٩) وقد دخل مكة عائداً من الطائف في الثالث والعشرين من
ذي القعدة سنة عشر من البعثة^(١٠)

(١) اللادري أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٢٧

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٥، وتاريخ الخلفاء، ج ٢، ص ٣٦

(٣) أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٢٧

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٥

(٥) انصاف صمد، والنجد صمد، ص ٢٤٧

(٦) اللادري أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٢٧

هكذا، تولب المحض على الرسول ﷺ: "فقد توهي اثنان من أحب الناس إليهم وأكثرهم رحمة به، وحذله ثقيف وسخرت منه وردته ردًا قبيحًا، كما اشد عليه أدى قومه من قريش ولكن الرسول ﷺ زعم هذا كله ثم يبأس من نصر الله

٢- الإسراء والمعراج

في تلك الظروف حدثت أحداث الإسراء والمعراج، ولعل الله سبحانه أراد به نوعًا من الدعم المعنوي للرسول ﷺ في محنته، حتى يستطيع أن يواصل طريق الدعوة وثائق أن الله حافظه ومؤيده. ويختلف علماء السيرة حول التاريخ الدقيق لهذه الأحداث، فيبين يرى البعض أنه كان قبل وفاة أبي طالب وحديقة يرحح بحروب حدوثه بعد ذلك، وهو ما نطمش إليه، بل إن البعض يذكر أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة سنة أو ستة عشر شهرًا^(١). وقصة الإسراء والمعراج دالة مشهورة، وما يعيد منها هو ما ترتب عليها من ردود أفعال لدى المشركين والمسلمين عنى السوء. وقد أشد القرآن الكريم إلى الإسراء في قوله تعالى ﴿سُحُورَ الَّذِي أُتْرَى بِسُودٍ لَنَا بِرَكِّ السَّجْدِ أَكْرَمَهُ إِلَى تَلَسُّدِ الْأَقْصَا الَّذِي مَرَكَا حَوْلَهُ يُرِيهِ مِنْ كَيْبٍ يَمْهُ هُوَ أَسْمِعُ الْعَبِيرُ﴾ (الإسراء ١) كما أشار إلى المعراج في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَفَعْنَا رُبُّكَ أَهْرَ (٢) عَدَ يَدْرِي لَمَسْنَا (٣) عِنْدَ رَبِّهِ لِلَّذِينَ (٤) لَا يَفْقَهُونَ الْآيَاتِ مَا يَقُولُ (٥) مَا رَأَى الْكَمَرُ وَلَا كُنْ (٦) لَقَدْ رَأَى مِنْ كَيْبٍ يُرِيهِ الْكَافِرِينَ﴾ (النجم ١٣-١٨)^(٧). وقد فرصت الصدوات الخمس عدده نهيتها المعروفة^(٨) كما سقت الإشارة

وعندما أدع الرسول ﷺ حديث الإسراء والمعراج في مكة كان لذلك صدى عميق في نفوس من سمعوه، سواء أكانوا مشركين أم مسلمين. أما المشركون فحين لا يتوقع منهم سوى الإنكار الشام، وأنى لهم أن يفعلوا غير ذلك وقد أنكروا رسالة لرسول ﷺ من أساسها^(٩) فيروي المؤرخون أن أبا جهل حين سمع بحديث الإسراء والمعراج من الرسول ﷺ قال له: "أرأيت إن دعوت قومك لك لتخبرهم، أنحرهم بما أحسرتي به؟

(١) انظر تحصيله في حياته وانهاية لأب كثير ج ٤، ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢) وقد ربط البعض كما أشرفا بين سورة النجم وقصة التراس التي رطب بهجرة لحسنه وقد يمكن أن يُعدّ دليلًا آخر على نهائات هذه القصة. راجع ص ١٩، ٧٢ وما سب.

(٣) سورة ابن هشام، ج ١، ص ١٥.

قد نعم فجمع له أبو جهل قريشاً وقال للرسول ﷺ: أحمر قومك بما أخرتني به! فقص عليهم رسول الله ﷺ حرم ما رأى وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة، وصرخ فيه: «من بين مُصَفَّى ومُصَفَّرٍ تكديباً له واستعداداً لخره»^(١) وأما المسمومون فينصح موقفهم من حلال الرواية الثانية التي تحدثنا عن موقف أبي بكر، فقد ذهب إليه أسس بحروبه أن محمد ﷺ يقول إنه أسري به إلى المسجد الأقصى وعُرخ به من هناك، فقال أبو بكر: إنكم تكذبون عليه! فقالوا: والله إنه ليقوله! فقال: «والله إن كذب فيه لقد صدق، فما يُفجعكم من ذلك»^(٢) والله إنه ليخبرني إن الحبر يُبأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أُنعد مما تعجبون منه»^(٣) وقد لُقّب الرسول ﷺ أن بكر بالصديق منذ ذلك الوقت^(٤)

ولا شك أن ردّ أبي بكر على المشركين في البداية مقوله: «إنكم تكذبون عليه» يدل على أن حديث الإسراء والمعراج كان مفادحة للمسلمين جميعاً فضلاً عن الخاصة منهم كأبي بكر، ولهذا يُروى أن بعض المسلمين ارتد بعد سماعه بذلك الحديث^(٥) وكان ما يستند إليه الكفار والعشككون هو أن الإبل تسير شهراً من مكة إلى الشام داهية، وشهراً بنة، فكيف يذهب محمد ويعود في ليلة واحدة؟^(٦) ومن هنا كان حديث الإسراء والمعراج احتيازاً ليقين المسلمين وتمحيصاً لإيمانهم، وإثباتاً لهذا شير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا قِبْلَةً يَذِينَ﴾^(٧) [الإسراء: ٦٠] وكان راسخو الإيمان من المسلمين يعتمدون على أن الرسول ﷺ صادق مصدق في كل ما يقول ﴿وَمَا يُلْقِيْ عَنِّي لُكُوفٌ﴾ كما وصفه القرآن الكريم^(٨)

(١) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٣، ص ١١١ وانظر أيضاً ابن الأثير الشرح ج ٢ ص ٥٦

(٢) سيرة أبي هشام، ج ٢، ص ٥

(٣) المصدر ص ٥، وانظر ص ٥٦

(٤) المصدر ص ٥ وانظر أيضاً ابن الأثير الكامل، ج ٢، ص ٥٦

(٥) انظر حول ذلك سيرة أبي هشام، ج ٢، ص ٥، وكلمته «الرواية» فسر بـ «أخرى» جمعاً في كشف البرقعي، ج ٢، ص ٦٧٥ ٦٧٦

(٦) قد يكون مراد حسنة أن شير أبي بكر من خلاف حرم كعبه الإسراء ولغيره، غيري جمهور المسلمين أن الإسراء والمعراج كليهما كانا بالروح والعبد متيناً ويقع البعض إلى أن الإسراء من مكة إلى بكة حفص كان بالروح والحدود وكان المعراج بالروح فقط ويرى آخرون أن الإسراء والمعراج كليهما =

٣- بيعتا العقبة

الظروف التي مهدت لبيعة العقبة الأولى أشارنا منذ قليل إلى أن الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وحديقة ذهب إلى الطائف يلتبس بصرة ثقبف، وإلى أن ثقبف أسد استغله وردته ردًا قبيحًا، ولم يُصغف هذا من عزم رسول الله ﷺ عن مواصلة تباع الدعوة لكل من استطاع أن يتصل به من العرب بل ومن الشر جميعًا، والأمر مبروك بعد ذلك لإرادة هؤلاء ﴿فَمِنْ شَأْنِ قُلُوبِهِمْ وَمِنْ شَأْنِ هَبْكَمْرٍ﴾ (الكهف ٢٩)

فكان الصبح لذي اتبعه الرسول ﷺ بعد ذلك هو أن يعرض نفسه في المواسم إذا كان على قتل لعرب، يدعوهم إلى دين الله ويحرمهم أنه نبي مرسل وسألتهم أن يصدقوه ويصغوه حتى يبين عن الله ما بعثه به^(١) ويتضح هذا مما يرويه ربيعة بن عبد^(٢) إذ يقول «بني لعلام شاب مع أبي معن، ورسول الله ﷺ يقف على مزار القاتل من العرب، فيقول يا سي فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتسمعوني حتى أيس عن الله ما بعثني به»^(٣)

ولم تكن مهمة الرسول ﷺ سهلة، فطالما لقي إعراصًا من هؤلاء الذين كان يدعوهم، وتكديًا له وسخرية منه. وكان من بين القبائل التي عرض عليها نفسه ودعوته قبيلة كندة، وكتب، وبني عامر بن صعصعة، وبني فزارة، وبني مرة، وبني

- كان يروح فقط وهم يصدقون على ظهوره كلمة «أرويا» التي جاءت في قوله تعالى ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ أَثَرُكَ بِالْأَمْنِ لَقَدْ جَاءَهُمْ لَاسِرًا﴾ [١٠] فأرويا معناه أو روحه وأرويه عنه ويروى في هذا السناد عن عاتكة بنت أبي طالب أن بعد جد رسول الله ﷺ ونكر أنه أسرى بروحه، وكان معاوية قد سئل عن أسرى رسول الله ﷺ يقول «كانت روقيا من الله صادقة» لمزيد من التفصيل انظر من كتب الحديث والتهذيب، ج ٣، ص ١١٢ وما بعدها؛ وأما القسم زاد المعاد، ج ٢، ص ٤٨، ٤٩، واشكوت محمد حسين هكسر جاء محمد عن ٢٠٢ ٢٠٩

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٨

(٢) ربيعة بن عباد (نكر العين وتضعف الهمزة) ويروى عباد (نصم العين وتضعف الهمزة) وفي عباد (بشديد) هو من بني تميم من عباد من كندة وهو ماضي أحد رواة الحديث، وقد شغل طويلاً ومات بدمية في خلافة الوليد من عهد الخلفاء انظر مرجعه في أسد ثمانية لاسر لأشتر، ج ٢

ص ٢١٣ ٢١٤

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٨

عس، وبني سليم، وبني بكر بن وائل، وبني محارب، وبني حنيفة وغيرهم^(١) وقد أعرض هؤلاء جميعًا عن دعوته، وقال له رجل من بني محارب يومًا: «والله لا يؤوب بنت قوم إلى درهم إلا أبوا» ثم ما لبث أن أتاه أهل موسم^(٢) ولكن لم يكن في هذه القدائل حريقًا أقبح ردًّا عليه من بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة^(٣)

ومما رد لهمة تعقيدًا أمام الرسول ﷺ أن مشركي قريش كانوا يحدلون الوقوف في وجهه وصد الناس عنه وهو يُبلغ دعوته في المواسم يروي ربيعة بن عبد مهدي، الصدود أنه رأى ما لبث معكاف وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول يا أيها الناس، إن هذا قد عوى، فلا يُغويكم عن آية الله أنكم ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره^(٤)

على أن هذا كله لم يرد الرسول ﷺ إلا إصرارًا على الحضي في طريق تبليغ رسالته وكسب بات الوحي يتوالى برؤياها عليه لتشد من أزره، صارية له المثل بمن أرسوا، فنه فصبوا على التكذيب والادى ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ وَسَأَلْتَ مِنْ قَبْلِكَ فَصَدَّوْا عَنْكَ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدَوْا عَنْهُمْ صَرَخًا وَلَا مَوْلًى يَكْتُمِبُ﴾ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ سَيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴿الأنعام ٣٤﴾ ثم أراد له للأصبار أن يبالوا شرف تصديقه ﷺ والإيمان به بين القبائل التي وجّه إليها دعوته يروي ابن كثير أن الرسول ﷺ لم يأت أهلًا من تلك القبائل إلا قال «قوم الوحل أعلم به» أتروا رجلاً يضلحنا وقد أفسد قومه ولعظوه؟^(٥) وكان ذلك مما دحره له للأصبار وأكرمهم به^(٦)

فقد حرج الرسول ﷺ في أحد المواسم وكان ذلك في العام الحادي عشر لبعثته، أي قبل الهجرة بمائتين فعرّض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم فبيما هو عند العقبة (على مشارف مكة)^(٧) إذ لقي ستة رجال من الحرج، فدعاهم

(١) حيدر عبيد وجرهم من ٢٢٩-٢٥٠ وانظر أيضًا البلاذري أسباب البلاء ج ١ ص ٢٣٧-٢٣٨

(٢) البلاذري أسباب الأشراف، ج ١ ص ٢٣٧

(٣) انصهر الناس، ص ٢٣٧-٢٣٨

(٤) ابن الأثير أسد الله ج ٢ ص ٢١٥

(٥) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٣ ص ١٢٨

(٦) هذه مفعولة قد هي تكلم الذي كان يقع بين بني ومكة. وسه وسه مكة نحو منبر، وسه ترمي حجرة

عنه بغير ياقوت محمد الملاك ج ٤ ص ١٥١

إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فأجابوه وصدّقوه وذلّوا، له
 «إِنْ قَدْ تَرَكْنَا قَوْمًا وَلَا قَوْمَ يَبْهَمُ مِنَ الْعَذَاةِ وَالشَّرِّ مَا بَيْنَهُمْ، وَعَسَىٰ أَن يَجْمَعَهُمْ
 بَيْتٌ وَسُقُودٌ عَلَيْهِمْ مَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَمْرِكَ وَمَعْرُضٌ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَحْسَنَكَ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا
 الَّذِي هُوَ يَجْمَعُهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَا رَحْلَ أَعْرُ مَلِكٌ»^(١) ثم انصرفوا راحلين إلى
 بلادهم. أما هؤلاء الرجال الستة فهم أسعد بن زرارة (أبو أمية)، وعوف بن
 الحارث بن ربيعة (وهو ابن عفره)، وزافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن
 حديدة، وعثمة بن عامر بن أبيي، وحارث بن عبد الله بن رثاب^(٢)

لما قدم هؤلاء يشرب على قومهم «ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعواهم إلى الإسلام
 حتى فشا فيهم، فلم تنق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ»^(٣)
 بهذه هي الظروف التي مهدت لبيعة العقبة الأولى

١ بيعة العقبة الأولى وانتشار الإسلام في يثرب:

بعد مضي عام على لقاء الرجال الستة من المخرج بالرسول ﷺ واستجابتهم لدعوته
 بثمان عشر رجلاً من الأنصار شطر مكة، وذلك في العام الثاني عشر من البعثة،
 تفقروا رسول الله ﷺ بالبيعة فابعوه البيعة التي اشتهرت باسم «بيعة العقبة الأولى» كما
 عرفت أبقت بيعة النساء^(٤)

والملاحظ أن اللقاء السابق وهو الذي تم في العام الحادي عشر من البعثة لم
 تحدث فيه بيعة، ربما ترتب عليه إسلام رجال المخرج الستة

كان بين الرجال الاثني عشر الذين شهدوا بيعة العقبة الأولى عشرة من لخرج
 وثمان من الأنصار أما رجال المخرج فهم أسعد بن زرارة (أبو أمية)، وعوف
 ومعدد بن الحارث (وهما ابن عفره)، وزافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٥٤

(٢) انصاري، تاريخه، وابن جرير، ص ٣٥٤ ٣٥٥، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٨ ٣٩

(٣) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٩

(٤) حسب بيعة النساء، لأنها وقت ما رتب عليه مع النساء عام البعثة في السنة السادسة من الهجرة وهي
 التي يشير إليها قوله تعالى في سورة الممتحنة آية [١٢] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُضَافِينَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا إِلَيْكُمْ أُولَٰئِكَ يَجْعِلُوا بُيُوتَهُمْ مُنَافًى لِلدِّينِ عَظِيمًا﴾ ولا تَدْخُلُوا بُيُوتَ الْمُضَافِينَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا إِلَيْكُمْ أُولَٰئِكَ يَجْعِلُوا بُيُوتَهُمْ مُنَافًى لِلدِّينِ عَظِيمًا﴾ [الممتحنة ١٢] انظر ابن كثير التفسير، ج ٣، ص ١٤٨

من حديفة، وعقبة بن عامر بن مأي، ودكوان بن عبد قيس، وعُذادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، والعباس بن عُذادة بن نضلة وأما الرحلان من الأوس فهما: أبو الهيثم مالك بن النخيعان، وعُويم بن ساعدة^(١)

أما يهود هذه البيعة فيوضحها عبادة بن الصامت، أحد من شارك فيها، حيث يقول «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فإيعا رسول الله ﷺ عنى بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترص علينا الحرب عنى ألا نشرك بالله شيئاً، ولا سرى، ولا موسى، ولا نقتل أولادنا، ولا تأتى بهتان نهرية من بين أيدينا وأرجسنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وجئتم فلکم الجنة، وإن عشبتم من دنائت شيئاً فأمرکم إلى الله ﷻ إن شاء عقر، وإن شاء عذب»^(٢)

وعندما رحع أصحاب بيعة العقبة الأولى إلى يثرب أرسل معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير^(٣) (وكان من بين من عادوا من الحبشة)، وأمره أن يقرنهم القرباء ويعصمهم الإسلام ويقفهم في الدين وقد عُرف مصعب هناك بالحققى، وكانت إقامته عند أسعد بن زرارة^(٤)

أرداد الإسلام استأرا في يثرب بعد بيعة العقبة الأولى، وذلك بفصل حركة الدعوة التي قم بها لتسبقوا إلى الإسلام من الأنصار، ثم بفصل الجهد الذي بذله مصعب بن عمير في هذا المجال. وعلى يد مصعب أسلم رجلا من الأوس كب للإسلامهما أثر كبير في شر دين الله بين قومهما من بنى عبد الأشهل، وهما سعد بن معاذ، وأسيد بن خضير. ولجدير بالذكر أن أسيد بن خضير ذهب أولاً إلى أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير ليصدهما عن الدعوة، وذلك بتوجيه من سعد بن معاذ، وعندما دحس عنيهما قال لهما مؤثراً ما جاء بكما إلينا تسفها صغافاً^(٥) اعترلانا إن كان لكما في أنفسكما حاجة ولكن مصعباً كلمه بحكمة وأبى وعرض عليه الإسلام عرضاً ترك في نفسه أعظم الأثر، فأعس اعتناقه له، ثم أعزى سعد بن معاذ أن يذهب إلى أسعد ومصعب

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٥٥-٣٥٦، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤٠-٤١

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤١ وانظر أيضاً صحيح البخاري، ج ٥ ص ٧ (مع اختلاف يسير في حاشية)

(٣) هو مصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد القار بن قصي

(٤) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤٢

ليسمع منهما نفسه، ففعل سعد، ولم يلبث أن أسلم على يد مصعب كما أسلم أسيد، وقد كان لإسلام سعد من معاد أعظم الأثر في إسلام قومه من بني عد الأشهل، فيروى أنه جمعهم بعد إسلامه وقال لهم يا بني عد الأشهل، كيف تعملون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمسا نقيّة! قال: فإن كلام رجالكم وسائلكم عني حراء حتى تؤمنوا بالله ورسوله! فما أسنى في دار عد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسماً أو مسمة^(١)

ب بيعة العقبة الثانية

لما وفي ذو الحجة من العام الثالث عشر للمعة أي قبل الهجرة بثلاثة أشهر قدم إلى العقبة ثلاثة وسبعون رجلاً من مسلمي يثرب^(٢)، ومعهم امرأتان^(٣)، واجتمعوا بالشعب عند لعقة ينظرون مقدم رسول الله ﷺ، حتى جاء معه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لم يُسلم بعد، ولكنه أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ويوثق له؛ لأنه عرف أن هناك حيفاً بينه وبين أهل يثرب بما قد يترتب على ذلك من حرب ضد قريش ولما كان هو هاشم قد تعاهدوا أن يمتنعوا محمداً وينصروه فلا بد أن يستوثق العباس لابن أخيه حتى لا تكون كارثة يضلّي هو هاشم بارها ويتحيز عهدهم اليثريون^(٤) ولهدا كان العباس أول من تكلم، فقال للمجتمعين: «إن محمداً ما حيث قد عزم، وقد معاه من قوما ممن هو على مثل رأينا، وهو في عر من قومه وسعة في يده، وإنه قد أسى إلا الانقطاع إليكم واللاحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، وما دعوه ممن حالقوه، فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مُسنّمون وحادلوه بعد لحروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عر وسعة من قومه ويلده»^(٥)

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٥٧ ٣٥٩

(٢) سيرة أبي هشام، ج ٢، ص ٤٩ وروى الطبري (ج ٢، ص ٣٦٢) أنه كان سبعين رجلاً

(٣) هذا أم عمار، وهي بنت كعب امرأة زيد بن عاصم، شهدت معه لعقة وسعة لخصه ب، ويوم سبانه وبشره بعد ما تبصها وشاركت مع ابنها عبد الله في قتل مسلمة، والأخرى أم سب، وهي أسماء

بنت عمرو بن عبد وكتباها من الحرج السهلي الروض الأدهج، ج ٢، ص ٢٦٥ ٢٦٦

(٤) د محمد حسن شكل حياة محمد، ص ٢١٧

(٥) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٢

فقد أهل يثرب للعباس. قد سمعنا ما قلت؛ فتكلم يا رسول الله، وخذ لعسك وريدك ما أحست. فتلا رسول الله ﷺ القرآن ودعا إلى الله ثم قال. أبابيعكم عمر أن تسمعوني مما تصنعون منه نساءكم وأبناءكم. فقال التراء بن معرور وكان سيّدًا في قومه من الحخرج «ولدي معك بالحق لمصعك مما سمع منه أُرز» (أي نساءه) ^(١)؛ فباع رسول الله ﷺ، فصاح والله أهل الحرب وأهل الحنفة (أي السلاح)، ورشده كبيراً، عن كبير ^(٢)

ولكن أبو الهيثم ماثك من الشبهة سأل رسول الله ﷺ سؤالاً لا شك أنه كان يدور بحاطر بعض الانصار حيث قال له «يا رسول الله، إن يسا وبين الرجل حداً، وإن قطعوه» (يعني اليهود)؛ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرت الله أن ترحم إلى قومك وتدع؟» فتسم رسول الله ﷺ ثم قال «بل الدمُ الدمُ، والهدمُ الهدمُ، أنا منكم وأنتم مني؛ أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمكم» ^(٣)

ثم طلب منهم رسول الله ﷺ أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيب (أي أمية وممثلاً) فحدروهم له وهم تسعة من الحخرج وثلاثة من الأوس وهؤلاء هم نساء الحخرج أبو أمة أسعد بن زارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورفع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعددة بن الضمض، وسعد بن عباد، والحنتر بن عمرو بن حنيس أما نساء الأوس فهم أسيد بن خضير، وسعد بن حنيفة بن الحارث، وأبو الهيثم بن الشبهان ^(٤)

وقد قد لعاس بن عاذة بن نضلة أحد شهود هذه البيعة والبيعة السابقة لقومه من الحخرج عند بيعة رسول الله ﷺ يا معشر الخخرج، هل تدرون علام تصعبون هذا الرجل؟ قالوا نعم قال إنكم تصعبونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فرب

(١) جاء في نسخة أبي الهيثم «علي أن يصعك مما سمع منه أُرز» أراد نساءه والحرب تكي عن امرأة الأزار، وتكي أَيْف الأزار عن النساء وتجمع الثوب عارة عن لابس فقوله مما سمع منه أُرز، يحتل الوحش «الروص الأهد» ج ٢، ص ٢٦٨

(٢) سيرة أبي هشام، ج ٢، ص ٥٠

(٣) حيدر ص ٥٠ ٥١ وقوله ﷺ «بل الدمُ الدمُ والهدمُ الهدمُ» أي دمي دمك، وخرمي حرمك وكانت العرب تقول عند عقد الحلف والتجار «دمي دمك وعشيت دمك، أي ما همت من لئام همتك» أي بغير مدح من لأف ج ٢ ص ٢٦٨

(٤) سيرة أبي هشام، ج ٢، ص ٥١ ٥٣، وأسباب الأشراف للبلادي، ج ١، ص ٢٥٢

كسّم ترون أنكم يا بهك أمواكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمض الآن دفعوه، فهو والله حري الدنيا والأخرة إن فعلتم، وإن كسّم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فمخلوه فهو والله خير الدنيا والأخرة قالوا فب ما حده على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وقينا؟ قال. الحجة. قالوا. أسط يدك. فسط يده مايعوه^(١)

فهذه هي بيعة العقبة الثانية أو بيعة العقبة الكبرى كما تسمى نحن، ويطلق عليها أحياناً «بيعة الحرب» وهي التي تمت في ذي الحجة من العام الثالث عشر لبعثة ولدي لا شك فيه أن هذه البيعة تعد نقطة تحول كبرى في تاريخ الإسلام، ولهذا يروى عن كعب بن مالك أحد شهود هذه البيعة أنه قال. «لقد شهدت مع النبي ﷺ لبيعة العقبة حين توثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها»^(٢)

بين بيعة العقبة الأولى والثانية

ملاحظ في بيعة العقبة الأولى أن أصحابها مايعوا رسول الله ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا بهتان ولا يعصوا رسول الله ﷺ في معروف. أما في بيعة العقبة الثانية فقد أضاف أصحابها إلى ذلك كنه بيعة رسول الله ﷺ على العصرة، أي على أن يسموه مما يسمعون من نساءهم وأبناءهم، أو مما يسمعون من أزهرهم كما قال الرء من معروف، أو عن حد تعبير العباس بن عباد «بكم تايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس» فهي إذن بيعة على لعصرة الثامنة لرسول الله ﷺ ولذيه، ومن هنا ذهب أهل ثرب بذلك لقب الحلد في التاريخ، وهو «الأمصار»، ومن هنا أيضاً كانت هذه البيعة مقدمة حقيقية لهجرة رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة

ولكن قبل أن نشاول الهجرة إلى المدينة لا بد أن نتوقف هنا وسؤال

ما الذي جعل عرب ثرب أسرع من سواهم من قبائل العرب إلى الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ والوقوف بجانبه؟

يقدم الباحثون عدة أسباب لذلك لعل أهمها ما يأتي

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٣ ٣٦٤ واطرأ أيضاً سيره من هشام، ج ٢ ص ٥٥

(٢) صحيح البخاري، ج ٥، ص ١٩ ٢٠

أولاً ما ترتب على حوار العرب لليهود في يثرب من الآثار روحية جعلت العرب هناك أكثر فهماً وتقبلاً لحقيقة الدين السماوي الذي جاء به محمد ﷺ. وقد كان اليهود وهم أهل كتاب يعيبون على عرب يثرب عاداتهم للأصنام ومع ذلك لم يعصب عرب يثرب لليهودية لأن اليهود لم يقدموا سلوكهم العامي مثلاً يحتذى أمام حيراءهم كما أشرف قبل ذلك، ولأن اليهودية تحولت على يد أنناع موسى إلى دين عصري قائم على فكرة شعب الله المختار فلما جاء الإسلام كان عرب يثرب أكثر فهماً لأبعده وأسرع استجابة له من غيرهم من قبائل العرب نتيجة احتكاكهم المتصل باليهود وحوارهم لثباتهم معهم^(١)

ثانياً: التوتر المتصل في العلاقات بين اليهود والعرب في يثرب. وقد أدى هذا التوتر إلى تهديد اليهود للعرب بقولهم «إن نبياً الآن صعد قد أطل زمانه، تنصه وفتنكم معه قتل عاد وإرم» فعندما التقى رسول الله ﷺ مع النقيض منهم من عرب يثرب ودعاهم إلى الإسلام قال بعضهم لبعض «تعلمون والله إنه لنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يستفتنكم إليه»^(٢) وهكذا أسرع عرب يثرب إلى اعتناق الإسلام ليكسبوا بإسلامهم عزاً وسلطاناً في وجه من يتحداهم من اليهود

ثالثاً: العداوة المحتدم بين عرب يثرب من الأوس والخزرج. وقد وصل هذا العداء ذروته في يوم بعاث^(٣)، حيث كانت فيه ملحمة عظيمة بين هاتين القبيلتين قتل خلالها عدد من أشرف الأوس والخزرج وكثر انهم. وقد حدث ذلك قبل بعة العقبة الأولى بوقت قصير ولم يمض زمن طويل على يوم بعاث حتى التقى رسول الله ﷺ بالرحيل الستة من الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه إليه، وقالوا له «إنا قد تركنا قوماً ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى الله أن يجمعهم بك وسقدم عليهم

(١) راجع د. محمد حسين شكل حياة محمد، ص ٢١٢ ٢١٣

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٥٤

(٣) بعاث مكان بالقرب من المدينة، على مسيرة ميل شرقي المدينة أو إلى جنوبها الشرقي على الصعيد، وهو الذي شهد حرب بني النضير الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة صباح يوم السبت ١٢ من شهر ربيع الأول ١ من الهجرة النبوية. وكانت هزيمة الخزرج هزيمة مكررة وبعثت موجع لضمه بني خزرجية. يهودية يثرب بول Bahl مادة بعاث في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة المبرمة)، ج ٧، ص ٣٤٣

فدعوههم إلى مُرك وعرص عليهم الذي أحسّك إليه من هذا التّدين، فإنّ جمعهم إليه عليه فلا رجل أعر ملك^(١)، كما سنّ أن أشرنا إلى ذلك في حديث عن الطّروف سي مهدي لبيعة العقدة الأولى.

فهذه هي أهمّ لأسباب التي أُناحت لعرب يثرب سرعة الاستجابة لدعوة الإسلام ولكن قد يضاف إلى ذلك كلّ ما حياهم الله به من فطرة صحيحة جمعهم بسوسوب حقيقة هذا الدين الذي لا يتصادم مع الفطرة بل يتنسّ معها كلّ الاتساق، وذلك مصداقاً لقوله تعالى ﴿هَاقَّةٌ وَجَّهَتْ إِلَى بَيْتٍ عَرِيفًا فَطَرَّتْهُنَّ أَنَّى فِطْرَ النَّاسِ غَنِيًّا﴾ [الروم ٣٠]

(١) حول الطّروف انحصار التي حثّت في عرب يثرب الاستعداد للدخول في الإسلام راجع د أحمد شمس الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٢٩ - ١٣٠

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل السادس

الهجرة إلى المدينة ونشأة الدولة الإسلامية

كان واضحاً من خلال بيعة العقبة الثانية أن «يثرب» ستكون المركز الجديد للدعوة الإسلامية، وهذا المركز الجديد للدعوة كان محتثاً عن مركزها السابق وهو مكة من حيث به كان مرشحاً ليصبح معقلاً للدعوة وحضناً لها، بخلاف مكة التي كانت حراً على الدعوة ومصدر تهديد لاعتقائها. ولا شك أن الرسول ﷺ مد ثقافته لأول مرجح الحرج لسنة كان بروده الأمل في أن يحتضن شرب دعوة الإسلام. وعندما تمت بيعة العقبة تثبتت نيات كل الأطراف لتحويل هذا الأمل إلى حقيقة. وقد كان كلام العباس بن عبد المطلب في معاوضات البيعة الثانية يتضمن إشارة واضحة إلى ذلك حيث قال: «إن محمداً قد أتى إلا الانقطاع إليكم والتخويع بكم» كما تضمن كلام أبي الهيثم بن التيهان هذه الإشارة نفسها عندما عر عن محاورته من أن يلحق الرسول ﷺ بعومه في مكة بعد أن يظهره الله على أعدائه، فكان رد الرسول ﷺ حاسماً: «أنا معكم وأنتم مني».

ولمّا بدأ يتردد الرسول ﷺ والمسلمون في الهجرة إلى يثرب فراراً بديهم من اضطهاد قريش وقد هجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة لتسبب دابة رغم بُعد الشقة واختلاف الدين والسنة والدين؟ فما هي يثرب تقدم للرسول ﷺ والمسلمين ما لم تقدمه الحبشة من لسان مشترك وسنة واحدة، ثم فصلاً عن ذلك كله، بل وأهم من ذلك كله، تقدم لهم أنصاراً وإخوة في دين الله هم مستعدون لأن يسموهم مما يسمون به نساءهم وأبنائهم وأن يلبسوا دماءهم من دون ذلك.

الهجرة وموقف قريش منها

هكذا فتح رسول الله ﷺ لأصحابه باب الهجرة إلى يثرب بمجرد أن تكونت للإسلام قاعدة هناك، وقال لهم في ذلك: «إن الله ﷻ قد جعل لكم إخواناً وداراً آمنون فيها»^(١) هذا المسلمون يفتدون أمره دون إبطاء، «فخرجوا أرسلاً، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأتيه منه بالخروج من مكة»^(٢)

أدركت قريش خطورة الموقف بعد أن رأت مسلمي مكة يلحقون تداعياً يحولهم من أهل يثرب إلى هذا كان يعنى لديهم أن تصح يثرب حصناً للإسلام بمن أسلم من أهلها ومن انضم إليها من مسلمي مكة، وهذا يترتب عليه أولاً تهديد لأمر قريش بمكة، ويرتّب عليه ثانياً تهديد لتجارة قريش إلى الشام، لأن يثرب تقع في الطريق بين مكة والشام^(٣). وكان أكثر ما يفتزع قريشاً أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه يثرب، لأنه إن فعل أصحاب المسلمون هناك قيادة توشك أن تجتاحهم بحرب تقضي على نظامهم كله. يذكر الطبري أن قريشاً لما رأته أن رسول الله ﷺ قد صدرت له شيعه وأصحاب من غيرهم يعير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم معة، فعذبوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع أن يلحق بهم لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كتب قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، يشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين حافوه^(٤)

وقد كان هذا أحط اجتماع عقدته قريش في دار الندوة، ولهذا حصره مشون عن كل قبيلة من قبائل قريش وكان على رأس الحاضرين أبو سفيان بن حرب، وشيبة بن ربعي، وطعيمة بن عدي، وحبير بن مطعم، والنخعات بن خزيمة، وطلحة بن عمرو، والضر بن الحارث بن كلدة، وأبو الحنزي العاص بن هشام، ورمعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حرام، وأبو جهل بن هشام، وسيد مناة الحجاج، وأميرة بن حنيفة، ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يُعد من قريش^(٥)

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٦٩

(٢) محمد حسين عيسى، محمد من ٢٢١ ود أحمد شفي، التاريخ الإسلامي، المجلد ١، ص ١٣٢

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٧٠، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٢، ٩٣

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٧٠، ٢٧١، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٣

وكانت القضية التي طرحها المؤمنون للمناقشة هي

ماذا يصنعون مع رسول الله ﷺ حتى يحولوا بينه وبين الهجرة؟

وطب قدش الحاصرين واحتلفت أراؤهم فمنهم من رأى أن يُقيد لرسول ﷺ ويُخس حتى يأتيه أحله ولكن هذا الرأي لم يزل استحساناً لأن الرسول لو قيد وحُسن لخروج أمره من وراء الباب الذي أعلق دونه إلى أصحابه فوثقوا عن قريش فسرعوه من أيديهم وعلوهم على أمرهم ولهذا اقترح بعضهم حلاً بدلاً وهو أن تقوم قريش بنقل رسول الله ﷺ من مكة، ولا يهمهم بعد ذلك أين ذهب ولا حيث وقع ولكن هذا الرأي وحده من يعترض عليه قائلاً «أنتم تروا حُسن حديثه وحلاوة مسطفه وعسمة على قلوب الرجال بما يأتي به»^(١) والله لو فعلتم ذلك ما أمتم أن محل عنى حي من العرب فيعلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يانعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أركانكم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد أديروا فيه رأياً غير هذا»^(٢)

وأخيراً جاء اقتراح أبي جهل الذي لقي استحسان الجميع قال أبو جهل «أرى أن تأخذوا من كل قبيلة شأناً حتى حليفاً سبيّاً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل مني منهم سيفاً صادمًا، ثم يعمدوا إليه فيصربوه بها حربة رجل واحد فيقتلوه فسرّيح منه» فبهم إده فعوم ذلك تعرف دمه في القتائل جميعاً، فلم يقدر من عند مناف عنى حرب فومهم حميفاً، فموصوا ما بالعقل (أي الذية) فعقلناه لهم»^(٣) أي دفعنا لهم دمه وهكذا تعرف القوم وهم مجمعون على رأي أبي جهل. وفي هذا نزل قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَتَكَلَّمُ لَهُ الْوَلِيُّ كَقَوْلِهِ إِنْ يَتْلُوكَ وَ يَصْرَحُوكَ وَيَتَكَلَّمُ اللَّهُ وَتَكَلَّمَ حَبْرٌ مُعْجِبٌ﴾ [الأعداء ٣٠]

كان الرسول ﷺ في تلك الفترة ينتظر إذن الله له بالهجرة إلى يثرب بعد أن هاجر معظم أصحابه إلى هناك وقد أراد أبو بكر الهجرة واستأذن الرسول ﷺ في ذلك غير مرة، فكان ﷺ يقول له «لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً»، فطمع أبو بكر أن

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧١، وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٤

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٤ ٩٥

يكون صاحبه^(١) وكان على بن أبي طالب أيضاً من بين التقييين الذين طلبوا مع الرسول ﷺ في تلك المرحلة الأخيرة من مراحل إقامته بمكة

فما أدرك له لرسوله ﷺ بالهجرة ذهب إلى أبي بكر ليحرمه بذلك، فقال له أبو بكر: لصحة يا رسول الله! قال: الصحة تقول عائشة: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أن أكر يومئذ يبكي من الفرح»^(٢)

ولقد اتحد لرسول ﷺ قرار الهجرة بعد أن أدرك له بذلك في النبوة نفسها التي يسب فيها قريش قلبه ﷺ، ولم تكن تعلم بقراره ذلك. وهكذا اجتمع ممثلوها وأحاطوا بيته عندما حل الليل ليتقصوا عليه ويقتلوه. وفي تلك الليلة أمر الرسول عبي من أبي طالب أن يذهب في فراشه ويشجع سردته تصليلاً للمشركين، ثم خرج في سكون الليل وقد أحدثت تقوم عشاة فلم يستهوا إليه وهو يتنقل قوله تعالى: ﴿نَسِئَ الْفَرَارِ أَتَمَكُمُ﴾^(٣) «إني قوله» ﴿وَمَعَنَا مِنْكُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ سَكْرٌ مِنْ حَقِّهِمْ سَكْرٌ فَتَشْتَبِهُهُمْ فَهُمْ لَا يَصْنَعُونَ﴾^(٤) ليس ١-٩. وتوجه الرسول ﷺ إلى بيت أبي بكر حيث كان أبو بكر في سطره وقد أعد راحلتين إحداهما له، والأخرى لرسول ﷺ، وخرج الاثنان من باب صغير خلف في بيت أبي بكر، واستأجرا رجلاً يقبل له عبد الله بن أريقط الذي (من كنانة من حريمه)^(٥) ليذهبا على الطريق. ولما كان من الموقع أُنشد طرب المشركين للرسول ﷺ بعد أن يكتشفوا عدم وجوده في بيته، فقد فر الرسول ﷺ لاحتفاء مع أبي بكر في عار ثور بمكة حتى يحف عنه الطلب وكنت مدة إقامته مع أبي بكر في هذا العار ثلاثة أيام اشتد حلالها طلب المشركين له حتى أحاطوا بالعار وكادوا يداخلوه لولا أن أصرروا على حراسة عبي ناهى فقالوا: ما في هذا العار أحدًا وانصرفوا^(٦). ويقال إن قريشاً حلال هذه الأيام الثلاثة منع بها احتجدهم في طلب الرسول ﷺ أنها جاءت بمقاصف يقصان الأثر، أحدهما كُرز من عظمة الحمر، والآخر الرسول ﷺ حتى انتهى إلى عار ثور، فرأى كُرز عليه سح

(١) سورة أبي هشام، ج ٢، ص ٩٧، تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٦٩

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٧٨

(٣) البلاذري، أسناد الأشراف، ج ١، ص ٢٦٠

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٩

العكوب، فقال: ها هنا انقطع الأثر. وعندما همّ بعضهم بدخول العار قال أمية بن حنبل: قوما أرىكم رد العار وعليه من شح العكوب ما عيه^(١) والله إني لأرى هذا الشح من قبل أن يولد محمد^(٢)! وقد قال أبو بكر للرسول ﷺ: حلال هذا الموقف العصب. «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأنصرنا!» فقال ﷺ: «ما طبت يا أبا بكر ما شين الله ثالثهما»^(٣)! وفي ذلك برق قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا فَعْلَكُمْ فَعَلَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ لَعْنَتَهُ أَلْبِينَ كُفَرُوا قَالَتْ اتَّبِعْ ذَهَابًا عَالِيًا يَذَّبُوا عَنْكَ لَأَتُنَزِّلَ عَلَيْكَ مَعَنًا فَعَزَّزَ مَعَهُ سَكِينَةً عَلَيْهِ وَآيَاتِهِمْ يَجْزِيهِمْ لَمْ تَرَوْكَ وَجَعَلَ حَكِيمَةً لِّأُولَئِكَ كُفْرًا أَتَمَنَّا وَحَكِيمَةً اللَّهُ هِيَ الْعَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]

وهذا ثلاثة قاموا بأدوار بالغة الروعة والأهمية خلال إقامة الرسول ﷺ وأبي بكر بالعداء، وهم: عبد الله بن أبي بكر، وأسماء بنت أبي بكر، وعامر بن فهيرة. فكانت مهمة عبد الله أن يسمع ما يقوله المشركون عنهما في أثناء النهار ثم يأتيهما بعد سماع بيلا حتى يتصور في صوته ذلك. وكانت مهمة أسماء أن تأتيهما من الطعام إذا أمست بعد بحاحن إليه، ويروي أنها جاءتهما في اليوم الثالث سفرتهما أي بطعمهما في حراب، ولكنها لم تجد ما تعلق به هذا الجراب في رحائهما، فحلت بطفها وهو حرام. لوسط فشقه اثنين، فربطت الجراب وعلقت به واحد، وانتظت بالآخر؛ فذلك سميت ذات لطفين^(٤). أما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر فكانت مهمته أن يزعج عزم مولاه بين أهل مكة بهاراً ثم يتبع بالعم أثر عبد الله بن أبي بكر وأسماء في طريقهما من ربى العار حتى يعنى عليه فلا يجد المشركون ذنباً عنى محباً الرسول ﷺ وأبي بكر^(٥).

وكان للرسول ﷺ وأبو بكر قد اتفقا مع دليلهما عبد الله بن أريقط عنى أن يأتي عار ثود صبيحة ليوم الثالث من دخولهما في العار ومعه الراحتان اللتان أعدهما أبو بكر

(١) السدي الأشراف، ج ١، ص ٢٦٠-٢٦١

(٢) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٤

(٣) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٥-٧٨ ونظر أيضاً سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٩، وتاج الطري، ج ٢، ص ٣٧٩

(٤) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٨، وتاريخ الطري، ج ٢، ص ٣٧٩

وفي الساعة لمع عليها انطلق الرسول ﷺ وأبو بكر ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وذلك بهدف خدمتهما وتقديم العون اللارم لهما في أثناء تلك الرحلة الشاقة وقد ثر الدليل أن يسلك بهما طريقاً غير مأتوفة تاقرب من ساحل البحر الأحمر^(١)

وفي تلك لائشاء كاتب الحيلة قد أعيت قريشاً في الاهتداء إلى موضع رسول الله ﷺ وعشاً حاولوا قل ذلك أن يطعموا من «على» مكمة ترشد إليه فيروى أنهم عندما سأله أبو صاحبك قال «لا أدري» أوزقياً كب عليه^(٢) أمرتموه بالحروج فخرج^(٣) فصره وحسوه بعض الوقت ثم ينسوا منه فتركوه^(٤)

وعندما استنفدت قريش وسائل البحث عن رسول الله ﷺ جعلت لهم تأتي به حباً أو ميتاً مائة من الإبل، «وبادوا بذلك في أسفل مكة وأعلاها»^(٥) قطع في ذلك سُرقة من مالهم من حُفشم، فركب جواده مطلقاً نحو المدينة حتى دس من رسول الله ﷺ ولدين معه، فكانه حواده عدة مرات قل أن يدركهم، فتطير سُرقة، وبدا رسول الله ﷺ معلناً إسلامه وعارصاً عليه ما يستطيع من عون، فقال له ﷺ «أخف عتاً» أي لا تكشف أمرنا لقريش، فامتثل سُرقة لهذا الأمر وأحد بمصل المشركين، «فكان أول النهار جاهد على سبي الله ﷺ، وكان آخر النهار مسجحة له»^(٦)

كاتب محاولة سُرقة نهاية المحاولات التي بذلتها قريش في سبيل إحباط هجرة الرسول ﷺ وبعد فشل هذه المحاولة أصبح الطريق أمام الرسول ﷺ آمناً إلى يثرب، فوصل أولاً إلى قباء، على مشارف يثرب، وكان ذلك يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر ربيع لاول في العام الثالث عشر للمعة (ستمبر ٦٢٢م)^(٧)، وهناك أقام أربعة أيام حيث أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد سبى في الإسلام، ويرى البعض أنه المقصود بقوله تعالى ﴿لَتَسْجِدَ لِمَنْ خَلَقَ عَلَى الثَّلَاقِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ يُخْلَقُ أَنْ تَقُومَ مِنْ دُونِهِ بِحَالٍ يُخْشَعُونَ﴾

(١) د محمد حسن هكل جاء محمد من ٢٢٦

(٢) تاريخ بطري، ج ٢، ص ٢٧٤

(٣) اللادري أساب الأشراف، ج ١، ص ٢٦١

(٤) صحيح البخاري ج ٥، ص ٧٦، ٧٧، ٧٩

(٥) السهبي الروض الأثف، ج ٢، ص ٢٣٠

أَنْ سَعَوْا لَهُ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ بِكُمْ لَخَبَابٌ لَعِينٌ» [البقرة ١٠٨] (١). وهي أثناء إقامة الرسول ﷺ وأبي بكر
بقاء بقي عبي بن أبي طالب في مكة حتى يؤدي الودائع التي كانت عنده إلى الناس، وقد
كان أهل مكة يؤثرون أن يودعوا ما يخشون عليه من نقاس معتدكاهم عند رسول الله ﷺ
«وإنما كان يسمى الأمين» (٢)

ثم توجه الجميع صوب يثرب، فدخلها رسول الله ﷺ ومن معه في اليوم نفسه
الذي عادوا فيه قباء، وهو يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول. وقد
أدركهم وقت صلاة الجمعة في وادٍ يقال له «وادي رابواء» فصلاها رسول الله ﷺ
بالمسعين هناك، فهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ يثرب (٣). ثم ركب ﷺ دقته
وحوله أصحابه وكلما مر بدار من دور الأنصار أخذوا برمام دقته ودعوه إلى أن
يسرل لديهم، فكان الرسول ﷺ يقول «دعوها فإنها مأمورة» فلما أنزل حيث أنزله الله
فما انتهت إلى دار أبي أيوب الأنصاري (وهو حاليدي زيد بن كنيب) (٤) تركت عبي بن
فقال «هذا إن شاء الله المنزل»، فدخل ييب أبي أيوب حتى انتهى مسجده ومسكنه
ولقد كان استقبال أهل يثرب لرسول الله ﷺ حافلاً بكل مشاعر الحداوة والإيمان
بعد أن سمعوا بمخبرته من مكة أصبحوا يعدون كل عداة إلى الحررة بظاهر المدينة
فينظرونه حتى يردهم حر الظهيرة (٥). وعندما قدم رسول الله ﷺ حرح الكل لاستفده
في مشهد رائع (٦)

(١) انظر أيضاً الروض الأصف، ج ٢، ص ٢٢٢ ٢٢٣، والكتشاف للمستغني ج ٢، ص ٢١١

(٢) ابلاذري أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢١١ ٢١٢

(٣) سيرة أبي هشام، ج ٢، ص ١١٢

(٤) وهو من بني مالك بن النجار من الحوارج، وقد شهد الفقه وقرأ وأحد + شهد كها مع رسول الله ﷺ
وبعد مدهة سنة ٥٢ هـ في جيش يزيد بن معاوية وهو يجره نزوة، دفر فافتر من كفسططسه بخر

ترجمه في أسد الغابة لاسم لأثر ج ٢، ص ٩٤ ٩٥

(٥) انظر حو- ديث صحيح البخاري، ج ٥، ص ٧٨، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٩٦

(٦) صحيح بخاري، ج ٥، ص ٧٧

(٧) يذكر بعض حوارج أن أهل المدينة خرجوا لاستقبال الرسول ﷺ وهم يشتمون

طَلَعَ الْبُكْرَ عَلِيًّا
وَحَبَّ الشُّكْرَ عَلِيًّا
مِنْ ثِيَابَاتِ الْبُكْرِ
مَا دَعَا إِلَيْهِ دَعَا

وهي بعد أشبهت شعر في أسماء الرسول ﷺ بعد عودته من ثوبه الأول ثياب البكرك بعد هي مر
دعه شاء لا يرها بعد من مكة إلى المدينة ولا يرها إلا أن توجه إلى ثوبه رد بعد لاو لقم،

ج ٣، ص ١٠

وأصبح يثر بعد أن اتخذها الرسول ﷺ مقراً له ومركزاً لدعوة الإسلامية
تعرف باسم لمدينة

أهم دروس الهجرة

هذه هي قصة الهجرة بكل ما تحفل به من مواقف رائعة ومن دروس بالغة
الدلالة

١ وأول ما يسترعي الانتباه في تلك القصة الخالفة هو أن دعوة الحق تأتي شامراً
إذا لم يستسلم أصحابها لعوامل الحذلان لقد صرّب محمد ﷺ مثلاً قدماً في الشد
على الصدا والسعى نحو بلوغ الهدف مهما كلفه ذلك من طاقة والهدف هنا هو أداء
أمانة السميع عن الله ﷻ وإتاحة الفرصة أمام الجميع أن يعشقوا دعوة الحق دون
اصطهاد من أحد حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله وقد حدد الرسول ﷺ هدف
الهدف تحديداً حاسماً في بداية الدعوة عندما قال لعنه أبي طالب «لو رصعوا
الشمس في يميني وأقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك
فيه ما تركته» وهذا هو تباير تحقيق هذا الهدف لنوح من يثر، وقد كانت الهجرة
مصادراً عميقاً لتحقيقه، وتحمل محمد ﷺ كل مخاطرها وأهوائها راصباً من أجل عبادة
الكبرى

٢ ومما يلفت النظر أيضاً في قصة الهجرة ويعبئ بالثغرة البالغة أن الرسول ﷺ
وأن بكر لم يترك الأمور المصدفة ولا لأصريات الحظ بل قدراً لكل خطوة موضعها،
وكانت اللحظة التي رسمها لتفريق مشروع الهجرة غاية في الإحكام والدقة. لقد رأب
كيف ذهب إلى عذر ثور واحتفيا به ثلاثة أيام حتى يحف عنهما الطلب، وكيف أمر
الرسول ﷺ علياً أن ينام في فراشه تصليلاً لقريش، وكيف كان عبد الله بن أبي بكر
يسمع نهاراً ما يقوله كفار قريش عن الرسول ﷺ وأبي بكر ثم يأتيهما بحجر ذلك ليلاً
حتى بعدلاً حطتهما في ضوء ذلك. ثم رأيا كيف كان عامر بن فهيرة نفعي أثر عبد الله
وأسماء بالعم الذي كان يرعاه لأبي بكر، ورأيا أيضاً كيف احسار الرسول ﷺ ديبلاً
حاذقاً للاعتداء به في الرحلة، وكيف سلك بهما ذلك الدليل طرقاتاً غير مطروقة إن كل
ذلك ليقدّم أنصع دليل على أن التواكل ليس من مهاج الإسلام وأن عنى المسسم أن
يبدل كل ما في وسعه من جهد بحثاً وتمحيصاً قبل أن يتقدم عنى اتحاد خطوة ما، ثم

عليه بعد ذلك أن يرضى بقدر الله. فإذا كان الرسول ﷺ رعم مرته من ربه قد اتحد الأسباب كافة فجدير بالمسلمين جميعاً ألا يرسعوا بتواكهم صورة شيء إلى الإسلام

٣ ثم إن قرأ في الهجرة دروساً عن العداية والإيثار وروعة النوء اندي برود عمق لا يبدن لخاص قصص الحياة هبة رحيمة أمام متطلبات ذلك النوء يروى بهذا الصدد أن أبا بكر عندما انتهى مع الرسول ﷺ إلى العار قال فمكثت يا رسول الله حتى أستبرئ لك العار أي حتى أتأكد من مراعاة من الأدنى وذلك صفة برسول الله ﷺ وحرصاً عليه وقد كان أبو بكر يمشى ساعة أمام الرسول ﷺ وساعة خلفه، وهما متوجهان إلى العار، فسأله الرسول ﷺ عن سبب ذلك فقال «أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك»^(١). هكذا كان أبو بكر في وفاء وإيمانه مستعداً أن يذل نفسه دون رسول الله ﷺ وقد قدم عين من أبي طالب أبص مثلاً لا يدرك للوفاء والنصح في ملحمة الهجرة وذلك حين دم مكث لرسول ﷺ وهو يعمم حتى العلم أنه قد يدفع حياته ثمناً لذلك كما قدم عبد الله من أبي بكر وأسماء سب أبي بكر وعامر بن مهيبة أمثلة رائعة جذيرة بالإعجاب لعين الإحساس بالمستولية ولا ترفع إلى مستوى الموقف، ولا عرو هذه كلها نفوس صاعها الدين الحديدي في قلب قد فريد

وهكذا استقر الرسول ﷺ وأصحابه من مسلمي مكة في المدينة لبدأ مرحلة أخرى من مراحل الكفاح في سبيل تبليغ كلمة الله وإقامة دولة الإسلام ولكن قبل أن نتحدث عن خطوات تكوين الدولة الإسلامية في المدينة المنورة سوف نقبل لقلعة مكة موحدة عن

بداية التاريخ الهجري

المعروف أن لمسلمين اتخذوا العام الذي هاجر فيه الرسول ﷺ إلى المدينة بداية التاريخ الهجري لذي معرته اليوم وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ وصل إلى قباء في الثاني عشر من ربيع الأول من العام الثالث عشر للهجرة (سبتمبر ٦٢٢م) ولكن التاريخ

(١) نظر حول ذلك في كثير من البدايات والنهايات ج ٣ ص ١٧٨ والرصد بضم السين نوء برصدون في كعبر

يسوي به يوحد والجمع والمثوث

المهجري لم يبدأ في ذلك اليوم بل بدأ قبل ذلك شهرين والشي عشر يوماً، أي في بداية المحرم، لأن أول السنة المحرم^(١) والتقدير بالملاحظة أن المسلمين اتحدوا هجرة الرسول ﷺ مبدأ للتأريخ الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ في أصح الأقوال؛ وذلك على يد الخليفة عمر بن الخطاب. ومما يروى في سبب ذلك أن عمر رُفع إليه صلح لرحل على بحر موعده شعبان. فقال عمر: أي شعبان؟ أشعان هذه السنة أو السنة الماضية أو لآتية؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم في وضع تأريخ للمسلمين ومع ذلك فحين يرى أن سبب وضع التأريخ الإسلامي لا يمكن أن يمحصر في مثل هذه الحادثة المحددة، وإنما ذهب إليه التطورات الهائلة في الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب، وهي التطورات التي كان من الضروري أن يرتبط بها وضع تأريخ خاص بهذه الدولة الأحدة في القوة والانتساع وقد احتللت أراء الصحابة حين استشارهم عمر في وضع تأريخ للمسلمين، فمنهم من اقترح أن يتبع المسلمون تأريخ الروم، ومنهم من اقترح تأريخ الفرس، ومنهم من رأى أن يكون مولد الرسول ﷺ مبدأ لتأريخ الإسلامي، ومنهم من رأى أن يكون معته مبدأ لذلك، ومنهم من رأى للتأريخ بولده أو بهجرته وبعد مناقشة كل هذه الآراء رأى عمر أن يبدأ التأريخ الإسلامي بهجرة لرسول ﷺ؛ لأن الهجرة على حد تعبير عمر فرق بين الحق والباطل؛ أو من الممكن أن نقول بتعبيرنا إنها كانت بداية عملية لتكوّن الدولة الإسلامية وسحر نظم الوثنية وقد اتفق المسلمون على التأريخ بالهجرة في العام السابع عشر أو الثامن عشر من هجرة الرسول ﷺ^(٢)

المدينة والنشأة المبكرة للدولة الإسلامية

تتكون الدولة كما هو معروف إذا تحققت عناصر ثلاثة هي الأرض والشعب والقيادة، أو لوطى والمواطن والحكومة وإذا نظرنا إلى المدسة بعد هجرة الرسول ﷺ وللمسلمين إليها وحدا هذه العناصر متحققة فيها فهناك الأرض المستنة في حدود المدينة، وهناك المجتمع المسلم الذي يهيمن على هذه الأرض وله العنة فيها، وهناك الرعاية أو القيادة المتمثلة في الرسول ﷺ وقيادة الرسول ﷺ لهذا

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٣، والمعارف لاس، ص ١٥١

(٢) انظر تفصيل ذلك في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٨٨ ٢٩٣، والنداء، لهبة لاير كثير، ج ٣، ص ٢٠٤ ٢٠٥

المجتمع قيادة دبية وديوية معاً، فمن المعلوم أن الإسلام نظام يشمل كل حواس حياة المسلم وليس من المستور والأمر كذلك أن تقتصر مهمة محمد ﷺ على تقرير الحواس الروحية الحقة في حياة المسلم بل إن هذه المهمة نُسح لتعطي كل حواس حياته؛ فهي إذن بالضرورة تعطي حواس حياة المجتمع الإسلامي بأسره وإذ كانت الدولة الإسلامية الأولى أو نواة الدولة الإسلامية قد تكونت في المدينة بهجرة الرسول ﷺ إليها كما وصحنا الآن فإن التشريعات الإسلامية في المدينة اتجهت لتقرير لقواعد الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الجديد فيما يتصل بشؤون الحرب والسلم وعلاقة الأفراد بعضهم بعض والعلاقة المصادرة بين الراعي والرعية وحياة الأمور من مصادرها ومصرفها إلى غير ذلك من الأمور التي لم يكن لمعظمها مجال في المجتمع الإسلامي المحدود في مكة قبل أن تنشأ الدولة الإسلامية. ومن هنا اتجه الكثير من آيات القرآن الكريم التي برزت للمدينة إلى علاج هذه الجوانب، في حين أن ما برز من القرآن مكة كان منصفاً في حمته على تقرير أصول العقيدة الإسلامية وما يتعلق بالبعث والثواب والعقاب، وإدراكه الكبري في الكون وغير ذلك مما يتلاءم مع مجتمع تأصلت فيه الوشية، فكان على الرسول ﷺ أن يحرجه من طلام الشرك إلى نور الإيمان

وهكذا أصبح المهمة الأولى أمام الرسول ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة أن ينظم علاقات المجتمع في الدولة الجديدة على أسس راسخة حتى يصير تماسكه واستقراره فتطوّر دعوة الإسلام خارج هذا المجتمع لتشمل ما شاء الله من بقاع الأرض

الخطوات التي اتخذها الرسول ﷺ لتوطيد قواعد الدولة الجديدة

رغم أن الدولة الإسلامية نشأت بعد الهجرة إلى المدينة كما أسلفنا نظراً لتحقيق العناصر الضرورية لتأسيسها من أرض وشعب وقيادة فإن الرسول ﷺ قام باتحاد عدد من المحطوبين التي رأى فيها تعريضاً لحيات هذه الدولة ومن الممكن سورة أهم هذه المحطوبات فيما يأتي

تولاً إصدار دستور المدينة

كان من بين أهم ما بدأ به الرسول ﷺ حياته في المدينة أن كتب كتاباً ينظم فيه العلاقة بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة، وأشار إلى هؤلاء جميعاً بأهم

«أهل هذه الصحيفة» أي هذا الكتاب الذي كتبه وتعدت هذه الصحيفة بحثه دستور الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة^(١) ومن هنا يطلق الكثير من الباحثين المحدثين على هذه الصحيفة مصطلح «دستور المدينة» The Constitution of Madinah أو «ميثاق المدينة»^(٢) The Charter of Madmah

وقد كتبت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة وأمنتهم عن أنفسهم وأموالهم، وأعطتهم حق المواطنة الكاملة في هذه الدولة، فقد أعسب أنهم «مقبول مع المؤمنين ما داموا محاربين» وأن يسهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة أي حارب أهل المدينة، وأن لهم «النصر والأسوة غير مطلومين ولا ماضر عليهم» وقد حدد الرسول ﷺ أيضاً في هذه الصحيفة وضع غير المسلمين من عرب المدينة فعمل عليهم ألا يجيروا مشركي قريش ولا أموالهم ولا من ناصرهم ثم أصدر ﷺ حكماً عاماً يشمل أهل الصحيفة، أي أهل المدينة، وذلك حين قال «إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من خذث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرته إلى الله وإلى محمد رسول الله» دلو صح هنا أن الرسول ﷺ هو الرئيس الأعلى لمدينة جميع طوائفها، بحسب قيادته الروحية للمجتمع الإسلامي فيها

ثانياً عقد حلف التضامن والإخاء بين مسلمي المدينة:

ثم إن الرسول ﷺ رأى أن من أهم ما يلزم القيام به بعد الهجرة عقد حلف تعاون وتضامن بين مسلمي المدينة بهدف إلى تأكيد المفهوم الذي يعرسه الإسلام دائماً في أتباعه وهو «لهم أمة واحدة دون الناس» كما عثر الرسول ﷺ. وقد عقد هذا الحلف في دار أسس من مالك وأصبح مسلمو المدينة على أساسه ملزمين بأن يكونوا بداً واحدة على عدوهم وأن يتكاملوا فيما بينهم ويصنف بعضهم بعضاً وتعتبف لمفهوم هذا

(١) رجع إلى بعض هذه النسخة في كتاب الزكاة الأسس في العهد النبوي و تحلاه ترشيد الدكتور محمد حماد، ص ٦٠

(٢) انظر على سبيل المثال

M Watt Muhammad, Prophet and Statesman, P 94 S. Amer Aa A Short History of the Saracens, P 12

ونظر أيضاً في شوري ولاستاره دكتور توفيق الشاوي ص ٣٣٠ وفي النظام السياسي لعمولة للإسلامة الدكتور محمد سعيد نعمان ص ٥٠

الحبيب «حي رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار» فيروي أنه قال لهم: «تأخروا في إله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: «هذا أخي»، وأخيراً بين أبي بكر وحديقة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعثمان بن مائل، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين أبي حذيفة بن عتبة وعاصم بن بشر، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبي بن كعب، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وهكذا، فعل مع بقية أصحابه من المهاجرين والأنصار^(١) وقد جعل الرسول ﷺ لهذا الإجماع حكم إجماع الدم والنسب، فاردادت وحدة المسلمين عمقاً ورسوخاً

ثالثاً بناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة

ذكرنا أنّ أن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة نزل دار أبي أيوب وأقام بها حتى أسي مسجده ومسكنه. ولا شك أن بناء المسجد لم يكن يعني بالنسبة إلى الرسول ﷺ والمسلمين مجرد تهئية مكان للصلاة، بل كان يعني فضلاً عن ذلك إتاحة مقر لعقد الاجتماعات المهمة، وممارسة التعليم والتثقيف، والقضاء بين الناس، واستقبال السفراء ولوفود، إلى غير ذلك من الأمور التي تنصّل بإدارة شئون الدولة الجديدة ومن أجل هذا كان بناء المسجد ضرورة ملحة بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة وقد بنى الرسول ﷺ مسجده في الموضع الذي ركبت فيه ناقته بحواريب أبي أيوب وكان ﷺ قدوة لأصحابه من المهاجرين والأنصار في إنشاء العمل في البناء، «وطلق سفل معهم اللبن في بنائه» كما يروي البخاري في صحيحه؛ وكان يقول وهو يظلّ اللبن: «اللهم إن الأحرأحر الأحرأ، فارحم الأنصار والمهاجرة»^(٢). وقد اتسم مسجد الرسول ﷺ بالساطة فقد بنى باللبن كما أشرنا، وكان سقفه من الخريد، وعموده من حذوق النخل، وطل على ساطته تلك في أيام أبي بكر وعمر^(٣)

(١) مع تصحيح دة في سنة ١٢٤٤ هـ، ج ٢، ص ١٢٤ ١٢٦ وفارنا في أساس الأشراف للداري، ج ١، ص ٢٧٠ ٢٧١

(٢) صحيح بخاري ج ٥، ص ٧٨

(٣) وما جاء، عاصم بن حذيفة بن الحارث، في نسخة، انقوشه وفي عهد الدولة لأخوية أعاد الخليفة المريني عبد الحمت بناته واستعاد في ذلك بنائين أجاب وأدخل عليه كل مظاهر الأبهة والرفعة

قريب نقطة يسعى الحديث عنها هنا رغم أنها تبدو من حيث الظاهر بعيدة الصلة عما نحن فيه، وتلك هي دخول الرسول ﷺ عائشة في شوال أو ذي القعدة من العام الأول للهجرة، وكان قد عقد عليها بمكة قبل الهجرة ثلاث سنين بعد وفاة روحته حديجة وعمره عندئذ في حدود سبع سنين^(١) والحق أن ارتباط الرسول ﷺ بعائشة لم يكن إلا صدى لازتباطه بأبيها أبي بكر الصديق وإلا توثيقاً وتعميلاً لتلك الصلة الرابطة التي ربطت بينه وبين ذلك الرجل الذي كان له نعم الرفيق والسند في كل المواقف ومن لمسلم به أن قصة المس لم يكن لها اعتبار كبير في مثل هذا الأمر، فما تروح لرسول ﷺ عائشة في مثل تلك المس الصغيرة تظلماً لأكثر مما أشرباً إليه صحيح أن لرسول ﷺ كان يحب عائشة حباً عميقاً، ولكن ذلك كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل «حب شأ بعد الزواج لا حبه» فليس مما يرصد المطلق أن يكون قد أحبه وهي في هذه المس الصغيرة^(٢) هكذا أراد الرسول ﷺ في يدته تمتد المرحلة «المدينة» التي كانت الدولة الناشئة فيها في حاجة إلى مزيد من الدعم أن يربط علاقته بأبي بكر برباط قوي رباط الصحة على متانتها وهو رباط المصاهرة، ولهذا أثر أن يجعل بتمامه رواجه من عائشة وقد كان أبو بكر من الرسول ﷺ بمنزلة وريثه الأول وقد يجوز لنا هنا أن نستطرد قليلاً فنذكر أن الرسول صدى أنه لم يصنع هذا مع أبي بكر فقط بل صنع مثله أو شبيهه مع عمر وعثمان وعين في مرات وطروف مختلفة؛ فقد تروح بحفصة بنت عمر في وقت لاحق وعي عن البيان أن عمر كان بمثابة وزيره الثاني. كما زوج علياً بنته فاطمة، وزوج عثمان بنته رقية، فما تمتد روجه بنته أم كلثوم، وبهذا ربط الرسول ﷺ بينه وبين هؤلاء الخاصة من أصحابه الذين أصبحوا فيما بعد حلفاء الراشدين برباط المصاهرة ترويضاً أو ترويحاً.

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٨-٢٩٩

(٢) حياة محمد، ص ٢٣٠

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل السابع

تطور العلاقة بين المسلمين ومشركي قريش منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (٦١-٦٥هـ)

رأى قبل ذلك كيف أسس أهل قريش عندما هاجر معظم أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة، ورأى كيف بدأ زعماء قريش قضاةهم لكي يحولوا بين رسول الله ﷺ وبين أن يحقق بأصحابه في المدينة، لأنه إن لحق بهم هناك أصبح المسلمون في مؤنتهم الحديد مصدر خطر على نظامهم كله. أما وقد لحق الرسول بأصحابه في المدينة رغم كيد أعدائه فإن مشركي قريش ما كان ليقر لهم قرار وهم يرون قوة المسلمين تش ودولتهم تبرز إلى حيز الوجود فلم يكن عرياً أن يتوقع المسلمون من هؤلاء أن يكيدوا لهم وأن يطاردهم محاولين تطويقهم ثم القضاء عليهم وإذا كانت قريش قد طاردتهم وهم في مهاجرهم بالحجبة خارج شبه الجزيرة العربية كلها، فهل من المستغرب أن يطاردهم وهم يعيشون بالقرب منها بالمدينة في شمال الحجاز؟ ولا شك أن هذه الظروف كان لها تأثيرها الواضح في أن تجعل مشركي قريش يحقدون على مسلمي المدينة ويتريصون بهم، وأن تجعل مسلمي المدينة على الجانب الآخر يستولون على هؤلاء ويتوقعون الأذى منهم وهذا هو المناخ الذي أشعلت فيه الحواجيات الأولى بين قريش والمسلمين بعد الهجرة، وقد تمثل أبرز هذه الحواجيات في موقعة بدر وأحد والخندق.

على أن أول هذه الحواجيات الأساسية وهي موقعة بدر سبقها مدوشات بين الحجاجيين يعني أن نتحدث عنها الآن باختصار

المناوشات الأولى بين المسلمين ومشركي قريش

بعد الهجرة إلى المدينة برز لدى الله للمسلمين بالقتال في قوله تعالى ﴿وَأَبْدِىْ﴾^(١) بِقُسُوتِكُمْ بَأْتُهُمْ طَيِّبُوْا إِلَيْهِمْ عَنْ نَّبِيِّهِمْ يُغِيْرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَلَيْسَ لِكُلِّ أَفْجَاءٍ مِّنْهُمْ بِسَبِيْرٍ حَتَّىٰ يَلَاقُوا بِلِقَا رَبِّكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ

أَب يَأْتُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ [الحج ٣٩، ٤٠] يقول الرمخشري في تفسيره الآية الأولى: «المعنى أدن لهم في القتال» (بأنهم ظلموا) أي سبب كونهم مطبوعين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً، وكبوا بأنوب رسول الله ﷺ من بين مصروب ومشجوح يتظلمون إليه، فيقول لهم اصبروا فإنني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأرسل هذه الآية، وهي أول آية أدن فيها بالقتال»^(٢) فلو أصبح ذلك في صوء ذلك أن الله أدن للمسلمين بالقتال بعد الهجرة رفقاً على ما لحى بهم من أذى واضطهاد، وعلى ما اضطروا إليه من تركهم ثديهم وأموالهم، فليس من العدوان أن يتصفوا لأنفسهم وأن يستردوا بعض ما سلبه هؤلاء منهم لقد وجد المسلمون أنفسهم في حالة حرب مع مشركي قريش، ومن المشروع في حالة الحرب أن يبدل كل طرف قصاره لإصعاف الطرف الآخر. ولما كان اقتصاد مكة ورحلاتها قائماً على التجارة كما شرحنا قل ذلك فقد كانت أشد اضطراباً إنلاماً للمكيبين هي تلك التي تمرقل طريق تجارتهم ومن ها رأى الرسول ﷺ في تلك المرحلة أن يش بعض الحملات على قوافل المكيبين التجارية ولم تكن تلك الحملات عبء وسيلة لإيجاد مورد رزق، بل كانت استرداداً لبعض حق، ثم إنها لم تكن بدءاً لعدوان، بل كانت ردّاً على عدوان سابق، كما كانت وسيلة مشروعة من وسائل إصعاف لحصم في قانون الحروب ومن ثم لا يسوع القول بأن هذه الأسطة القبلية لرسول ﷺ كانت تمثل حرباً هجومية يمكن أن تندمج عبء صفة العدوان كما يدعي بعض المشرقين^(٣)

وقد كانت أولى الحملات في هذا الصدد هي السرية التي تألف من ثلاثين رجلاً

(١) تحف ج ٣ ص ١٦٠

(٢) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P 105

وحميد بن عبد الرحمن بن جريح في د عبد الرحمن بن جريح في كتابه تاريخ بني قريظة

سورة مخرج من ص ١٦٦ ١٦٤

بقيادة حمزة بن عبد المطلب، وتوجه لتعترض قافلة تجارية لقريش حاد من الشام تريد مكة وتروي مصادرها: «أن حمزة لقي أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فحجر بينهم مجدي بن عمرو الجهمي فاحرقوا، ولم يكن بينهم قتلى»^(١) وذكر المؤرخي أن هذه السرية كانت في رمضان من السنة الأولى للهجرة (مارس ٦٢٣م)^(٢)، في حين يرى ابن إسحاق أنها كانت في الشهور الأولى من السنة الثانية^(٣).

وفي تلك الفترة نفسها، أو في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة، أرسل رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب من عبد مناف في سبيل أو ثديين رحلاً من المهاجرين، فالتقوا مع مشركي قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب طفقاً لرواية المؤرخي^(٤)، أو عكرمة بن أبي جهل طفقاً لرواية ابن إسحاق^(٥)، وذلك عند ماء يقال له «أحياء» بالحجاز. وكان المشركون مائتي رجل ولم يكن بين الفريقين قتلى، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رمى به في الإسلام^(٦).

وفي صفر من السنة الثانية للهجرة (أغسطس ٦٢٣م) حرج رسول الله ﷺ نفسه معرباً لعير قريش فيما عُرف بعروة «الأواء» لأنه ﷺ سار إلى مكان يقال له «الأواء» بين مكة والمدينة^(٧)، فلم يلق قريشاً. وفي هذه العجوة وادع سي صمرة من كدنة على ألا يكثرُوا عليه ولا يعينُوا عليه أحدًا^(٨).

وفي ربيع الأول من السنة نفسها أيضاً حرج الرسول ﷺ في مائتين من أصحابه بعربى عير، لقريش كان فيها أمة بن حلف ومائة رجل من قريش وأعد وحسمانة بعير. وقد سمع رسول الله ﷺ مكاناً يقال له «مواط» ومن ثم عرفت هذه لعروة بعروة مواط. ثم رجع لرسول ﷺ «ولم يلق كيداً» أي لم تحدث مواجهة بين الطرفين^(٩).

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٠٢ وانظر أيضاً المعاري للمؤرخي ج ١ ص ٩

(٢) المعاري، ج ١، ص ٩

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٠٣

(٤) المعاري، ج ١، ص ١٠

(٥) سيرة أبي هشام، ج ٢، ص ٢٢٥

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٢٤

(٧) ولأبواء مرأته بنت وهب أم رسول الله ﷺ

(٨) المعاري للمؤرخي، ج ١، ص ١٢

(٩) المصدر نفسه، والمصحة عنها، ومواط حل من حال جهة ناحية رضى بن عمرو محمد الدين، ج ١، ص ٩٦

وفي ربيع الأول أيضًا من السنة نفسها حرج رسول الله ﷺ في بعض أصحابه من المهاجرين بطلب ثُرد بن حابر القهري الذي كان قد أغار على سرح الحدة، أي إبله وأصنامها. وقد طلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ بدرًا فلم يدركه، ولهذا سميت هذه العروة بعروة بدر الأولى^(١)

وفي العام نفسه أيضًا حرج رسول الله ﷺ في مائة وحسين أو مائتين من المهاجرين بعرض عيرًا لقريش متوجهة إلى الشام، حتى بلغ العُشيرة يسع ومن ههنا عرفت هذه العروة بعروة ذات العشيرة (أو ذي العشيرة) وقد أقدم فيها حمادى الأولى، وسعى من حمادى الثانية. ولم تحدث مواجهة بين الطرفين في هذه العروة، وقد ودع فيها الرسول ﷺ مئذنج وحلفاءهم من بني صقرة^(٢)

وبحسب ملاحظ في كل هذه السرايا والعروات أنها ثم تسرع عن قبال ولا حصل المسمومون فيها على عائنم من مشركي قريش، ولكن قريشًا أصبحت عنى بغير من أن المسممين أصبحوا قوة لا يستهان بها. ثم إننا نلاحظ أيضًا أن كل المشركين فيها من صحابة رسول الله ﷺ كانوا من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار معًا حتى عرفوا بهم بدرًا، وذلك لأنهم شرطوا أنه أن يسعوه في دارهم كما يقول أبو قتدي^(٣)

سرية نخلة ومقدمات غزوة بدر

في رجب من السنة الثانية للهجرة (يناير ٦٢٤م) بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في ثمانية رجال من المهاجرين، أو في اثني عشر رجلًا طبقًا لبعض الروايات، وكسب له كدًا وأمره ألا يظفر فيه حتى يسير يومين، ثم يظفر فيمضي ما به دون أن يسكره أحد من أصحابه. فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب فوداه فيه إذا نظرت في كدسي هذا فسر حتى تزل نخلة بين مكة والطائف فتصد بها قريش وتعلم أن من أحداهم^(١) فمضى عبد الله مع أصحابه ولم يتحلف أحد منهم. فلما كان بعض

(١) تاريخ بطري ج ٢ ص ٤٠٦ والنداء والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٤٦

(٢) بخاري أبو قتدي ج ١ ص ١٢ ١٣ والنداء والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٢٤٦

(٣) البخاري ج ١ ص ١١

(٤) تاريخ بطري ج ٢ ص ٤١١

الطريق تحلف عنه ثلث من أصحابه وهما سعد بن أبي وقاص، وعنه بن عروة،
ودلت أن يعبرَ لهما كما بدألان الركوب عليه صل منهما فذهبا يبحث عنه، واستمر
عد الله بن حنشل في مسيره ومعه بقية أصحابه حتى برل «نخلة» التي أشار إليها كتاب
الرسول ﷺ، فعمرت به غير تحمل تجارة لقريش، وكان في العير من مشركي قريش
عمرو بن الحصرمى، وعثمان بن عد الله بن المعيرة المحرومى وأخوه نوفل،
والحكم بن كيسان المحرومى وكان ذلك في آخر يوم من رحب (أحد) الأشهر
الحرم^(١) فأجمع أصحاب عد الله على قتالهم بعد تردد، فرمى واحد منهم وهو
واقد بن عد الله لنعيمى عمرو بن الحصرمى سهم فقتله وأسر المسمومون عثمان
بن عد الله والحكم بن كيسان أما نوفل بن عد الله فقد هرب وأعجز القوم ومسولى
المسمومون عى عير قريش وقتلوا بها مع الأسيرين على رسول الله ﷺ بالمدينة^(٢)

ولكن الرسول ﷺ لم يطلب نفساً بما فعل عد الله وأصحابه، بل عفيهم وقال لهم
«ما أمرتكم بقتل في الشهر الحرام» ورفض أن يقتل شيئاً من النعيمة^(٣) واشتغل في
أبدي القوم ووطنوا أن قد هلكوا^(٤) وكثر تعيف المسلمين لعد الله وأصحابه، وكان
مما قالوه لهم «صنعتم ما لم تؤمروا به وقاثلتم في الشهر الحرام ولم تؤمروا
بقتله»^(٥) وأصبح المدينة تقور مؤر الرجل^(٦) واستعدت قريش هذا الموقف
فحاولت لتشيع على المسلمين، وقالت في ذلك «قد أسحل محمد وأصحابه الشهر
الحرام، صمكو فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال» وحاول بعض
المسلمين ممن كانوا بمكة أن يردوا على ذلك فقالوا «إنما أصابوا ما أصابوا في
شعب» وانهزت اليهود الفرصة لمحاولة الإيقاع بين قريش والمسلمين^(٧)

١) ولا شهر الحرم أربعة (أي ثلاثة) وواحد فرد، أسرد ذو القعدة وذو الحجة والحرم، وفرد
رحب

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤١٢

(٣) المصدر نفسه، والمصنف فيها

(٤) التوفيق المصاري، ج ١، ص ١٦

(٥) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤١٢

(٦) المصاري، ج ١، ص ١٦

(٧) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤١٢

فما كثر كلام الناس في ذلك أمر الله ﷺ قوله ﴿يَتَشَوَّكُ عَنِ لُتْمِهِمْ أَلْحَرَاءُ يَتَأَيَّ بِهٖ قُلُوبُ قُرَيْشٍ بِهٖ كَيْدٌ وَصَدُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ. وَأَلْتَسْجِدُ أَلْحَرَاءُ وَيُتْرَخُ أَقْدِيمُهُ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ وَتَمْنَةُ أَكْثَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَاوُنَ يُغْبِيُكَ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ وَبَابِكُمْ إِلَى اسْتَبْلَؤِكُمْ﴾ [الغرة: ٢١٧]

وهذا طعنان رسول الله ﷺ والمسلمون، وقصص الرسول ﷺ الغير والأسيرين، ثم أرسب قريش في هذا الأسيرين، فقص رسول الله ﷺ ذلك حتى يقدم سعد بن أبي وقاص وعنته بن عروان، وقال لرسول قريش «إنا نحشاكم عبيدنا، فإن تقبوهما فقل صاحبكم» ثم قدم سعد وعنته، فأطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وهما عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان. وقد أسلم الحكم بن كيسان فحصل إسلامه، وطلب عبد رسول الله ﷺ حتى استشهد يوم بدر معونة^(١)

وهكذا أصبح الموقف بين قريش والمسلمين قائلاً للاحجار في أية لحظة وحدير بها، أن سجل ما يرويه الطبري من أن «الذي هاج وقعة بدر وسائر الحروب» أي كانت بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش ما كان من قتل واقد بن عبد الله الحيمي عمرو بن الحصري^(٢)

موقعة بدر: (١٧ رمضان ٢ هـ - مارس ٦٢٤م)

كتب سرية عبد الله بن حنشل سرية استطلاع تهدف في الأساس إلى معرفة أخبار قريش ولوقوف على تحركاتهم. ويصحح ذلك من قول الرسول ﷺ لعبد الله حين أمره أن يبرح مكة «نرصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم» ويروي الواقدي بهذا الصدد أن لرسول ﷺ ما أمر عبد الله بن حنشل وأصحابه بالقتال في الشهر الحرام، ولا غير الشهر الحرام. «إنما أمرهم أن يتحسبوا أخبار قريش»^(٣). وقد تطور الأمر إلى ما تطور إليه من قتل عمرو بن الحصري وما ترتب عليه من توتر الموقف بين الحسين

وبعد هذه السرية قليلة حرج أبو سفيان من حرب يقود قاعدة تجارية ضخمة إلى

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤١٣

(٢) انظر ص ٤٢٠

(٣) المعاري، ج ١، ص ١٦

الثام مكونة من ألف بعير، وكان معه في هذه الرحلة ما يقرب من سبعين رجلاً من قنابل قريش كلها. فلما ترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ بحروح أبي سفيان وردقه إلى الثام أمر أصحابه أن يحرقوا معه لئلا يتطروهم في طريق العودة حتى يسردوا حدثاً من حقوقهم التي اعتصمها كفار قريش. فخرج الرسول ﷺ وأصحابه «لا يريدون إلا أبا سفيان ولركب معه لا يرونها إلا عبيعة لهم»^(١) أي إنهم لم يحرقوا لقنابل قريش ولا توقعوا أن يكون هناك قتال. وقد عسكر المسلمون عند بدر، وهي شر عرفت باسمها الحقة لواقعة فيها.

سمع أبو سفيان بحروح رسول الله ﷺ وأصحابه فسلك طريق الساحل وتحاشى المرور بدر. وفي الوقت نفسه أرسل إلى قريش يحرقهم أن محمداً وأصحابه معرضون لهم، ويطلب منهم أن ينجسوا تجارتهم^(٢) ولا شك أن أصدقاء «حجة» كانت ما زالت تتردد في مكة وتحدث تأثيراتها، ومن هنا نفر عدد كبير من قريش يريدون قتال المسلمين ولم تكن بالمسلمين بية قتال كما أشرنا، بل ولم يعلموا بحروح قريش لقنابلهم حتى أحيروهم بذلك بعض عبيد قريش. فقد سألهم رسول الله ﷺ عن عدد من حرق من قريش لحماية تجارتهم ولقتال المسلمين، فقالوا: لا ندري كم هم فسألهم عن عدد تجارتهم (أي الإبل) التي يحرقونها في اليوم، فذكروا له أنها تتراوح بين التسعة ولعشرة، فقال ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»^(٣) وقد كان عددهم فعلاً خمسين وتسعمائة^(٤).

حاربت قريش بجيشها في أحسن هيئة، فقد تقدموا وهم يتقدمون بالحرب، ومعهم ألفين والدفع، وكان فيهم مائة فارس، كلهم دارع، وكان في الرحلة دروع

(١) المصدر ص ٢٧، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٢١.

(٢) كان رسول أبي سفيان إلى قريش منكته هو صميم من عروق الكفاية، وقد أمره أبو سفيان أن يحرق قريشاً أو محمداً قد عرض لمصرهم، وأمره أن يجمعهم (أي يجمعهم) دحل، ويحرق رحله ويشمهم من هذه وغيره ويصبح انبعاث الموت نظر الواعدي المتعدي. ج ١، ص ٢٨. ولا بد أن أسباب لأشرف ج ١، ص ٢٩٠.

(٣) التوفيق، المتعدي، ج ١، ص ٥٢، ٥٣.

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٢٣، وأسباب الأشراف للبلاد، ج ١، ص ٢٩٠.

سوى ذلك، وكانت الإبل سعمانة بعير وطني أو جهل يقول أنظر محمد أن بصيب ما ما أصاب بنخلة وأصحابه؟ سيعلم أنتم عينا أم لا؟^(١)

كان الهدف لآسأسي إدد من خروج قريش بهذا الجيش التصحيم هو خدمة غير أبي سفيان حتى لا تكرر تجربة بحلة ولكن أبا سفيان سلك طريق الساحل واستطاع البقاء بقافته لجارية من هجوم المسلمين، فلم تعد لهذا الجيش من مهمة، أو هذا ما كان يسعى أن يكون ومن هنا انقسم مشركو قريش على أنفسهم فريقين فريق كان يرى عودة الجيش إلى مكة وعدم لقاء المسلمين، وعلى رأس هذا الفريق أبو سفيان وأمية بن خلف وعسة وشيبة أما ربيعة، وحكيم بن حرام، وأبو السحري وقد عمر أبو سفيان عن رأي هذا الفريق حين أرسل إلى قريش بعد أن نجا بقافته يقول لهم «قد بحث غيركم، فلا تُخردوا أنفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، إنما حرمتم لسمعوا غيركم وأموالكم وقد بعاها الله»^(٢) أما الفريق الثاني فقد كان يرى ضرورة مواجهة المسلمين حتى بعد بقاء البعير حتى يقبضهم حرب لا يسونه وعلى رأس هذا الفريق أبو جهل وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بن كندة^(٣) وقد كان هؤلاء في الرد على أبي سفيان «والله لا نطلب أثرا بعد عين، ولندعن محمداً وصباؤه لا يعودون إلينا التعرض لأموالنا وتجاراتنا بعدنا»^(٤). ويروي عن أبي جهل أنه قال بهذه المناسبة «لا والله، لا نرجع حتى نرد مدراً» وكان بدر موسماً من مواسم الجدلية يجتمع بها العرب، لها بها سوى تسمع سا العرب ومسيرة فقيم على بدر نحر الحجر، وتطعم الطعام، وتشرب الخمر، وتعزف القيان عليها؛ فمن ترال العرب تهاوا أبدأ^(٥). وقد أخذ هذا الفريق على عاتقه تحريض غير الراغبين في القتال حتى يرحلوا. ومما يروى بهذا الصدد أن أمية بن خلف رفض في البداية أن يرحل مع قريش إلى بدر «فأذه عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل، ومع عقبة مجمرة بها محجور، ومع

(١) الزاوي المعاري، ج ١، ص ٣٩، والبلادي أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٩٠ ٢٩١

(٢) دوي حذاري ج ١ ص ٤٣ ومضى قوله «لا تخردوا أنفسكم أهل يثرب» لا تعرضوا أنفسكم لنحر على يد أهل يثرب

(٣) انصرف بن الحارث بن كندة بر عدد مناف من عدد النصار من هبي

(٤) البلادي أسباب الأشراف، ج ١، ص ٢٩١

(٥) المعاري، ج ١، ص ٤٣ ٤٤

أي جهل مكحنة ومروءة، فأدخلها عقة تحته وقال: تحر فيها أنت امرأة! وقال أبو جهل: كتحل فيها أنت امرأة! قال أمية: اتاعوا لي أفضل بعير هي الوادي...^(١) وقد كانت العلة هي النهاية للعربين المتشددين حين أبي جهل، وعلا بداء الحرب فوق كل نداء.

أما وقد حرحت قريش بهذه الصورة للقاء المسلمين فلم يكن أمام المسلمين بد من المواجهة. لقد حرح المسلمون في البداية لاعتراض عبير قريش فبدأ بقرش تحرح شوكتها وحموعها للقضاء عليهم. وقد كان ذلك احتشاً حقيقياً يُقيس المسلمين وثقتهم في نصر الله مهما احتجب عليهم حشود الساطن. وقد برز من القرن من ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكُمْ أَنَّهُ يُصْغَىٰ آلَ عَادَ الْفَافِئِينَ أَيَّاهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَادَ دَارٌ تُتْرَكُونَ تَكُونُ لَكُمْ وَتُرِيدُ أَنَّهُ لَا يُخَيَّرَ آلَ عَادَ يَكْفِيهِمْ وَكَفَىٰ دَارَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعاد ٧]

ولعب يدرك دقة موقف المسلمين حين يعلم أن عددهم كان ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً في مقابل ما يقرب من ألف من المشركين، فاعتمد توارث القوى بين الجنسين. وكان أول ما فعله الرسول ﷺ والمسلمون أنهم سقوا المشركين إلى الماء فحسوه، وصغف عليه الرسول ﷺ أصحابه وأشرف نفسه على صطهم وإرائهم مارلهم لقتال، وبس يدعو ربه ويقول: «اللهم إنك أنزلت علي الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني إحدى الطائفتين، وأنت لا تحلف الميعاد. اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك. اللهم نصرك الذي وعدتني اللهم أجمعهم الغداة»^(٢) وقد كان اللواء الأعظم للرسول ﷺ يومئذ وهو لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير، ولواء الخرج مع الحباب بن الحضر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ^(٣)

كانت هذه هي المواجهة الحقيقية الأولى في الميدان بين حشد الإنسان وحشد الشوك، وعلى نتيجتها يتوقف مستقبل الإسلام، ولم يكن ما سبقه إلا مشوش محدود الطاق والتأثير. وقد أراد ﷺ في هذا الموقف أن يبين أصحابه ويعرف ما

(١) المصدر السابق، ص ٣٦ وانظر أيضاً أساطير الأشراف، ج ١ ص ٢٩١

(٢) التوفيق المعاري ج ١ ص ٥٩

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٨

عدهم من عزم وإصرار على قبول التحدي، فاستشارهم فقال أبو بكر فقال وأحسن، ثم قدم عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله! امض لأمر الله محض معث، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لـ موسى (ذهب أسب وريت فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك العماد لمرنا معك^(١) فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بحير

ولكن الرسول ﷺ قال بعد هذا الموقف «أشيروا علي أيها الناس»، وإنما كان يريد الأنصار. فقد أعطى الأنصار مواليقهم للرسول ﷺ في بيعة العقبة الثانية على أن يسموه مما يسمون منه أنفسهم وساءهم وأولادهم، ومن الممكن أن يفسر ذلك أنه البرام بتقديم لحماية والنصرة داخل المدينة لا خارجها. وهذه المواجهة في بدر كانت خارج المدينة. فهل سيقدم الأنصار العون الضروري فيها أو سيجتمعون في صوة التصير لحرمي لبيعة العقبة الثانية؟ هذا ما أراد أن يستوثق منه الرسول ﷺ عندئذ. وقد فطن سعد بن معاذ سيد الأوس لمراد الرسول ﷺ فقال له كأنت يا رسول الله تريدنا؟ قال أجل فقال: «إنا قد آمنا بك وصدقك، وشهدنا أن كل ما حث به حق، وأعطيناك مواليقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فمضى يا سيي الله، فولدي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فضحت لخصمه معث، ما بقي ما رحل، وصل من شئت، واقطع من شئت، وحذ من أموال ما شئت، وما أحذب من أموال أحب إلينا مما تركت» والذي نفس بيده ما سلك هذا الطريق قط، وما لي بها من عزم، وما بكروا أن يلقانا عدونا عدداً، إنا نضرب عد الحرب، صدق وعد البقاء، لعل الله يريث ما ما تقر به عيكم^(٢)

كان هذا الموقف أحد المواقف الخالدة للأنصار، وقد أصابوا به جوهرة عالية إلى رصيدهم الذي لا يفد من الإخلاص للإسلام ونصرة رسوله ﷺ. ولم يكن سعد بن معاذ في كلامه هد معبراً عن رأيه أو عن رأي قومه من الأوس فقط، بل كان معبراً عن

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨. وذكر المصنف موضعاً بالأس كذا جاء في لسان العرب لابن منظور، مادة «فر».

ص ٢٦٨. وقيل إن المقصود برك العماد العيشة انظر تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٢) التوقي المعاري، ج ١، ص ٤٨-٤٩.

جمهور الأنصار، ولهذا قال الرسول ﷺ قبل بداية حديثه «أنا أجيب عن الأبناء»^(١)
 «طمأننت نفس الرسول ﷺ لما سمع من كلام سعد، فأنشئ عليه وقال له خير، ثم
 قال لأصحابه «سيروا على بركة الله» فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وبه
 لكأنني أسطر إلى مصارع القوم»^(٢)

ذكرنا منذ قليل أنّ المسلمين سقوا قريشاً إلى الماء فسيطروا عليه وحذوا بيه وبين
 المشركين. وكان ذلك بناء على مشورة الحباب بن المصير بن الجموح (من أعيان
 الحزرج)، فقد لاحظ الحباب أنّ المسلمين يربون بعيداً عن الماء فقال لرسول ﷺ
 يا رسول الله، أرايت هذا المبرأ أمرأ أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره،
 أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال
 يا رسول الله، فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم
 فسرله، ثم يعور من سواه من القلْب (أي تردم غيرها من الآبار) ثم نسي عليه حوضاً
 فسموه ماء، ثم مقاتل الناس مشرب ولا يشربون فقال الرسول ﷺ لقد أشرت
 بالرأي^(٣). فكان الحباب يُدعى «فا الرأي»^(٤)

وبينما كان المشركون في منازل القتال يستعدون لمواجهة المسلمين أرسلوا رجلاً
 مهم بقدر له عمير بن وهب الجهمي إلى معسكر المسلمين ليطوف حوله ويقدر عدد
 المعتدين به، ففعل عمير ثم عاد إلى قريش وأخبرهم أنّ المسلمين في حدود الثلاثمائة
 ومعهم سبعون بعيراً وهران، ثم ذكر لهم أنّ هؤلاء القوم «ليست لهم سعة ولا مدحاً
 إلّا سيوفهم» ألا ترونهم غرساً لا يتكلمون، يتلطمطون تلطمط الأدعي»^(٥) ثم أضاف
 «والله ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يقتل رجلٌ منكم، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم
 فما خيرٌ في لعيش بعد ذلك! فازنأوا رأيكم»^(٦)

وهنا حاول حكيم بن حزام وعنتة بن ربيعة أن يشطوا قريشاً عن القتال فمما قاله
 عنتة «إني أرى قوماً مستعنين لا تصلون إليهم وفيكم خير يا قوم، اعصوه اليوم

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٢٠

(٤) البلاذري أسباب الأشرار، ج ١، ص ٢٩٣

(٥) التواتري المعاري، ج ١، ص ١٢ وانظر أيضاً تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٢٢

برأسي، وقولوا: حُسْ عَتَّةٌ مِن رِبِيعَةٍ! ولقد علمتم أني لست بأحسبكم* وهذا أحد أبو جهل على عتة وقال له: لقد ملكت رثك وجوفك رعباً فقال عتة: ستعلم اليوم أيد أحسن^(١) وهكذا قُتِلت محاولات عتة وحكيم من حرام بسبب عدد أبي جهل وأمثاله بل إن أبو جهل ذهب خطوة أبعد حين أرسل إلى عامر بن الحصرمي وهو أخو عمرو بن الحصرمي الذي قتلته المسلمون في سرية بحنة وأعرأه أن يصرح بذلك بشار أخيه، فقدم عامر واكتشف للناس، ثم حثاً على رأسه التراب، ثم صرح و«عمرو» فلاحب نذر الحرب واجتمع أمر قريش على ما هم عليه من الشر وأصدعوا الرأي الذي دعاهم إليه عتة بن ربيعة وحكيم بن حزام^(٢)

وقد نشب لحرب حين شذَّ عامر بن الحصرمي نفسه على جيش المسلمين^(٣) ولم يحد عتة وحكيم من حرام ماصاً من أن يشركا مع قومهما في القتال وبدأ عتة بدعوة المسلمين إلى المبارزة، وكان معه ابنه الوليد وأخوه شيبه، فرز له فية من الأنصار فعمَّ يُرْصه ذلك وطلب أن يمرر إليهم أكباؤهم من مسلمي قريش، فأمر الرسول ﷺ عمه حمزة وعيينة بن الحارث بن المطلب من عدم مداف وعيني بن أبي طالب أن يردوا إليهم فلما عرفهم القوم قالوا: أكفاء كرام! فأمر حمزة عتة بن ربيعة فقبضه، وردد على الوليد بن عتة فقتله، وأمر عبيدة بن الحارث وكان أسير الثلاثة شيبه بن ربيعة فمرح كل واحد منهما صاحبه، فأسرع حمزة وعيني إلى شيبه فقتلاه، وأحسبوا عبيدة بن الحارث وهو يترقب دماً، فكان من بين شهداء بدر^(٤)

أشعلت هذه البداية المظفرة حماسة المسلمين، فحمى الوطيس، ورسول الله ﷺ يمشد ربه ما وعده من النصر ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعد»^٥ وأحد ﷺ يحرض أصحابه على القتال بقوله: «والذي نفس محمد بيده لا يفتنهم

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٢٥ ٢٢٦

(٢) وفتي الحمادي، ج ١، ص ٦٥ ٦٦

(٣) انصهر عنه، ص ٦٥

(٤) حمادي، ج ١، ص ٦٩ وأسناد الأشراف الثلاثة، ج ١، ص ١٥٢ ويذكر من شهداء بدر ٢٦٥ وحمادي (ج ٢ ص ٢٤٥) ورواه عن ابن إسحاق أن قاتل شيبه هو حمزة، وأن عنه يارر حمزة بن الحارث فمرح كل منهما صاحبه، ثم قر حمزة وعيني على عنه قتلاه

(٥) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦٧

اليوم رجل يقتل صاراً محتسباً مقلداً غير مدير إلا أدحه الله الجنة فدل أحد الصحابة وهو عمير بن الحمام، وكانت في يده تمرات يأكلهن : صحح^(١) فما بي بي وبين أن أدحل الجنة إلا أن يقتل هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأحد سيده وهو يشد

ركباً إلى الله بغير راد إلا التقى وعمل المعاد
والصرف في الله على الجهاد وكُل زاد عرصة النفاق
غير التقى والجر والرشاد^(٢)

وطل بقاتل لقوء حتى استشهد وهكذا صدقت كلمة عتة بن ربيعة لقرش «إني أرى قوماً مسلمين لا تفصلون إليهم وبكم خير»^(٣)

ويحمي اليوم وقد قتل من صناديد قريش سبعون أو يزيد، وأسر منهم سبعون أو يزيد^(٤) أم المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر^(٥) وكان بين من قتل من رؤوس الكفر يومئذ أبو جهل، وأمّية بن خلف، وأبو الحنظلي بن هشيم، ورملة بن الأسود، وعمر بن الحصرمى، وسيد ومه أسد الحجاج، وحظلة بن أبي سفيان بن حرب، وطعيمة بن عدي والتجدير بالاعتبار أن ملال بن رباح كان وراء مقتل أمّية بن حنف

وأمية هذ كما ذكرنا كان يسوم ملالاً سوء العذاب ليكفر بمحمد ﷺ فللهجرة وقد وقع أمّية وأمه على أسيرين في يد عبد الرحمن بن عوف يوم بدر ثم إن ملالاً لمح أمّية بمشى مع عبد الرحمن فصرح بأعلى صوته «يا معشر الأنصار، أمّية ابن حلف رأس الكفر، لا نجوئ إن نجاء» فأسرع إليه من سمع نداءه من المسلمين «كأنهم عود حسب أبي أولاده»^(٦)، وأحاطوا بأمية وأمه فقتلوهما^(٧) أمّ أبو جهل

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٨، والنداء والنهاية لأبي كثير، ج ٣، ص ٢٧٠ ٢٧٧

(٢) البلاذري أساب الأشراف، ج ١، ص ٣٠٥ ٣٠٦

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٧٧

(٤) الثالث كل أشي إذا وضعت مئة سنة أيام لأن ولدها يعود بها، والجمع نحو انظر مائة فعودة في لسان

حرب، ج ٤، ص ٣١٦٣

(٥) الزبدي المعاري، ج ١، ص ٨٣

فقد استطاع أحد لأبصار وهو معاذ بن عمرو بن الجموح أن يصل إليه رجم الحراسة لمشددة التي أحاطه بها المشركون، ثم صرته سبيته صرته أطاحت بقدمه ولكن معاذ، خرج جرحاً بائناً سيف عكرمة بن أبي جهل ثم استطاع أنصاري حر وهو معوذ بن عمرو (معوذ ابن الحارث بن رفاعه) أن يصرب أنا جهل صرته تركته وبه رمى. فمما جلبت المعركة وانكشف المشركون أمر الرسول ﷺ نأبى جهل أن يمسس في الغنى، فذهب عبد الله بن مسعود يبحث عنه فوجده لم يعارق الحياة بعد فوضع ابن مسعود رجله على عنقه وقال الحمد لله الذي أحركك فقال لقد ارتقيت مرتفعاً صعباً يا زويجي نعم! لمن الدائرة؟ قال ابن مسعود لله ورسوله ثم قال له إني قاتلت يا أبا جهل! قال لست بأول عد قتل سيده، أما إن أشد ما لقيته اليوم هي نفسي لقيت إني وألا يكون ولي قتل رجل من الأحلاف أو من المطيبين فأجهر عليه ابن مسعود واحتر رأسه^(١)

أما أسرى بدر فقد كان فيهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، وبوقل بن الحارث^(٢)، وسهيل بن عمرو، وأبو العاص بن الربيع روح رب ست رسول الله ﷺ^(٣)، وعقبة بن أبي معيط الذي كان يؤدي رسول الله ﷺ مكة، والنصر بن الحارث وقد كان هذيان الرحلان كما يقول ابن كثير فمن شر عباد الله وأكثرهم كفرًا وعداءً ونعياً وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله^(٤). وقد استشار الرسول ﷺ أن يكر وعمر بن شاة جمهور الأسرى هل يقتل منهم الفداء أو يأمر بصرب أعناقهم؟ فأشار أبو بكر بقول

(١) وافي بخاري ج ١ ص ٨٩، ٩٠، واللاوي أسباب الأشراف، ج ١ ص ٢٩٩

(٢) بن أبي العاص بن عبد المطلب يوم بدر معه وافي أخويه عوف بن أبي طالب وبوقل بن الحارث بن عبد المطلب، وكان العباس ممن خرج مع المشركين إلى بدر مكروفاً، وقد ثبت جهل بن أبي طالب، وهذا هو الرسول ﷺ يوم بدر فمن قبي العباس فلا يقتله فإنه أخرج مكروفاً، وقيل لم يمس أسلم قبل لهجرة وكان يكتم إسلامه أن عوف قد أتى المدينة مسلماً قبل الهجرة أما عوف قبل أنه أسلم بعد ذلك، لعدم به في بدر وصل به أسلم وهاجر أباه لخلق راحع تراخى العباس وعوف وبوقل في أسد العاص لآخر الأشراف ج ٣ ص ١٦٤، ج ٤ ص ١٦٣، ج ٥ ص ٢٦٩

(٣) فري بشره بن أبي حمزة بن النخع ووجهه ريب، ولما اعتنق أبو العاص الإسلام به سنة من لهجرة رد رسول الله ﷺ به ريب فكان جديداً اللاوي أسباب الأشراف، ج ١ ص ٢٩٩

(٤) سنده وسنده ج ٣ ص ٢٠٦

العداء، وقال في ذلك: «يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فبني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا له عضداً» أما عمر فأنشأ بصرب أعناقهم وقال في تبريره لذلك: «حتى نعم الله أن ليس في قوم هودة للكفار، هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأنصهم» قبل رسول الله ﷺ رأي أبي بكر ثم برز القرآن مؤيماً لرأي عمر ومعانداً لرسول الله ﷺ على قول العداء، وذلك في قوله تعالى ﴿مَا كَانَتْ لِبَنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرٌّ عَلَى يَتِيمٍ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَصَ الدِّينِ وَلَهُ يُرِيدُ الْأَجْرَ وَاللَّهُ غَيْرُ غَيْرٍ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كُتِبَ بِرَ آفُو سَيِّئَ لَسْتُمْ مِمَّا أُنذَرْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف ٦٧، ٦٨^(١)] ويروي أنه عدم برز هذان الأبيان جلس الرسول ﷺ وأبو بكر يكيان ثائراً من هذا العداء، فدخل عليهما عمر وهما كذلك فقال: «يا رسول الله! أحبرني ماذا يكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد تناكيت لكانكما» فأحبره ﷺ بما برز من القرب من عداء في فناء الأسرى، وقال له: «لقد عرص عني عدائكم أدنى من هذه الشجرة»، مشيراً إلى شجرة قرية^(٢) ومن المناسب أن تشير هذا إلى موقف لسعد بن معد شيه بموقف عمر، فعندما دارت الدائرة على المشركين في أثناء معركة بدر أفل المسلمون على الكفار بأسروهم فرأى رسول الله ﷺ الكراهية في وجه سعد لما يصنع الناس، فقال له: «لكنك يا سعد تكره ما يصنع الناس» فقال سعد: «أحل والله يا رسول الله» كاتب أول وقعة أوقعها الله بالمشركيين، فكأن الإثبات في القتل أحبب إلي (أو أحبب إلي) من استقاء الرجال^(٣). وعندما أشد عود للإسلام أراح الله للمسلمين أن بأسروا أعداءهم وأن يقلوا العداء منهم



هذا هو يوم بدر الذي يسمى «يوم الفرقان»^(٤) لأنه كان فارقاً بين الحق والباطل

(١) (لولا كُتِبَ بِرَ) أي لولا حكمه من الله في الشرح لم يحوط وهو أنه لا يوجب أحد جعاً غير مقصود، وكان هذا خطأ في الاجتهاد الكشاف للزمخشري، ج ٢، ص ٢٢٧

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٧٥

(٣) انصهر سعد، ص ٤٤٩

(٤) في يوم بدر ﴿يَوْمَ كُنْتُمْ سَابِقِينَ إِلَى رَبِّكُمْ وَتُرَاةَ عَلَى غَدَاةٍ يَوْمَ الْقُرْآنِ يَوْمَ تَقُتْلُ لَكُمْ بُنِي﴾ [الأعراف ٤١]، فالمقصود يوم الفرقان هذا يوم بدر والجمعان هما الفرقان من فصلين وتكرير اللمعشري

كشاف، ج ٢، ص ٢٢٣

وهذا إجماع من المؤرخين على أن تاريخ هذا اليوم أو تلك المعركة هو رمضان من السنة الثانية للهجرة، ولكنهم يختلفون حول تحديد هذا اليوم على أن الرواية التي يفسرها معظم المؤرخين هي أن تلك المعركة كانت يوم الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان^(١)

أهم نتائج غزوة بدر

تمثل غزوة بدر نقطة تحول أساسية في تاريخ المسلمين، وقد كتب لهذه الغزوة نتائج دالة لعل أهمها ما يأتي.

أولاً: كان لانتصار المسلمين في غزوة بدر صدى هائل لا في المدينة أو مكة وحدهما بل في الجزيرة العربية كلها. فقل سنوات ثلاث أو أربع كان الرسول ﷺ في مكة يعرض نفسه على قاتل العرب في المواسم ملتصقاً أن يصروه ويمسوه حتى يسمع رسالة ربه، ولم تكن للمسلمين دار أمة ولا كان لأتباعه بصفة عامة شوكة ومعة ثم هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وكان الطرفان المسلمون والمشركون، في حالة ترقب، ثم جاءت غزوة بدر لتؤكد للجميع أن المسلمين أصبحوا قوة مرهوبة الجانب لا مطمع فيها لطامع. وهكذا كان لغزوة بدر الفصل في ترسيخ أقدام الإسلام في شبه الجزيرة العربية وهي تعزيز الثقة لدى المسلمين في نصر الله سبحانه وخاصة بعد أن رأوا رأي العين أن العدد القليل المتسلح بالإيمان قادر على أن يهزم أصحابه من عبيد الدنيا وعدة الطغاموت

ثانياً: كان لانتصار بدر أيضاً أثر جاور توطيد مكانة المسلمين في شبه الجزيرة العربية إلى نشر كلمة الإسلام. فلا شك أن هذا الدين الذي تفتح أتباعه في فخر فريش مجموعها وحيلانها رغم قلة عددهم لجدير بأن يثير فضول الكثير من العرب ممن سمعوا بهد النصر، وحذير بأن يجعلهم يحاولون التوقف عن ما فيه من دعوة وتوجيه، وكان ذلك مقدمة طبيعية أمام الكثيرين للانصواء تحت لوائه

ثالثاً: مما لا يكر أن انتصار المسلمين في بدر كان لظمة قاسية لقريش رلرت كيداً وأفقدته ثقة في نفسها والقدرة على التوارى لقد قتل الكثير من رؤوس الكفر

(١) سورة براء ح ٤، ص ٢٦٦ تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٤٦، تاريخ الخلفاء ج ٢، ص ٤٥، عيون

تواريخ لاس شاعر النكتي، ج ١، ص ١١١

في هذه العروة من صناديد قريش كأبي جهل، وشيبة بن ربيعة، وعنه بن ربيعة، والوليد بن عثة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وغيرهم من إن أنا لهب الذي لم يشترك في المعركة مات كمدًا بعدها بضعة أيام فليس من المنسحب إلا أن يرى قريش بعد بدر لا تقوى على مواجهة المسلمين بمفردها بل تحاول أن تتسخر عليهم سواء من قاتل العرب أو حتى اليهود، وما ذلك إلا انتقاء لثقت القوة الإسلامية الصامية في المدينة.

وأما بعد تنصير المسلمين في بدر وسب هذا الانتصار بدأ يهود المدينة يُظهرون بعض ما كانوا يخفونه تجاه المسلمين من حسد وصعفة، بل يروى أن يهود بني قينقح قالوا للرسول ﷺ حين عرض عليهم الإسلام بعد بدر «يا محمد، إنك ترى أن كقومك لا يعزبتك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إن والله لنش حارب لتعلمن أنا نحن الناس»^(١) وسوف يكون للرسول ﷺ موقف من يهود المدينة بضعة عامة ستحدث عنه في موضعه.

في أعقاب بدر

لم يكن من السهل على قريش أن تقبل هزيمتها في بدر وأن تنسى ما لحقها من مهانة على أيدي المسلمين، ولهذا يروى أن أنا سفيان بن قريشًا أن تكفي على فلاحهم حتى يدركوا، ثأرهم من المسلمين، ويذر ألا يمس رأسه ماء من جنة حتى يعرو محمدًا^(٢)، ولم تكن امرأته هذيل بنت ربيعة بأقل منه في التعبير عن إصراره على الثأر؛ فيروى عنها أنها قالت «الذهب على حرام إن دخل رأسي حتى يعرو محمدًا، والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي بكيت» ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأري يعيي من قنفة الأحبة»^(٣).

في هذا الجو المغمم بروح الثأر من جانب قريش حرج أبو سفيان في مني ركب، وقيل في أربعين ركبًا، يريد المدينة، والتقى بأحد رؤساء اليهود بها وهو سلام بن مشكم ليتعرف منه إلى أخبار النبي ﷺ والمسلمين^(٤) وقد تمكن أبو سفيان ورحلته

(١) تاريخ الطبري ج ٢، ص ٢٧٩

(٢) الواقدي المعاري، ج ١، ص ١٢١

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٤

(٤) الواقدي المعاري، ج ١، ص ١٨١

في أثناء حروجهم هذا من قتل رجل أنصاري وأجير له كان يعمل في حوث لهذا الأنصاري بالمدينة، كما أحرقوا بيتين بالمدينة وبعض الحيل هناك، ثم انصرفوا هارين. وعندما انتهى خبر ذلك إلى رسول الله ﷺ حرج في طمأنينهم حتى بلغ مكاناً يقال له «قرقرة لكندر» فلم يدرهم، وكان أبو سفيان ورجاله في أثناء هروبهم سحيمون فيقبول أكثر ما معهم من حُرْب السويين^(١) وقد استولوا السحيمون على ذلك فعرفت هذه العروة (عروة السويين) وكاتب في ذي الحجة من السنة الثامنة للهجرة^٢

وقد كان رسول الله ﷺ يتحين الفرصة لتأديب قريش على ما صنعت، فعزم بحروجه غير لقريش في تجارة إلى الشام، وكان على العير صفوان بن أمية بن حنيفة، ومعه عبد الله بن أبي ربيعة، وحويطب بن عبد العزى وأحرون من أعيان قريش. وقد سلك العير إلى الشام طريقاً غير مأثوف هو طريق العراق، خوفاً من تكرار ما حدث في بدر. وهذا يذهب الرسول ﷺ يريد من حارثة في مائة راكب لمهاجمة هذه العير، فاستطاع يريد أن يدرجها عبد ماء من مياه نجد يقال له «القرقرة»، ومن ثم عرفت هذه السرية «سرية لقرقرة». وقد استولوا يريد على العير وما فيها ولكنه لم يتمكن من أعيان القوم الذين أعجزوه هرباً، ومع ذلك فقد أسر رجلاً أو رجلين ممن كانوا مع العير. وقد حدثت هذه السرية في حمادى الأحرار في السنة الثالثة للهجرة^(٣) ولم تمر عليها غير بضعة أشهر حتى كانت عروة أحد بكل ما لها من أهمية في تاريخ العلاقات بين المسلمين ومشركي قريش.

غزوة أحد (شوال ٣هـ - مارس ٦٢٥م)

لم يكن ما حدث من مفاوضات بسيطة بين الحكيمين والمسلمين في أعقاب بدر ليتهيئ دعة قريش في الثأر من الرسول ﷺ وأصحابه؛ ومن هنا مشى بعض أعيان قريش من أمثال عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي، وعكرمة بن أبي جهل، وصموذ بن أمية، ولحدث بن هشام وغيرهم ممن أصيب إياهم وأساقهم وإخوانهم يوم

(١) السويين طعام يتخذ من دقيق التمر والشعير

(٢) حرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الأحد في الخامس من ذي الحجة وصادف من ثدييه حبس أيام لمعاي

هو مدني ج ١ ص ١٨٦

(٣) حريه من خلاص الجاهل إلى الواعظي الحمادي ج ١ ص ١٩٧-١٩٨، وسيرة ابن هشام، ج ٢ ص

٢٩٤ ٢٣٠ تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٢٩٢ ٢٩٣

بدر، فجاهدوا، أما سفيان بن حرب فقالوا له «يا أبا سفيان، انظر هذه العير التي قدمت بها، وحسنها»، فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيفة قريش^(١)، وهم طيبو الأنفس، يجهرون بهذه العير حيناً إلى محمد، وقد ترى من قُتل من أبنائنا وأبنائك وعشائرك»^(٢) فقال أبو سفيان «وقد طاب أنفس قريش بذلك»^(٣) قالوا نعم قال «فأنا أول من أحب إلى ذلك وسوعد منافعي، فأنا والله الحوتور الثائرة قد قتل أبي حنيفة بدر وأشراف قومي»^(٤) وكانت العير ألف بعير، وكان الحال حمسين ألف دينار^(٥)

بعد أن أحضرت قريش أمرها على قتال المسلمين رأيت أن تستعين في ذلك بمن استطاعت أن تصفه إلى صفوفها من الأحابيش^(٦) ومن عدد مائة من كنانة وثقف^(٧)، وجميع لقريش ثلاثة آلاف رجل، من بينهم مائتا فارس وسبعمئة دارع، وفي الجيش ثلاثة آلاف بعير^(٨)

تولى القيادة العامة للجيش المشركين أبو سفيان بن حرب الذي خرج معه امرأته هند بنت عتبة بن ربيعة، وأميمة بنت سعد بن وهب، كما خرج اخرون من المشركين ساءتهم التماساً للعصب والحمية وتجساً للفرار^(٩) وكان على ميمة الجيش حديد بن الوليد، وعلى الحيسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى التحيل صموان بن أمية (وقد كان عمرو بن لعدص) وعلى الرماة عبد الله بن أبي ربيعة، وكانوا مائة راجم وكان يحمل لواءهم طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار^(١٠)

(١) انقصه يصفه بها هذا العير بما تحمله من السلع التجارية

(٢) و في الحميري، ج ١، ص ١٩٩ ٢٠٠

(٣) المصدر نفسه، والمضجع نفسه

(٤) الأحابيش هم بنو المصطلق وبنو الهذيل بن خزيمة، وقد اجتمعوا عند جبل بأعقل مكة يقال له جُشَي فجاهدوا قريشاً وتجاهروا، والله أنشد على عيرها ما سعادته ووصح بهار وما أرسى حشيت مكة يسير أحاديث قريش

«سعد جحر بنظر مائة (حشيت) في نساء العرب لابن منظور، ج ٢، ص ٧٥٤

(٥) حميري، ج ١، ص ٢٠٠ ٢٠١ وسيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٤

(٦) حميري، ج ١، ص ٢٠٣

(٧) حميري، ج ١، ص ٢٠٢ ٢٠٣ والأعالي للأصفهاني، ج ١٥، ص ١٨١

(٨) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٢٠

أنع لعاس بن عبد المطلب رسول الله ﷺ بتحريك جيش قريش وبعده وعده في كتاب أرسله إليه من مكة مع رجل من بني عفار^(١)، فجمع الرسول ﷺ أصحابه واستشارهم في الإحراء الذي يسعى أن يتخذ لمواجهة هذا الموقف فهو إما أن يرحل بأصحابه من المدينة لقاء العدو، وإما أن يتحصن المسلمون داخلها في حارب العدو، فتصامم قائلوه فيها وكان الخيار الثاني هو الأمثل عنده، وقال وهو يعرض وجهة نظره: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا؟ فإن أقدموا أقدموا، شر مقدم، وإن دخلوها علينا قاتلناهم فيها»^(٢)

ولكن جمهور المسلمين اتوا الخروج من المدينة لقاء العدو، وذلك لأنهم رأوا أن بقاءهم داخل المدينة ربما تقصره قريش على أنه حين ونكوص عن القتال، وهم في الوقت نفسه قد اتفوا أن يسمحوا لقريش بانتهاك حرمة المدينة وقد أوصى الصحابة في الدواعي عن وجهة نظره هذه أمام الرسول ﷺ: «فما قاله إيسر بن أوس الأنصاري في ذلك. يا رسول الله، لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرت محمداً في صياصي يثرب وأطامها فيكون هذا جرأة لقريش، وقد وطئوا، منعنا، فبدأ لم يذب عن عرصا لم يزرع، وقد كنا يا رسول الله في حاضيت والعرب بأثوب ولا يقطعون بهذا ما حتى يخرج إليهم بأسيا كما حتى يذهب عد، فحرب اليوم أحق يد أيد الله بك وعرضا مصيرنا لا محضر أنفسنا في بيوت». وقال حمزة بن عبد المطلب: «والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعاماً حتى أحاندكم بسبي حارث من المدينة»^(٣) وهكذا لم يجد رسول الله ﷺ بداً من التروك عن رأي جمهور أصحابه، إيماناً لئلا الشورى الذي أمره الله بالتأنيء. فخرج في ألف من أصحابه ثم تراجع عند ليه من أبي بن سلول، وعاد ثلث الناس حين كان بعض الطريق، وذلك لعصه من سجنانة رسول الله ﷺ لرأي الأعلى، ولم تمنح محاولات بعض الصحابة في حث عبد الله بن أبي وزحاله على الحصى مع الرسول ﷺ لحرب المشركين^(٤)

(١) المصدر ص ١٠٣، ٢٠٤

(٢) سيرة بن هشام ج ٣ ص ٧

(٣) حريدمر بنعص رحج بن اودادي في المعاري ج ١ ص ٢١٠، ٢١٢

(٤) حادي بن اودادي ج ١ ص ٢١٩ وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨، لأبي لأصهني ج ١٥ ص ١٨٣

ومضى رسول الله ﷺ بمن بقي من أصحابه، وكانوا سعمانة، حين نزل بجوار جبل أحد، فجعل طهره وعسكره إلى أحد، وأخذ يظم جيشه، فجعل فرقة الرمة حصين رحلاً، وأمر عليهم عبد الله بن حنبل، واحتار «تل عبيس» جنوبى أحد ليكون مركزاً له^(١)، وقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة، ودفع لواء الأعظم إلى مصعب بن عمير، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حصير، ولواء الحنجر إلى سعد بن عذبة (أو الحب بن المنذر)^(٢). وكان في جيش المسلمين قرمان ومائة فارح^(٣)

ونظراً لكثافة حيل المشركين في «أحد» وبثه الرسول ﷺ اهتماماً خاصاً لجماعة الرمة إدراكاً منه لخطورة دورهم في دفع الخيل عن معسكر المسلمين، ومن هنا أصدر ﷺ تعليماته الحاسمة للرماة ألا يرحلوا أماكنهم مهما كانت تطورات المعركة ومما قلده في ذلك «احموا لنا ظهورنا، فإنا نخاف أن يؤتى من ورائنا ولرمونا مكناكم لا ترحلوا منه وإن رأيتموا يهرمهم حتى يدخل عسكرهم فلا تدركوا مكناكم وإن رأيتموا يقتل فلا تعيسوا ولا تدفعوا عما ألهم إبي أشهدك عبيهم» وارشفو، حينهم بالنسبة للخيل لا تقدم على الس^(٤)

وبدأت المعركة حين صاح طلحة بن أبي طلحة العنبري حامل لواء المشركين في وجه المسلمين قائلاً «من يبادر؟» فرز له علي بن أبي طالب فصره سيقه فصره^(٥) ثم احتلته القتال وأحدث ساء قریش برعامة هذست عة نصرين بالدقوف ويشدد إلهاناً لحماسه المشركين

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن قيلوا نعانق أو تدبروا ننفارق
فراق غير وامق^(٦)

(١) النعماني، ج ١، ص ٢١٩ وانظر أيضاً أطلس التاريخ الإسلامي لندكتور حسن موسى، ص ١٠٢

(٢) النعماني، ج ١، ص ٢٢٥ وانظر أيضاً أسباب الأشراف لبلادي ج ١ ص ٣١٦ ٣١٧

(٣) البلادي أسباب الأشراف ج ١ ص ٣١٦ أما النعماني فقد ذكر أحداثاً تروى أنه ﷺ ولاهر أبي برة بن ماز الحارثي الأعاني للأصمعي، ج ١٥، ص ١٨٣، والطبري ج ٢، ص ٥٠٥

(٤) النعماني، ج ١، ص ٢٢٤ ٢٢٥

(٥) المصدر نفسه ص ٢٢٥ ٢٢٦ وضمحه العنبري هو طلحة بن أبي طلحة عبد الله بن عبد نعيم بن عثمان بن

عبد انداد انظر ابن حزم جمهرة أسباب العرب، ص ١٢٧

(٦) البلادي أسباب الأشراف، ج ١، ص ٣١٧ ونحوه بنات طارق، أي نحن بنات الكوكب، ترجمها =

وكان الرسول ﷺ إذا سمع ذلك منهم قال: «اللهم إني بك أجول وأصول، وحيث أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل»^(١)

وسارت للمعركة في بدايتها هي صالح المسلمين تماثلاً، وأندى أصحاب رسول الله ﷺ من صور البطولة ما يسجله التاريخ بالإجلال والإعجاب. ومن ذلك ما يروى من أن لرسول ﷺ قال لأصحابه في بداية المعركة وهو مسكت سيفه: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه أبو دجانة سمالك بن حرشة فقال: «وما حقه يا رسول الله؟» قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحني»^(٢) فقال أبو دحانة: «أنا أحده بحقه يا رسول الله» فأعطاه الرسول ﷺ إياه، فاعتصب أبو دجانة عصاة له حمراء كان من عادته أن يعتصب بها عند القتال، ثم مشى بين الصفوف يتحتر بسيف رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «إنها لمشية ينفضها الله إلا في مثل هذا الموضع» وعدم احتدم القتال كان أبو دحانة لا يلتقي أحداً إلا قتله، ولكنه رفض أن يقتل امرأة كانت تقاتل في صفوف المشركين، فلما سئل في ذلك قال: أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة»^(٣)

وتوالى بطولات المسلمين، وشد الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو عن المشركين فيهمهم، وعندما رأى خالد بن الوليد هزيمة قريش أراد أن يصعصع صفوف المسلمين فحمل عليهم في بعض فرسان المشركين فرمته الرمية دققع^(٤) وأصعب هزيمة المشركين الهائية أمام المسلمين أمراً وشيكاً. وقد حدث من البطولات ما قلب موازين المعركة، وأحال مصر المسلمين إلى هزيمة

١ - وأما لا تات - فتنسب «وَرَبُّكَ لَعَلَّاهُ» [البقرة: ٢٠٦]، ويدل من مرثية مر ساء مشركين هذا رتبة ساء طارق وأد حكمة ساء طارق فالتا تشك. وهذا بناء مهملة وكاتب امرأة مر سي تشاء فاب في أحد الأجزاء في دارم بين بكر وتطلب

يا تفتقروا سماتق وسماتق السمارق

أو تفتقروا سماتق سماتق السمارق

هذا بناء مرثية في أحد الأجزاء في دارم بين بكر وتطلب

(١) المصدر نفسه، والمضمة بعدها

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٤ وفاروق ساء في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥١٠ ٥١١

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥١٠

فقد ذكرنا منذ قليل أنَّ الرسول ﷺ أوصى الرماة ألا يرحلوا أماكهم مهما كانت الظروف، بل إن الرسول ﷺ قال مؤكداً توجيهاته لهم: «اللهم إني أشهدك عليهم»^(١) ولكن معظم الرماة نسوا هذه التوجيهات عندما رأوا الأهمية تحل بالمشركيين ويطروا إلى رسول الله ﷺ والمسلمين وهم في خوف معسكر قرش يجمعون العدائهم، فصاحوا: العيمة! العيمة! وتركوا مواقعهم^(٢) وعشاً حاول أميرهم عبد الله بن حبيش أن يذكرهم بأمر رسول الله ﷺ «للم يترك من الرماة مع أميرهم عبد الله بن حبيش إلا نُعيمًا يسعون لعشرة»^(٣) واشتهر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما من فرسان المشركين هذه الفرصة السابحة، فحملوا على رماة المسلمين فقتلواهم، واستشهد في تلك الحملة عبد الله بن حبيش^(٤)

وهكذا، انكشف طهر المسلمين أمام عدوهم، فدخل فرسان المشركين عسكر المسلمين دون أن يجدوا من يتصدى لهم، «قد ضُيعت الشُّعُور التي كان بها الرماة»^(٥) ومن ثم دخل المشركون بخيولهم «على قوم عازبين أسير، فوصعوا فيهم السيف فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، وتفرق المسلمون في كلِّ وجه»^(٦)

وفي عمرة هذه القوضى والاضطراب حمل رجل من المشركين بقلبه «من قمينة الليثي» على مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين فقتله وهو يطرأ أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش يقول لهم: قتل محمدًا^(٧) وسرت إشاعة قتل رسول الله ﷺ بين صفوف المسلمين فزولوا رداً شديداً، ووأن كثير منهم الأدمار وهم يقولون: «يا قوم إن محمد قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم»^(٨) وهذا صاح أسس من الضر في المسلمين «يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقل: فذنبوا، عني ما قتل عليه محمد ﷺ اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأرأى إليك مما جاء به هؤلاء»^(٩) ثم قاتل حتى استشهد^(١٠)، فوجد المسلمون نه سعيي ضربة وطعنة،

(١) ابن القيم زاد المعاد، ج ٢، ص ٩٣

(٢) الوفاي المعاري، ج ١، ص ٢٣٠

(٣) انصهر ص ٢٣٢

(٤) انصهر ص ٢٣١

(٥) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥١٦

(٦) انصهر ص ٥٢٠

فقد عمر من لحظات «بني لأرحو أن يبعث الله أمة وحده يوم القيمة»^(١)

ثم علم المسلمون أن الرسول ﷺ لم يقتل فاطمات بنو سهم وثب إليه الكثيرون منهم وأحاطوا به وكونوا من أحسادهم ترساً يصد عنه هجمة قريش ومما يروى في هذا الصدد أن أبا دحانة «ترس دون رسول الله ﷺ بنفسه» يقع السل في ظهره وهو مسح عليه حتى كثرت فيه السل^(٢) ومما وقف أيضاً بجانب الرسول ﷺ خلال تلك الهجمة الشرسة علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو بكر، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، والحباب بن الصدور، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهيل بن حبيب، وأسيد بن حصير، وسعد بن معاذ ويروى أنه «ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلاً كلهم يقول وجهي دون وجهك، ونفسي دون نفسك، وعديك اسلام غير مؤذع»^(٣)

وكان الرسول ﷺ ثانياً كالطود طوال تلك المعركة الشرسة، وعنه درعان ومعصر وببضة فوق المعصر^(٤)، وياشر القتال بنفسه غير هباب، ويصف المقداد بن عمرو بعض مشاهد هذه المعركة فيقول «نادى المشركون شعارهم يا نعلري يا ك هل فأوحىوا، والله فيب قتلاً قريباً، وبألوا من رسول الله ﷺ ما دأوا، لا ولدي بعته بالحق يا ربيب رسول الله ﷺ رال شراً واحداً إنه لمي وجه العدو، وتنوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتنفري عنه مرة»^(٥) ومما يروى في هذا السبق أيضاً أن أبي بن خلف كان أحد الذين تعاقدوا وتعاهدوا على قتل رسول الله ﷺ، فمما ربه يوم «أحد» أقبل إليه يركض على فرسه وهو يصيح يا محمد، لا نجوت إن نجوت فبهم بعض الصحابة بالتصدي له فرفض الرسول ﷺ، «ثم انكص بأصحابه كما ينكص العير ولم يكن أحد يشبه رسول الله ﷺ إلا حد الحذ ثم أخذ الحربة قطعته رسول الله ﷺ بالحربة في عنقه وهو على فرسه، فجعل يخور كما يخور الثور»^(٦) ومات مائراً، بقطعه

(١) دوسي حنري ج ١ ص ٢٨٠

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥١٥ ٥١٦

(٣) الرازي الحناري، ج ١، ص ٢٤٠

(٤) انصهر عنه، ص ٢١٩ والمعصر رد يسج من الشروع على قدر ترأس يسر تحب لسمه وهي لجنوده

(٥) انصهر عنه، ص ٢٣٩ ٢٤٠

(٦) انصهر عنه، ص ٢٥٩

ورغم إحاطة الصحابة بالرسول ﷺ في أثناء المعركة فقد استطاع بعض المشركين أن يمتحنه بعض لأذى والعراصات، ففتح في وجهه وكسرت إحدى أسنانه وحرحت شفته وكان من بين من أصابه من المشركين عتة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص^(١) ولهذا يروى عن سعد أنه قال في هذا الموقف «والله ما حرصت على قتل رجل قط ما حرصت على قتل عتة بن أبي وقاص، وإن كان ما عمت لسيء الحين مُعَصِّف في قومه ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ «اشتد غضب الله على من دُعِيَ وجه رسول الله»^(٢)

وقد قامت لساء المسلمين بدور يستحق التويه في معركة أحد، فقد كن سقيين العطشى، ويد وين الحرجي^(٣)، بل إن بعضهم اشترك اشتراكاً فعيب في القتال، ومن هؤلاء نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية، وكنيتها أم عمارة، وهي ممن شهد بيعة العفة الثانية^(٤)، فقد حارب نسيبة يوم أحد لتسقى الحرجي، ثم قتلت وأصب بلاء حسناً، فحرحت اثني عشر حركاً بين طعنة رمح أو ضربة سيف^(٥) ويروي أنها قلب يدها لمسببة «لما بهم المسلمون احمرت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أدشر القلب وأدب عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمت بالقوس حتى حصت إيّ الحرجية»^(٦) ولهذا يؤثر عن الرسول ﷺ أنه قال في جهادها يوم أحد «ما التفت يميناً ولا شمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دوني»^(٧)، وقال أيضاً «المقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان»^(٨)!

انجلت معركة أحد وقد استشهد من المسلمين سبعون، يريدون قليلاً أو ينقصون قليلاً^(٩) وكان من بين شهداء أحد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، ولكنه لم

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٤ وقد روى عنه شعبة رسول الله ﷺ وأصاب رماحه

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥١٩

(٣) المعاري، ج ١، ص ٢٤٩ ٢٥٠

(٤) انظر ترجمه نسيبة بنت كعب في أسد الغابة لاس الأثير، ج ٢، ص ٢٨٠ ٢٨١

(٥) الرازي المعاري، ج ١، ص ٢٦٨

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٦٩

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٧١

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٦٩

(٩) انلاذري أساب الأشراف، ج ١، ص ٢٢٨ وتاريخ السعوي، ج ٢، ص ٤٨

بقتل إلا بعد أن أمعن في الكفار وألبى السلاء الحسى وكان استشهاده على يد «وحشى» علام حبير من مطعم ويذكر المؤرخون عن وحشى هذا أنه «كان حشياً يفقد بحرية له قذف الحشنة، فلما يخطئ بها» فدعاء سيده جبير من مطعم، وقال له «أخرج مع لدس» فبن أس قتل عم محمد بمعى طعيمة بن عدي فأبى عبيد» فخرج «وحشى» مع قريش وأخذ يتحين الفرصة لحرمة حتى راه «وهو بهذا» الدس سيقه، ما يمين^(٢١) شيئاً يمر به» وهنا بشرح «وحشى» كيف قتل حرمة ويقول «وهرب حرسى، حتى إذا رصبت منها دفعتها عليه فوقع في كتفه حتى خرجت من بين رجليه، وأقبل نحوى، فسلب فوق، فأملهته حتى إذا مات جئت فأحدث حرسى ثم تنحيت إلى العسكر، ولم يكن لى شىء» حاجة غيره^(٢٢) وقد مثلت هند ست عنة امرأة أبي سفيان بحمرة الذي قتل أباهما عنة من ربيعة في بدر وشارك في قتل عمه شيبه، فأحدث كذبه فلاكتها ثم لفظتها، وجدعت أمه وقطعت أذنيه، وأعمت عيني «وحشى» نظيره ما أدركته على يده من نأرها من حرمة^(٢٣)

وقد أشد على رسول الله ﷺ قتل حرمة، فيروى أنه عندما وقف عليه صريعاً قال «لن أصاب بمثلك أبداً» ما وقف موقفاً فقد أعبط إني من هذا» ثم ذكر أنه مكتوب في أهل السدو لسمع أن حرمة أسد الله وأسد رسول^(٢٤)

لقد كان يوم أحد «يوم بلاء وتمحيص» كما يقول ابن إسحاق^(٢٥) ولا شك أن المسلمين استعدوا من دروسه العميقة أعظم العائلة» فقد عرفوا أن الحرص على حفظهم لا يسعى أن يلاسن جهادهم في سبيل الله، وإلا كانت النتائج وخيمة، كما أدركوا تماماً أن عدم الالتزام بأوامر القائد يوردهم موارد الهلاك ثم إنهم فهموا قيمة الاستعداد دفاعاً عن العقيدة» فقد استسلوا في بدر رغم قسهم فكنل أنه جهادهم بالنصر، ولكمهم تحادلوها في أحد فانتهاوا إلى الهزيمة لقد اسوعب

(٢١) بهذا وصف أبي يعلى

(٢٢) ابن دس شىء يمر به» أي ما يبقى على شىء

(٢٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥١٧

(٢٤) السدوي، ج ١، ص ٢٨٦

(٢٥) سيرة، ج ١، ص ٢٧ وانظر أيضاً معاري التوافدي ج ١، ص ٢٩

(٢٦) سيرة، ج ١، ص ٢٦ والنهاية والنهاية لاس كثير، ج ١، ص ٢٤

المسموعون كل هذه الدروس من محبة الهزيمة في أحد، وعرف الرسول ﷺ ذلك من أصحابه، ولقد قال: «لن يبالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن»^(١) أي إن قريش لن تنحق بالمسلمين هزيمة بعدها حتى يفتحوا مكة

ولحق أن انتصار قريش في معركة «أحد» لم يكن انتصاراً حاسماً عني الإطلاق، بل يمكن القول إنه كان انتصاراً شكلياً، ذلك أن الانتصار يقاس بمدى تحقق أهداف المعركة، وقد كان الهدف الاستراتيجي لقريش من وراء معركة أحد كما يذكر موسحومري وت هو تحطيم الجماعة الإسلامية الناشئة، أو على الأقل القضاء على محمد ﷺ على أساس أن ذلك وسيلة لتحطيم تلك الجماعة ولكن قريش لم تحقق أيًا من هذين الهدفين فلا هي حطمت الجماعة الإسلامية في المدينة، ولا استطاعت القضاء على محمد ﷺ^(٢) والملاحظ أن قريشاً بعد انتصارها في أحد لم تجرؤ على مطاردة المسلمين وهم عائدون إلى المدينة، فقد كانت تدرك أن المسلمين ما زالوا قوة بحسب حسابها وقد عر صعوا من أمية عن ذلك خير تعبير عندما قال لقريش يشيها عن التفكير في مطاردة المسلمين «قد أصبتم القوم، فانصرفوا فلا تدحسوا عليهم وأب كأتون ولكم الظفر»^(٣) فإني لا تدرون ما بفشاكم^(٤) وكان الرسول ﷺ قد أرسل سعد بن أبي وقاص بعد انتهاء معركة أحد ليأتيه بحر قريش وليعرف أين وجهتهم، وقال له في ذلك: «إن ركوا الإبل وجبوا الخيل فهو الغنم، وإن ركوا الخيل وحسوا الإبل فهي العارة على المدينة. والذي نفسي بيده لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأماجرنهم»^(٥)

لم تحرؤ قريش إذئذ على السير إلى المدينة، بل سارت إلى مكة، وذلك بعد أن حاول أبو سفيان عبثاً أن يزرع يقين المسلمين وأن يصور لهم أن انتصار قريش في تلك المعركة يمثل انتصاراً لدبتها ولما تعد من دون الله من أصنام، فيروى أنه أشرف على حل أحد ثم صرخ بأعلى صوته وأصحاب رسول الله ﷺ يسمعون: «اعل هُل»^(٦)

(١) الرازي المعاري، ج ١، ص ٢٥٠

(٢) M. Watt, Muhammad at Medina PP 26-28

(٣) الرازي المعاري، ج ١، ص ٢٩٨

(٤) انصاف ص ١٠٠ والصفحة بعدها

أي انتصر يا هيل عليّ دين محمد. فأمر الرسول ﷺ عمر أن يجيبه بقوله «الله أعز وأجل» فقال أبو سفيان «يوم يوم بدر! ألا إن الأيام دول، وإن الحرب سجل فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نكر» فلان فلان، وفلان فلان، فأحياه عمر «لا سواء، فلانا في الجنة وقلاكم في النار» فقال أبو سفيان «إنكم تقولون ذلك! لقد حسا إبن وحسرت! لا العرى ولا عرى لكم» فقال عمر «الله مولانا ولا مولاي لكم» ثم انصرف أبو سفيان وهو يقول «إن موعدكم بدر للعام المقبل» فأمر الرسول ﷺ عمر أن يجيبه «نعم، هي يسا ويبك موعد»^(١)

حدثت موقعة أحد في شوال سنة ٣هـ (مارس ٦٢٥م) ويذكر الواقدي والملاذري أنها كانت في لسابع من شوال^(٢)، في حين يذكر ابن إسحاق أنها كانت في الخامس عشر من شوال^(٣) وقد برز في هذه المعركة من أي المذكر الحكيم من سورة آل عمران ما يؤت من عزم المسلمين ويقوي بقيهم ويحذرهم مما لا يبين بهم من الفرار أمام أعداء الله وقد أورد ابن إسحاق والواقدي وغيرهما هذه الأدب مع التعبير عني^(٤) فمن ذلك قوله تعالى تَبَيَّنَ لِلْمُسْلِمِينَ وَتَمَكَّنَ لِرُوحِ الْإِيمَانِ فِيهِمْ ﴿وَلَا تَهَيَّأُوا وَلَا تَخْرَبُوا وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنَّ تَسَكُّمَكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَزَعٌ يَشْتَلُّ وَتِلْكَ الْآيَاتُ بِمَا كُنْتُمْ فِي الشَّكِّ وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَتَجِدُكُمْ فِي شَكٍّ وَلَهُ لَا يُجِبُ الْكَلْبِينَ ﴿وَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ الْيَوْمَ دَامُوا وَتَحَقَّقَ الْكُفْرُ﴾ [آل عمران ١٣٩-١٤١]

وقوله سبحانه مشيراً إلى ما أشيع من قتل رسول الله ﷺ وما تلاه من فرار بعض المسلمين ﴿وَمَا تَحْتَهُ إِلَّا رُسُودٌ قَدْ حَتَّ مِنْ قَبْلِهِ أَنْزِلُ فَإِنْ كَانَتْ أَوْ قِيلَتْ نَقَلْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَقْبِذْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ نَفُتُّهُ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٤]

وقد جاءت الإشارة إلى الرماة وعصيانهم أمر رسول الله ﷺ باندفاعهم نحو العيمة

(١) مع سيرة هشام ج ٣ ص ٤٥ والعماري للواقدي ج ١ ص ٢٩٦ ٢٩٧ وأساب لأشرف الملاذري ج ١ ص ٣٢٧ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٢٦ ٥٢٧
(٢) عمري ج ١ ص ١٩٩ وأساب لأشرف ج ١ ص ٣١١ ٣١٢
(٣) سيرة هشام ج ٣ ص ٥٢ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٠٢
(٤) سيرة هشام ج ٣ ص ٥٨ ١٧٥ والعماري للواقدي ج ١ ص ٣١٩ ٣٢٩

بعد أن أُرهم له ما أحوا من النصر، وذلك في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَسَفْنَا عَنْكُمْ آلِهَتَهُمْ بِمَا هُمْ آتُونَ﴾ (١) فَيَسَفُّهُمُ اللَّهُ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاحْشَىٰ ﴿٣﴾ إِذَا فُجِسَتْكَ النَّارُ مِمَّا أَمْسَكْتَ مِنْ أَوْسَادٍ لَّهُمْ أَشَدُّ حَرًّا لَمَ خَسَفَ وَجْهُكَ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمَخْسُوفِينَ ﴿٤﴾ ثُمَّ جَاءَ رُسُلَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ يَبْشِرُونَهُمْ ﴿٥﴾ أَذْهَبَ أَكْثَرُهُمْ أَنْبَاءَ رُسُلِهِمْ فَأَنزَلْنَا السَّيْفَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا سُمْيَةً ﴿٦﴾ فَذَرْهُمْ فِي لَقْوٍ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ كَسَفْنَا عَنْكُمْ آلِهَتَهُمْ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ كَسَفْنَا عَنْكُمْ آلِهَتَهُمْ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ كَسَفْنَا عَنْكُمْ آلِهَتَهُمْ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠﴾

في أعقاب أحد

رَأَيْتُ أَنَّ لِرَسُولِ ﷺ كَانَ يَحْتَشِي أَنْ يَتَوَحَّهَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى الْعَدَسَةِ لِيُقْصِمُوهُ، بَعْدَ الْكَسْرِ الْمَسْمُومِ فِي أَحَدٍ. وَبَعْدَ أَنْ عَلِمَ أَنَّ وَجْهَهُمْ مَكَّةَ أَرَادَ أَنْ يُوَكِّدَ لِقَاءَهُمْ أَنْ مَا أَصَابَ الْمَسْمُومِ فِي أَحَدٍ لَمْ يُصْغَفْ مِنْ قُوَّتِهِمْ وَغَرِيبَتِهِمْ^(١)، فَحَرَّحَ يَطْلُبُ الْعَدُوَّ فِي الْيَوْمِ الْبَالِيٍّ لِمَعْرَكَةِ أَحَدٍ وَهُوَ السَّادِسُ عَشَرَ مِنْ شَوَّالٍ (طَقًّا لِرَوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ)^(٢) أَوَّلًا مِنْ مِثْلِ شَوَّالٍ (طَقًّا لِرَوَايَةِ الْوَاقِدِيِّ)^(٣) وَقَدْ طَلَبَ الرَّسُولُ ﷺ أَلَا يَحْرَحَ إِلَّا مِنْ شَهِدٍ الْقُدَّالِ بِالْأَمْسِ، أَيْ حَصَرَ مَعْرَكَةَ أَحَدٍ^(٤) فَاجْتَاهَ الْمُسْلِمُونَ وَحَرَّحُوا مَعَهُ وَقَدْ نَشِئَتْ فِيهِمْ الْجَرَاحَاتُ وَحَرَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَجْرُوحٌ فِي وَجْهِهِ وَشَعْتُهُ وَمَشْجُوحٌ فِي جَنْبِهِ، وَكَانَ بِأَسِيدِ بْنِ حَصِيرٍ سَبْعَ حَرَاحَاتٍ، وَبِالْطَّقِيلِ مِنَ الْعَدُوِّ ثَلَاثَةَ عَشَرَ حَرْحًا، وَبِحَرْشٍ مِنَ الصُّعَّةِ عَشَرَ حَرَاحَاتٍ، وَبِكَعْبٍ مِنَ مَالِكٍ مِصْبَعَةَ عَشَرَ حَرْحًا، وَبِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ ثَلَاثَةَ عَشَرَ حَرَاحَاتٍ. وَهَكَذَا عَامَةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَفِيهِمْ بَرٌّ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿أَلَيْسَ آتَتْكُمْ لَهْ وَأَرْسُولٌ مِنْ رَبِّكُمْ مَا أَصَابَكُمْ الْقَرْحُ بِلُيُوثٍ أَضَلُّوا بِهِمْ﴾ (١) وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ لَطَلْحَةُ وَهُوَ بِأَهْلٍ لِلْمَجْرُوحِ «أَمَّا إِنْهُمْ يَا طَلْحَةُ لَنْ يَنَالُوا مِثْلًا مِثْلَ أَمْسٍ حَتَّى يَفْتَحَ إِلَهُ مَكَّةَ عَيْبًا»^(٢) وَقَدْ تَقَدَّمَ الرَّسُولُ ﷺ بِأَصْحَابِهِ وَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَكَّةَ يَقُولُ لَهُ «حَمْرَاءُ الْأَسَدِ» وَهُوَ عَمِي بَعْدَ ثَمَامَةِ أُمَيَّالٍ حَبَوِيٍّ الْعَدِيَّةِ وَكَانَ لُؤَاءُ الرَّسُولِ ﷺ فِي يَدِ عَنِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. وَأَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ بِأَنْ يَوْقِدُوا النَّيْرَانَ، فَكَانَتْ تَرَى مِنَ الْعَمَكِ

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٣٤

(٢) انظر رواية ابن إسحاق في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٣٤

(٣) المعاري، ج ١، ص ٢٣٤

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٦

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٠

(٦) المعاري، ج ١، ص ٢٣٧

البعيد بقول لصحابي الجليل حابر من عبد الله، وكان ممن شهد حمراء الأسد
 «ذهب ذكر معسكرنا وبيرائنا في كل وجه حتى كان مما كتبت الله تعالى به عدونا»^(١)
 ولم تحو قريش على مواجعة المسلمين في حمراء الأسد رغم عزمها بحروجهم،
 فأقام الرسول ﷺ والمسلمون بها ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى المدينة^(٢)
 ولم يسر الرسول ﷺ ما قاله أبو سفيان للمسلمين في نهاية معركة أحد «إن
 موعدكم بدر للعداء المقل»^(٣) ولم يسر أيضًا قوله لهذا التحدي عندما أمر عمر أبا
 بجيه «نعم هي بيسا وبينك موعد». فخرج الرسول ﷺ من المدينة ووصل بدرًا في
 مطلع ذي القعدة من العام الرابع للهجرة كما يروي الواقدي^(٤)، وكان عن رأس أبي
 وحسان من أصحابه، وكان يحمل لواءه علي بن أبي طالب وخرج أبو سفيان عن
 رأس ألفين من أهل مكة، فلما كان ببعض الطريق أجعل عن المواجعة بدر، به
 الرجوع، فقال لمن معه: «ارجعوا لا يصلحنا إلا عام حصص عداي»^(٥)، رعى فيه
 الشرح، وشرب فيه الخمر، وإن عامكم هذا عام جدب، وإن راجع ورجعوا»^(٦) فرجع
 ورجع الناس، مسامحهم أهل مكة جيش السويين وقالوا: إنهم «خرجوا يشربون
 السويين»^(٧) ولهد يطلق على هذه العروة أحيانًا عروة السويين (وهي غير العروة التي
 تحمل الاسم نفسه والتي كانت في السنة الثانية للهجرة) وتسمى هذه العروة أيضًا
 «بدر الأحر» أو «بدر الموعد» وقد أقام الرسول ﷺ بدر ثمانية أيام ثم رجع
 بأصحابه إلى المدينة بعد أن أكدت هزيمة المسلمين أمام قريش والعرب جميعًا^(٨)

غزوة الخندق - (ذو القعدة ٥هـ - مارس ٦٢٧)

كان عمر قريش عن مواجعة المسلمين في بدر الموعد مصدر شعور قوي لديها
 بالإحباط والرهبة في الانتقام من الرسول ﷺ وصحبه. وقد عر عن ذلك صفوان بن
 أمية في قوله لأبي سفيان بعد مكوسه عن بدر الموعد «قد والله نهيتك يومئذ أن تعد

(١) انظر ص ٣٨

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٣٥

(٣) المعاري، ج ١، ص ٣٨٧

(٤) عند أي واسع كثير الخبر

(٥) تلمذ من انفاصل ارجع إلى المعاري لواقدي ج ١، ص ٣٨٨-٣٨٩

القوم، وقد احرقوا عليا ورأوا أن قد أحلفناهم، وإنما حصلنا الضعف عنهم»^(١) ومن هذا أحد مشركو قريش يعدون العدة لتوجيه صربة قاصية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة، فاستجدوا من حولهم من العرب «وجمعوا الأموال العظم، وصربوا، لبعث على أهل مكة، فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتي بما قل أو كثر، فم يقل من أحد منهم أقل من أوقية لعروة الحمد»^(٢)

وقد انقلب ردة قريش مع ردة اليهود في الإطاحة بدولة المدينة والحق أن اليهود بدأوا يكشفون عن حقدهم على المسلمين منذ انتصار بدر كما أشهد قبل ذلك وقد كتب هزيمة المسلمين في «أحد» مصدر سعادة مألوفة لهم. وهذا ما عرعه أحد يهود المدينة بقوله «ليوم بطل السحر»^(٣) وقد اضطرب الرسول ﷺ لإحلاء يهود بني قينقاع وبني النضير عن المدينة في العام الثامن والرابع للهجرة على التوالي فكان ذلك مما أثار اليهود وألهب روح الانتقام في نفوسهم

هكذا وحشد قريش في اليهود حير نصير، ووجد اليهود في قريش مثل ذلك ومن ثم ذهب إلى مكة بعض أعيان بني النضير، وعلى رأسهم سلام بن أبي الحقيق، وخبي من أحطت وكدة من الربيع، وأكدوا لقريش أنهم سيكونون معهم حراً عن محمد حتى يسأصوه، وقد سمح اليهود لأنفسهم أن يباصروا الوثنية ضد دين يدعو إلى عبادة الله الواحد. فيروى أن قريشاً قال لهم عندما قدموا عليها بمكة «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحا مختلف فيه نحن ومحمد، أفدس حير أم دبه؟ قالوا. بل دينكم حير من دبه وأنتم أولى بالحق منه»^(٤) وقد برز فيهم قول الله ﷻ «أَلَمْ يَرِ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا كِتَابًا مِنَّا قَبْلَ هَذَا وَهُمْ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَهُمْ يَكْفُرُونَ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَكَ حُجَّةٌ بَلْ كَانُوا مُتَعَبِينَ كُفْرًا هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سُبْحَانَ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَكَ حُجَّةٌ بَلْ كَانُوا مُتَعَبِينَ ۚ» [النساء ٥١-٥٢]^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص ٣٨٩

(٢) المصدر نفسه، والمصدر نفسه

(٣) تاريخ طبري ج ٢ ص ٤٨

(٤) سيرة من عهده ج ٣ ص ٢٣٠

(٥) سورة بقره [٥٢-٥٣] والحق الأصنام وهي ما عدا من دوزن

وقد يحب قريش ورجالهم من المصير في إعراء عطفان بالانضمام إليهم، فحرجت عطف بطونهم وفيها القاتنان المشهوران عينة من حصن الغزاري والحارث بن عوف المري وقد جعل اليهود لعطفان تمر حير سنة على أن يعيبرهم عن حرب رسول الله ﷺ^(١) كما نصبت قبيلنا من أسد إلى هذا التحالف^(٢). وهكذا تكون جيش هائل للأحزاب وصل عدده إلى عشرة آلاف، كان من بينه أربعة آلاف ينتمون إلى قريش وأحبيشها وكان لقريش وحدها في هذا الجيش ثلاثمائة فارس وأربع وخمسمائة غير، ولعطفان ثلاثمائة فارس^(٣)، وكانت القيادة العامة لأبي سفيان^٤ فلو أصبح من صفاته هذا الجيش واستعداداته أن قريشاً وحدها أرادوا أن يسددوا صرة قاصمة لدولة الإسلام في المدينة وقد توجه بعض رجال حراة إلى النبي ﷺ بالمدينة ليحبروه بخروج قريش لحربه، فأعد جيشاً بلغ ثلاثة آلاف مقاتل، وتقدم ليتصدى لجيش الأحزاب، وقد استشار أصحابه، «وكان رسول الله ﷺ يكثر مشاورتهم في الحرب»^(٥)، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة، وقد له في ذلك «يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس ونحفر الخندق حولنا حنقنا عينا فهل لك يا رسول الله أن نحفر»^(٦) وبعد ﷺ اقترح سلمان الذي لقي استحساناً من المسلمين، «وذكروا حين دعاهم النبي ﷺ يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكره المسلمون الخروج وأحوا الثبات في المدينة»^(٧) وقد تكاتف المسلمون في حفر الخندق، وعمل معهم رسول الله ﷺ كواحد منهم فدأب فيه ودأبو^(٨)، وكان الرسول ﷺ ينقل التراب حتى اعبر بطنه، وهو يقول والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) البلاذري أسباب الأشراف، ج ١، ص ٣١٣، والقرطبي المعاري، ج ٢، ص ٤٤٣

(٢) المعاري، ج ٢، ص ٤٤٣

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٤٣ ٤٤٤

(٤) أسباب الأشراف، ج ١، ص ٣١٥

(٥) المعاري، ص ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٥٣

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٤٥

(٧) المصدر نفسه، والمصدر نفسه

(٨) سورة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٣١

فَانْزِلْهُ مَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِنَا^(١)

الْحَسْبُ وَنُفِثَ فِيهِ الْكُفُوفُ ﴿١٠﴾ هَٰذَا الَّذِي كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ۖ فَاِذَا لَقَيْتُمُ الْكُفَّارَ فَاِذَا لَقَيْتُمُ الْكُفَّارَ فَاِذَا لَقَيْتُمُ الْكُفَّارَ فَاِذَا لَقَيْتُمُ الْكُفَّارَ فَاِذَا لَقَيْتُمُ الْكُفَّارَ ﴿١١﴾ (الأحرار ١٠-١١)

وقف الأحرار أمام الخندق عاحرين عن اقتحامه، فحوصوا حصراً عن المدينة دم خمسة عشر يوماً أو بصفاً وعشرين ليلة طقاً لعص الروايات^(١). ولم يكن بين الفريقين حرب إلا الترافش بالملل والحجارة^(٢) ولكن بعض فرسان قريش حاولوا اقتحام الخندق من مكان صيق وسحقوا في ذلك، وهم عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن أبي جهل، ومسرور بن الخطاب بن مرداس، ونوفل بن عبد الله المحزومي، وهيرة بن أبي وهب. وقد تصدى علي بن أبي طالب لعمر بن عبد ود فقتله، ورفع نوفل بن عبد الله فمسه في الخندق، فرمى بالحجارة حتى قتل، واهرم الناقون إلى أصحابهم^(٣) وعندما طال الحصار على المسلمين دون أن تلوح أمامهم بوادر الهدنة أراد ﷺ أن يصلح عطفون على ثلث ثمار المدينة على أن يرفعوا الحصار ويصرفوا عن الأحرار، فرد بصرف عطفان تشب كلمة الأحرار ورجع من تلقى منهم أو استطاع المسموم هربهم عند المواجعة وقد استشار الرسول ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عباد في هذا الصلح، فكان ردهما عليه حائلاً بالأدب والحكمة حيث قال له في رسول الله، أمر تحية فصنعته، أم شيء أمرك الله ﷻ به لا يد لنا من عمل به، أم شيء نصنع له؟^(٤) فبدأ ﷺ «بل شيء أصنع لكم» والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم من قوس واحدة، وكأبؤكم من كل جانب فأردت أن أكره عكم شوكتهم لأمر ما ساعته. فقال له سعد بن معاذ «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله ﷻ وعادة الأوثان، ولا بعد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمة إلا قرى أو ييماً، أحمين أكرما الله بالإسلام وهذا له وأعره بد عطيتهم أموالاً؟ ما لنا بهذا من حاجة؟ والله لا نعطيهم إلا النيف حتى يحكم الله بين وبينهم»^(٥) ولا شك أن ما قاله سعد بن معاذ كان يعبر عن موقف الأنصار بصفة عامة، ولهد استجاب الرسول ﷺ لهذا الرأي وعدل عن اتجاهه لتصبح مع عطف

(١) داني معاري ج ٢ ص ٤٩٩، التلادي نسب الأشراف، ج ١ ص ٣٤٥، انظر أيضاً تاريخ

طبري، ج ٢، ص ٥٧٢

(٢) السعدي، ج ٢، ص ٤٦٤

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٧٠-٤٧١

(٤) تاريخ طبري، ج ٢، ص ٥٧٢، انظر أيضاً المعاري للوافدي، ج ٢، ص ٤٧٧-٤٧٩

وهكذا، لمح المسلمون حول رسول الله ﷺ ينتظرون ما سمر عنه حصار
الأحزاب. وقد تهيأت للمسلمين بعض الأسباب التي جعلت بانتها هذا الحصار
وعودة الأحزاب حائثين إلى ديارهم. فقد أسلم أحد رجال عطفان، واسمه نعيم بن
مسعود، وجاء إلى الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم
يعلموا. إسلامي، فعزى بما شئت. فقال له الرسول ﷺ: «إنما أنت قيا رجل واحد،
فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة». فذهب نعيم إلى بني قريظة وهم
لا يعلمون بإسلامه. فخوفهم نتائج تحالفهم مع قريش وعطفان وأحزبههم، حسد أن
تسحب قريش وعطفان من الميدان لو وحدوا أن ذلك أسلم لهم، وقد يحبو الميدان
أمام المسلمين ليستقمو من بني قريظة الذي لا دار لهم إلا المدينة. ولهذا حث نعيم
بني قريظة أن يظفروا من قريش وعطفان رهائن حتى يصموا أن القوم لن يحذروا عنهم
في الحرب ضد محمد. ثم ذهب نعيم إلى قريش فأحزبههم عن منع وثه لهم وكرهيته
للمسلمين، وذكر لهم أن يهود بني قريظة يندموا على تحالفهم مع قريش وعطفان،
وأهم. تصبو. محمد بعرض عليه أن يسلموه بعض أشرف هاتين القبيلتين ليصرف
أعدائهم ثم يكونوا معه على من بقى من عدوه. وحذر نعيم قريشاً من استجابه لسي
قريظة إذا طلست منهم رهائن. ثم ذهب نعيم إلى عطفان وقال لها ما فعله لقريش ثم
بدأت خدعة نعيم تؤتي ثمارها. فقد أرسلت قريش وعطفان إلى بني قريظة عكرمة بن
أبي جهل في نفر من القبيلتين للاتفاق على وضع خطة مشتركة للهجوم على
المسلمين، فطلب سو قريظة رهائن ليشقوا في جذبة القوم وأهم لن يركبهم وحدهم
في الميدان. فلما علمت قريش وعطفان بذلك قالوا: «والله إن الذي حدثكم نعيم بن
مسعود لحق». ثم أرسلوا إلى بني قريظة: «إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من
رجال دون كتم نريدون القتال فأحزبوا فقاتلوا». فقالت سو قريظة عدند: «إن الذي
ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق». ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة
«سهرهه»، وإن كان غير ذلك تشعروا إلى بلادهم وحبوا بكم وبين الرحل في
بلادكم». فأصر سو قريظة على موقفهم من عدم القتال إلا بعد أن يسموا الرهائن،
ورفض الأحزون ذلك. وهكذا تنازل الفريقان بفصل خدعة نعيم بن مسعود

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٧٨ ٥٧٩

ولا شك في أن الدور الذي قام به نعيم كان ذا أهمية بالغة بالنسبة إلى المسلمين حيث أراح عنهم خطر محققاً وهو هجوم بني قريظة من داخل المدينة عين صفوف المسلمين، فقد كان من شأن هذا الهجوم أن يصع المسلمين في موقف كاس موارحته مستكفهم تماماً يا هكلاً^(١)؛ ولهذا كان نعيم يقول: «أنا خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه، وأنا أمين رسول الله ﷺ على سره»^(٢)

وهذا عمل حذر عجل برفع الحصار وإحاطة محطط الأحرار بصفة نهائية فقد تعرض هؤلاء لوبع عاتية في ليلة شاتية قاسية البرودة، فكفأ قذورهم، وطرحت أسننتهم وأثرب لدعر والمقصود في معسكرهم فلم يجدوا أمامهم إلا أن شدوا رجالهم ويرتدو على أعقابهم^(٣) دون أن يحصوا من تحريضهم وعروهم إلا الدم والحصرة وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا بَيْنَهُ أَتَوْا عَنْكُمْ فِي بَاءَتِكُمْ حُورًا فَرَسًا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا ثُمَّ رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ يَوْمَ أُخَيْدٍ﴾ [الأحرار ١٩] وقوله ﴿وَرَبُّهُ لَذِي فَتْنٍ يَبْعُثُ لَهُمُ الشَّيَاطِينَ لِيُضِلُّوهُمْ بِالْبَيْنِينَ أَتَعْلَمُونَ﴾ [الأحرار ٢٥]. ومن هنا يبين أن للمسلمين سم بصطروا لحوص حربية حليمة حلال تلك العروة، ومع هذا صمدوا في مواجهة الحصار، واستشهد منهم ستة حلال بعض الماوشات المحدودة^(٤) وفي هذه العروة أصيب الصحابي لجليل سعد بن معاذ سيد الأوس سهم في ذراعه ثم مات بعد ذلك متأثراً بجراحه^(٥) وقد سميت هذه العروة بالأحرار لتحالف قريش مع اليهود وعطفوا ضد المسلمين، كما سميت بالخندق إشارة إلى الخندق الذي حفره المسلمون مشورة سلمان الفارسي

مثبت عروة لخندق آخر ملى وصلت إليه محاولات المكيب لتقصاء عن دولة الإسلام في المدينة، وقد تصورت قريش أنها ستكون النصر التي لن تقوم للإسلام بعدد قائمة، ولكنها انتهت إلى حيلة أمل بالنسبة إلى المكيب والأحرار لم تكن تحظر

(١) M. Watt, Muhammad. Prophet and Statesman, P 171

(٢) الواقدي المعري، ج ٢، ص ٤٨٤

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٨٠، سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٥١

(٤) الواقدي المعري، ج ٢، ص ٤٩٥، ٤٩٦

(٥) سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٤٣، ٢٤٤

لهم على بال، ولهذا قال ﷺ في نهاية هذه العروة «الآن نعروهم ولا يعروا»،
«فكان كذلك حتى فتح الله مكة»^(١) ولا شك أن انكسار قريش في عروة الخندق كان
يعني إنهاء ما لهم في هزيمة محمد ﷺ، ومن هنا بدأ الكثيرون منهم يراجعون
حساباتهم ويفكرون جدًّا في اعتناق الإسلام^(٢)

وقد كانت عروة الخندق في ذي القعدة سنة ٥هـ (مارس ٦٢٧م) حيث عسكر
رسول الله ﷺ بجيشه في الثامن من ذي القعدة، وانصرف تسع بقرب منه في السنة
المذكورة^(٣)

لم تكن تسهي عروة الخندق حتى أدن مؤذن رسول الله ﷺ في المسلمين أن
يوجهوا، من يودهم إلى بني قريظة الذين بكتوا أيماهم من بعد عهدهم ووجهوا إلى
المسلمين طعمة عددة في الظهر. على أننا سوف نتناول عزوة بني قريظة في سياق
حديث عن تطور العلاقة بين الرسول ﷺ ويهود المدينة

من الخندق إلى صلح الحديبية

كان الرسول ﷺ بعد الخندق حريصًا على تأكيد هبة المسلمين أمام القبائل العربية
المحيطة حتى لا تنجح الفرصة لتكرار ما حدث في عروة الخندق بانضمام تلك القبائل
إلى قريش. وقد كانت قبيلة بني لحيان (من هذيل) إحدى القبائل التي عزم الرسول ﷺ
على تأديبها في تلك الفترة لعندرها بالمسلمين قبل ذلك. هي صر سنة ٤هـ أرسل
الرسول ﷺ إليهم سعة من المسلمين ساء على طلبهم ليقيمهم في الدين، وكان
أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، ويقال أميرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأفتح^(٤)
فما وصل هؤلاء إلى ماء لهذيل بالحجاز يسمى «الرجيع» كشف بنو لحيان عما يسمونه
من عذر، فأردوا بأسروهم ليبيعوهم لقريش حتى يقتلوهم ثأرًا لعن قبل منهم في

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٩٣، الكامل لأبي الأثير، ج ٢، ص ١٨٤

(٢) M. Watt Muhammad Prophet and Statesman, P 171

واعبر أيضًا المعاري للواقدي، ج ٢، ص ٤٩١

(٣) الواقدي المعاري، ج ٢، ص ٤٤٠ ويذكر ابن هشام رواية عن ابن إسحاق أن هذه العروة كانت في شوال

سنة ٥هـ انظر سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٢٩

(٤) الواقدي المعاري، ج ١، ص ٣٥٤ ٣٥٥ وفي رواية أخرى للواقدي في شوال، انظر كتاب عشرة المعاري،

ج ١، ص ٣٥٥

بدر فعمد عرف المسلمون بحققة من لحيان قاتل أربعة منهم قبل المعتميت حتى استشهدوا، وعنى رأسهم مرثد بن أبي مرثد، وعاصم بن ثابت، واستأسر ثلاثة هم حبيب بن عدي، وزيد بن الذئبة، وعبد الله بن طاروق^(١) وقد سار سو لحيان بهذا لاء لأسرى إلى مكة، وفي الطريق قاتلهم عبد الله بن طاروق حتى سقط شهيداً^(٢) أما حبيب وزيد فدعوهما لفرش فقتلتهما شر قتلة^(٣). وفي غدربني لحيان يقول حسان بن ثابت إن سرّك الغدر صرّفاً لا مزاج له فأت الرجيع فسل عن دار لحيان^(٤)

وفي ربيع الأول سنة ٦٤ هـ طقاً لرواية الواقدي، أو جمادى الأولى من العام نفسه طقاً لرواية من إسحاق^(٥)، خرج رسول الله ﷺ إلى بني لحيان في سبي رجل من أصحابه ليبروهم ويشار لأصحاب الرجيع وهذه هي العروة التي تُعرف في مصدره بعروة بني لحيان وعندما سمع سو لحيان بمقدم الرسول ﷺ والمسلمين تمكنهم العرب فهربوا، وتمسكوا في رؤوس الجبال فأقام ﷺ يومين بأرضهم ثم ارتحل مع أصحابه حتى نزل عُسقان بالقرب من مكة، وقال في ذلك «إن هذا يبع قريشاً فيدعوهم ويخافون أن تكون نريدهم». ثم رجع الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة بعد أن عاب عنها أسبوعين^(٦)

وقد واحة لرسول ﷺ في تلك الفترة عارة همجة من عازاب الأعراب قدم بها عينة من حصص لعرري (من عطفان) على لقاح رسول الله ﷺ^(٧) بمكان يقال له «العادة»

(١) الواقدي الحميري، ج ١، ص ٣٥٧، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٢٩

(٢) الحميري، ج ١، ص ٣٥٧، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٢٩

(٣) عند قُتِبَ عرش حُتَ، عَمِلَ طَبْ سَهْدَ أَنْ يَهْلُوهُ لِحَالِي رَكْبِي، فَلَمَّا صَلَّاهَا قَالَ لَوْلَا أَنْ تَقُولُوا خَرَجَ رَوْدَ فَمَكَ، أَوْ مِنْ سِ رُكْبِي عِنْدَ لَحِيٍّ ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُمْ أَحْصَاهُمْ عَدَدُ وَفَتَاهُمْ دَعْدُ وَلَا تَدْرُسُهُمْ أَحَدٌ وَأَشَدُّ

وَلَسْتُ بِمَالِي حَسِبَ أَقْتَلُ مَلَكًا عَمِلَ أَيُّ شَقِّ كَانَ فِي لَحِيٍّ مَصْرَعِي وَتَلَسَّكَ فِي فَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يَسَارِكُ عَمِلَ أَوْصَالِ خَلِيقِ مَصْرَعِ

نظر أحمد بن لار الأثر، ج ٢، ص ١٦٨، والثغاية والنهاية لأبي كثير، ج ٤، ص ٦٥

(٤) سيرة أبي هشام، ج ٣، ص ١٧٦

(٥) الحميري، ج ٢، ص ٥٣٥، وسيرة أبي هشام، ج ٣، ص ٢٢١

(٦) الحميري، ج ٢، ص ٥٣٦، ورواد المعاد لأبي القاسم، ج ٢، ص ١١٩

(٧) النعاج، دوات اللو من الإبل

بالقرب من المدينة على طريق الشام وقد استولى عيينة ومعه أربعون فارساً على
اللقاح وهربوا بها، وذلك في ربيع الثاني سنة ٦هـ، فلما علم الرسول ﷺ بذلك سر
في أثرهم في حسمانة من أصحابه، وانتهى بهم المسير إلى مكان يقال له «دو قرده»
بين المدينة وحير، واستطاع المسلمون خلال ذلك أن يستردوا بعض اللقاح التي
استولى عليها عيينة ورجاله وأن يقتلوا منهم أربعة، واستشهد من المسلمين واحد هو
مُخَرَّر بن بضمه وقد تولى سعد بن عبادته في ثلاثمائة من قومه حراسة المدينة خلال
العدة التي قصدها الرسول ﷺ بعيداً عنها وهي خمس ليالٍ^(١) وتُعرف هذه العروة في
مصادرنا بعروة «لعانة» أو عروة «دي قرده»^(٢) ولا شك أن أساءها تراثت إلى قرش
دردادت لديهم هيئة المسلمين.

ومن بين لقائل التي اضطرب الرسول ﷺ لمواجهتها بعد الحندق وقس الحديبية قبيلة
بنو المصطلق من حراقة فقد بلغ الرسول ﷺ أن بني المصطلق يجتمعون له وينهبون
لحرره برعاية قذهم الحارث بن أبي صرار فخرج الرسول ﷺ إليهم في شعبان ٦هـ
طغاً لرواية بن إسحاق^(٣)، وأسرع الناس للخروج معه، وكان الجيش الإسلامي يضم
ثلاثين درت وقد لقي الرسول ﷺ عدوه بالمريسيع، وهو ماء من مياه بني
المصطلق، فقتل الناس اقتتالا شديداً، وانتهت المعركة بهزيمة بني المصطلق، وأداء
إليه على المسلمين أموالهم وأسأءهم وسأءهم وكان بين النسي الكثير الذي أصابه
المسموم في تلك العروة حويرية بنت الحارث بن أبي صرار سيد بني المصطلق،
وهي التي تروى أنها رسول الله ﷺ وأصبح إحدى أمهات المؤمنين^(٤) وتعرف هذه
العروة في مصادرنا بعروة المريسيع أو عروة بني المصطلق وقد ارتبط بها الحديث
«الإفث» الذي دار حول الافتراء على السيدة عائشة واتهامها بالفاحشة ثم برأها الله

(١) حريز بن سعيد رجع إلى الحميري ثوابدي ج ٢، ص ٥٣٧ ٥٤٩، ودار السامي ج ٢ ص ٢٦٧.

ص ٥٩٦ ٦٠٤

(٢) ياقوتة معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠١ وص ٢٦٥

(٣) سيره ج ٣ ص ٣٣٣ ويروي الواقدي أن هذه العروة حدثت في شعبان سنة ٥هـ الحميري ج ١،

ص ٤٠٤ وانظر أيضاً أسباب الأشراف للنادري ج ١، ص ٣٤١

(٤) حميد بن الحسن ج ٢ ص ٦٠٤ وص ٦٠٥، وحميد بن عمار ج ٢ ص ٦٠٤

ج ١، ص ٤٠٤ وما ينظر

ثم حرح في مستهل ذي القعدة سنة ٦هـ متوجهاً نحو مكة معتمراً لا يريد حراً، وكان قد رأى في المنام أنه «دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت وعرف مع المعرفين»^(١) وقد ساق رسول الله ﷺ معه الهدي وأحرم بالعمرة لأسر قريش من حربه ولنعلم أنه بعد حرح راثراً للبيوت الحرام ومعظماً له^(٢) وأحرم عامة المسلمين بوحرم النبي ﷺ، وركب النبي ﷺ ناقته «القصواء» وسار معه إلى مكة ألف وحمسة مئة من أصحابه تقريباً^(٣)

وعندما سمعت قريش بمسير الرسول ﷺ ومن معه إلى مكة خرجت بالعلّة والعدد لتصد المسلمين عن البيت الحرام، واستترت من أطاعها من الأحباش، وأجست ثقيب معهم وقنعو خالد بن الوليد في الخيل^(٤) واستمر الرسول ﷺ في مسيره حتى انتهى إلى مكان يقال له «الحديبية» بعد بضعة أميال من مكة، فزل به هو والمسلمون

وفي الحديبية جاء إلى الرسول ﷺ ثديل بين ورقاء الحراعي وقد كانت حراة «عينة» صحب رسول الله ﷺ منهامة أي موضع الأمانة عن سره وقد ذكر بدل لرسول ﷺ أنه جاءه من عبد قريش وأبهم قد خرجوا في الجيش الكثيف وهم «بشمون بالله لا يحلون بيك وبين البيت حتى تبيد حصارهم»^(٥) وهذا أكد الرسول ﷺ لدبل أن المسلمين ما جاءوا لقتال وإنما جاءوا لزيارة البيت، فمن صلهم عن البيت فأنوه، ثم أبدى استعدادهم أن يعقد هدنة مع قريش بأموال حلانها ويتركوا الرسول ﷺ يتفرع لدعوة الناس إلى الإسلام دون أن يحاولوا بيته وبين ذلك فإن انتصرت دعوة الإسلام وأردت قريش الدحول فيها كان لهم ذلك، وإلا فقد جئوا أي حصوا على مرة من الراحة واستجماع القوة أما إذا أنت قريش إلا العاد فيقاتلهم الرسول ﷺ على دين له حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وقد ذهب بدبل إلى قريش بهذه

(١) دودي حمادي ج ٢ ص ٥٧٢، وعرف مع المعرفين أي وقف على عرفه مع نوهير

(٢) سره من هده ج ٣ ص ٣٥٦

(٣) تختلف مصادر حرح عدد الذين الذي صحب الرسول ﷺ إلى مكة فقد أبهم كسر ألف وثلاثمائة أو ألب وأبهمه أو ألب وحمسة مئة أو ألباً وسبعمائة وقد غير ذلك بعض حرح ذلك صحب سبعم شرح

سوري ج ١٣ ص ٢ وأبهمي لبواهدي ج ٢ ص ٥٧٤. ورا دأبهم دأبهم نسيم ج ٢ ص ١٢٢ ١٢٣

(٤) دودي حمادي ج ٢ ص ٥٧٩

(٥) حصار هبة ص ٥٩٣

وكانت سفارة عثمان تدور حول نقطة أساسية وهي إقناع قريش بأن الرسول ﷺ «م باب لحرب، وإنما جاء رائراً لهذا البيت معظماً لحرمته»^(١)

لم تسحب قريش لسفارة عثمان، وكان كل ما عرضته عليه أن يطوف هو «ليت إن أراد، فقد عثمان» ما كب لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ «وحسبته قريش عده وأشيع بين المسلمين أنها قد قتله» فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال «لا سرح حتى سحر لقوم» ودعا المسلمين إلى بيعته على الشاة وعدم الفرار في وجه قريش، وقيل بل كب ببيعة على الموت^(٢) وقد بايعه المسلمون تحت شجرة هذلك بقابل لها «سفرة» فهي بيعة الرضوان التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿لَعَدَ رَبِّي أَنَّهُ غِي لُقُوبِيكَ إِذْ يُبْشِرُكَ نَحْتُ تَشْحَرُ فَعِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَرَدَ أَلْكَ كِبَةَ عَنْهُمْ وَانْتَهَمُ نَحْتُ قَرِيْبُ﴾ [التغ: ١٨]. وبعد هذه البيعة رجع عثمان إلى المسلمين وهكذا انتصح أن ما أشيع من أمر قتله باطل^(٣).

ثم بعث قريش إلى رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو (سيد بني عامر بن لؤي) وقالوا له «أنت محمدًا فصالحه» ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا؛ فوالله لا تحدث للعرب أنه دخل علينا عوة أنداء»^(٤) وتكلم سهيل مع الرسول ﷺ فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح الذي عرف باسم «صلح الحديبية» وتمثلت سوده فيما يأتي.

١ أن تتوقف الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين

٢ من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش وعقده فعل

١ شعب الله قريش وعرفت جمعه وأرادت منه فصحة الأحاسن؛ ثم أراد ربنا عمر فاعده ما نكته له قريش من كرمه، وصرح عنه أن يرسى عثمان أرفع إلى المعاري، ج ٢ ص ١٦٠، والتي ترجمه حرث بن أنه في أحد أصابع لابس الأثير، ج ٢ ص ١٢٥ ١٢٦

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٣٩

(٢) الواقدي المعاري، ج ٢، ص ٦٠٣

(٣) سيرت من استحصل أرفع إلى سيرة ابن هشام، ج ٢ ص ٢٠٣ ٢٠٤

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٣٣

٣ من جاء إلى محمد من قريش يعير إبن ولية رده إليه، ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد لم ترده

٤ يرجع المسلمون عن مكة عامهم هذا ويدخلونها في العام القادم عن أن يقيموا بها ثلاثة أيام بعد أن تخرج قريش منها وعلى ألا يحمل المسلمون من السلاح إلا السيوف في القرب^(١)

وكان الذي كتب كتاب الصلح هو علي بن أبي طالب، وعندما طلب منه الرسول ﷺ أن يبدأ الكتاب بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» اعترض سهيل عن ذلك وقد لا أعرف لرحمن كتب كما يكتب باسمك اللهم فأجبه الرسول ﷺ إلى ذلك، ثم طلب من علي أن يكتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو» وهذا قد سهيل «لو شهدت أنك رسول الله لم أقانئك ولكن كتب اسمك واسم أبيك» موافقه الرسول ﷺ أيضًا على ذلك^(٢)

لقد كان هذا الصلح بالشكل الذي تم به والسود التي تضمنها مثير نقاش حاد بين المسلمين واعتراض من بعضهم فلقد تضمن هذا الصلح كما رأيت سبًا بقصي بأب يرد رسول الله ﷺ إلى قريش من جاء مسلماً يعير إبن ولية، وألا تفعل قريش ذلك، كما تضمن أيضًا عدم دخول المسلمين مكة ذلك العام بعد أن كانوا عن بعد أميال منها ثم إن سهيلًا عالي في تشدده حينما طلب من الرسول ﷺ أن يمحوا عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» فصاح المسلمون من ذلك وقالوا «هو الرحمن» وقلنا لعلي «لا تكتب إلا لرحمن» مما جعل سهيلًا يهتد بالأسلحة من الصبح وقد تشدد سهيل أيضًا حينما طلب من الرسول ﷺ أن يمحوا عبارة «رسول الله» وقد صبح المسلمون من موقعه ذلك «صحة هي أشد من الأولى حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون «لا تكتب إلا محمد رسول الله» بل يروى أن أسيد بن حصير وسعد بن عباد أسكنا بيد «علي» وقالوا لا تكتب إلا محمد رسول الله، ولا فاسيف يسا» علام يعطى هذه الدية هي ديسا» فجعل رسول الله ﷺ يحققهم ويومئ بيده إليهم اسكتوا^(٣) ويروى في هذا السياق أن عمر بن الخطاب

(١) الترمذي المعاري، ج ٢، ص ١١١ ١١٢، وسيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٦٦ ٣٦٧

(٢) الترمذي المعاري، ج ٢، ص ١١١ ١١٢، والبخاري بركة في صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٥٣ ٢٥٨

(٣) الترمذي المعاري، ج ٢، ص ١١١ ١١٢

ذهب إلى الرسول ﷺ معترضاً على سود الصلح وقال له يا رسول الله، أليس بالمسلمين؟ قال. بلى! قال. فعلام تعطى الدنيا في دية؟ فقال الرسول ﷺ. أنا عبد الله ورسوله ولن أحالف أمره ولن يصيغني ثم ذهب إلى أبي بكر فقال له مثل ذلك، فقال أبو بكر. «الرم عزّره»^(١) فبني أشهد أنه رسول الله وأن الحق ما أمر به، ولن يحالف أمر الله ولن يصيغه الله. وقد أكثر عمر مراجعة الرسول ﷺ في ذلك حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح «ألا تسمع يا ابن الخطايا رسول الله ﷺ يقول ما يقول؟ تعوذ بالله من الشيطان وإتّهم رأيك»^(٢)

ومع كلّ هذه الاعتراضات فقد كان الرسول ﷺ على يقين تامّ بما اشتمل عليه هذا الصلح من عناصر إيجابية هي بكل تأكيد في صالح المسلمين والدعوة الإسلامية ولا شك أنّ أول وأهم هذه العناصر الإيجابية أو العبر التي يمثل في فترة الهدنة التي أُنِمن فيها الناس وكفّ بعضهم عن بعض، فشطت دعوة الإسلام حين بعثت بذلك الصلح، لأنّ وصفت إلى صفوفها أعداء ما كانت تنظر بعينها في محيط الحرب والصراع وقد اعترف عمر نفسه بذلك في قوله «لما وقعت القضية [أي صلح الحديبية] أسسم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية»^(٣) كما عرّ أبو بكر عن هذا الرأي في قوله «ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون، والله تارك وتعالى لا يعمل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله»^(٤) وقد شرح الواقدي هذه الميزة من صلح الحديبية بقوله «كأن الحرب قد حجرت بين الناس وانقطع الكلام، وإنما كان لقل حيث التقوا فلما كانت الهدنة وصفت الحرب أوارها وأمن الناس بعضهم بعضاً، فلم يكر أحد بكلمة بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل في الإسلام، حتى دخل في تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرّب عمرو بن العاص، وحذاف بن الوليد، وأشباه لهم، وإنما كانت الهدنة حتى نقصوا العهد اثني

(١) أي «رم أمره» وحرّح برّحق بترّكه الركاب للشرح

(٢) الواقدي المعري، ج ٢، ص ٦٠٦

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٠٧

(٤) المصدر نفسه، ص ٦١٠

وعشرين شهراً دخل فيها مثل ما دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر، وقت الإسلام في كل ناحية من نواحي العرب^(١) ودليل هذا القول أن الرسول ﷺ حرج إلى الحديبية في حدود ألف وخمسمائة من أصحابه، ثم حرج عام فتح مكة، بعد ذلك بأقل من سنين، في عشرة آلاف^(٢)، ولهذا وصف القرآن الكريم صلح الحديبية بأنه فتح مبين في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَقَدْ فَتَحْنَا لَكُمُ الْبَيْتَ﴾ [الفتح ١]

وكان بين لميرات الأحرى لصلح الحديبية أن قريشاً اعترفت لأول مرة بالرسول ﷺ على أنه نذاه وظيها من خلال المفاوضات التي أجرتها معه ولم تكن قبل ذلك تنظر إليه إلا على أنه ثائر خارج على الشرعية ولا شك أن اعترافها هذا بالرسول ﷺ كان أساساً لاعتراعها بالدولة الإسلامية التي أقامها بالعدسة، وبصاف إلى ذلك ما تضمنه صلح الحديبية من اعتراف قريش بأن الإسلام دين له كيدته وتأثيره في شبه الجزيرة العربية، وذلك من خلال إقرارها للمسلمين بحج رداء الكعبة وإقامة الشعائر هناك، ثم اعترافها أيضاً بأن مكة والحديبية أصبحتا مساويين^(٣)

أما ما رواه فريق من المسلمين في بعض شروط صلح الحديبية من إجماعهم بعدم بكن قائماً على أساس صحيح وقد تبين للجميع بعد ذلك كما رأينا شطط هذا الرأي، فمع بشل عدم رد قريش إلى رسول الله ﷺ من جاءها من المسلمين مرتد، أي حظورة على عقيدة المسلمين أو كيانهم ومن هنا انطوى هذا البلد كما يقول موشحومري وب على «تأزل لشاعر الحكيم لم يكنف المسلمين شيئاً كثيراً» وإن حقيقة كون هذا البلد من حاسب واحد لخير شاهد على اعتقاد محمد بما سمع به الإسلام من حاذية فائقة^(٤)

ولا شك أن عدد من كان يمكن أن يرتد عن الإسلام لم يكن يعش إلا سنة ضئيلة جداً يمكن إسقاطها من الحساب ثم إن من يرتد من المسلمين عن دمه يفقد كل ميراث انتمائه للمجتمع الإسلامي ولن يغفر المسلمون كثيراً إذا لم يسردوه، ولهذا

(١) حيدر بك من ٦٢٤ وقد نزل ابن السمان قولاً شبيهاً بهذا عن زكري بن عطاء بن هشام، ج ٣، ص ٣٧٢، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٣٨

(٢) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٧٢

(٣) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ص ٢٢٧

(٤) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P. 185

قد لا يصححه تعليقاً على ذلك «من أناهم ما فاعله الله» ومن أن من مهم فرددوا إليهم جعل الله له فرحاً ومفرحاً»^(١) أمّا إصرار سهيل بن عمرو على عدم كنية «اسم الله الرحمن الرحيم» في وثيقة الصلح أو على عدم وصف محمد ﷺ بأنه «رسول الله» فإن ذلك لا يسعي أن يكون له أدنى اعتبار عند المسلمين لأن الله هو الرحمن الرحيم، ولأن محمد ﷺ هو رسول الله وإن رعمت أنوف المشركين من كلّ هد بشي أن صلح الحديبية كان نقطة تحول فاصدة في تاريخ الدعوة الإسلامية، وقد بدأت بعده دولة المدينة تأخذ طابعاً جديداً

(١) د. محمد لاوي، ص ٢٠٢ من ١٢٧ وقد تضمن ما قاله الرسول ﷺ فقد جاء أبو جندب بن سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ وسأله الرسول ﷺ عن ما فعل في الحديبية، فسمعه إلى أنه سهيل وقد لأبي جندب أن جندب حبيب وحبيب ذلك أنه جاعل لك وليس معك فرح ومفرحاً ثم لما جاءه الرسول ﷺ بعثه من الحديبية أنه أبو بصير سبخت (وأبو بصير هو عم من أسد حذاف من رهرة، فكذب أبو هريرة إلى رسول الله ﷺ كذبة يظنون أنه قد رأى أبي بصير العهد كما يهوى صلح الحديبية جعل الرسول ﷺ ذلك لأبي بصير فيما أيا بصير، إذا قد أعطيت هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لك في بيت المنبر، وإن الله جاعل لك وليس معك من المسلمين فرحاً ومفرحاً، ثم استأج أبو بصير أبو بصير من قريش وأن يكون عهده من حنينين من هدي من طروقه واتخذ أبو بصير وعصاته مركزاً لهم على ساحل البحر في هجرين الذي تسمى به قريش إلى شداء وأقصوا مصبح قريش وهددوا تجارتها، فالتصفت قريش بالرسول ﷺ وسأوه بأرحامهم أليس الله أبو بصير وعصاته فلا حاجة لقريش به»^(١) نظر شعبي نانو دي، ج ٢، ص ٦٠٧-٦٠٨، ٦٢٤، ٦٢٩

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل الثامن

تطور العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (٦١-٦٢هـ)

سبق أن ذكرنا أن الرسول ﷺ عند قدومه إلى المدينة كتب صحيفة نظم فيها العلاقات بين المسلمين وغيرهم في مجتمع المدينة. وقد كملت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة وأعطتهم على أنفسهم وأموالهم وأعطتهم حق الموطنة الكاملة في الدولة الإسلامية. وقد أراد الرسول ﷺ بذلك أن يرسى علاقات من الثقة ولورد ولتقدم به وس حيراه من أهل الكتاب، وهم يهود بني قينقاع وبني نضير وبني قريظة. ولكن لم يقدر لهذه العلاقات أن تسير بالصورة التي أرادها رسول الله ﷺ، فبعد وقت قصير من إنشاء دولة الإسلام بالمدينة بدأ اليهود يكشفون عن حقدهم وتأمرهم على المسلمين، وظهر ذلك في عبر موقف، فعاندهم لرسول الله ﷺ ما يستحقونه في كل موقف.

وقد ظهر من اليهود التندد بالإسلام عندما حول الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في رجب أو شعبان من السنة الثانية من الهجرة^(١) وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله ﴿سَبِّحُوا لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاسْمِعُوا لَهَا قَوْلًا مَلْفُوفًا وَأَتْلُوا مِنْهَا حَتَّى تَسْمِعُوا لَهَا قَوْلًا مَلْفُوفًا وَأَتْلُوا مِنْهَا حَتَّى تَسْمِعُوا لَهَا قَوْلًا مَلْفُوفًا﴾ [الفرقة ١١٢]. وعندما أصبح المسلمون في بدر بعد ذلك بقليل لم يكتف اليهود بحددهم، وخاصة يهود بني قينقاع الذين كانوا «أول يهود نقصوا ما يسهم وس رسول الله ﷺ وحادروا فيما بين بدر وأحد» كما يروي

(١) ابن كثير: إنباءه والهدية، ج ٣، ص ٢٥١، وما ملأنا

المؤرخون^(١) وقد أخذوا يهددون المسلمين بالحرب تهديدًا ماضيًا بعد انتصار بدر ويروى في هذا السياق أنَّ الرسول ﷺ عندما عرض عليهم الإسلام بعد عروة بدر قالوا له «يا محمد، بك ترى! أنا كقومك! لا يعرفك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم قرصة! إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس!»^(٢) وما كشفوا به عن سوء طويتهم ما ترويه بعض مصادرنا من أنَّ امرأة مسلمة جاءت إلى سوق بني قينقاع وحسب إلى صانع يهودي هناك في خَلِيٍّ لها، فجاء رجل من يهود بني قينقاع فحسب حديقها وهي لا تشعر، ثم عقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فدعا فمب انكشفت سوانتها فصحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله، فشددت سوء قينقاع على لئسهم قتلوه، وسدوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ وتحصنوا في حصونهم واستعدوا للقتال^(٣)

ومهم يكن من أمر دين الذي لا مجال للشك فيه أنَّ يهود بني قينقاع طهروا منهم بؤادر تكشف عن حقد ومكر وترص بالمسلمين ولهذا يروى أنه عندما برز قومه تعالى ﴿زَيْدٌ نَحْمَدُكَ مِنْ قَوْمٍ جَبَّارَةٍ قَائِدَةٍ وَإِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ أَفَعَلْنَا لَا يَجُوبُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعداء ٥٨] ذَلِ ﷻ «إني أخاف من بني قينقاع» ثم سار إليهم بهذه الآية^١

وقد حاصر الرسول ﷺ بني قينقاع خمس عشرة ليلة (من منتصف شوال إلى هلال ذي القعدة من السنة الثانية للهجرة = مارس/ أبريل ٦٢٤م)^(٤)، ثم برأوا عن حكمة، فأمر بإحلالهم من المدينة فتوجهوا إلى أذرعات بالشام، وعسم المسموم ما كان لهم من مـ وسلاح، ولم تكن لهم أرض يملكونها فقد كانوا صاعة وكـ الذي تولى إخراجهم من المدينة بدرارهم عاقبة من الصامت^(٥)

١) سره ابن هشام، ج ٢، ص ٤٢٧ وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٧٩

(٢) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٧٩

(٣) راجع على سبيل المثال المعاري للواقدي، ج ١، ص ١٧٦ ١٧٧ وعود أبو يحيى لاس ذكر لكسي ج ١، ص ١٤١ ١٤٢

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٨٠ والمعاري للواقدي، ج ١، ص ١٨٠

(٥) المعاري، ج ١، ص ١٧٦

(٦) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٨١

ثم حذا أبو الضيف حذو إخوانهم من بني قبيص في إظهار مكرهم للمسلمين وترهيبهم بهم فواجهوا المصير نفسه ويجدر بنا هنا أن نشير باختصار إلى لمقدمات التي سبقت إحصاء رسول الله ﷺ لدى المصير من المدينة حتى صغر من السنة الرابعة للهجرة أرسل النبي ﷺ سبعين رجلاً من المسلمين^(١) إلى أهل نجد لدعوتهم إلى الإسلام، وكان ذلك بناء على اقتراح من سيد قبيلة بني عامر بن صعصعة، وهو أبو براء عامر بن مالك الذي يقال له «ملاعب الأسنة» وقد تعهد عمر هذا أن يحير المسلمين... ولكن رجلاً من غداة المشركين في تلك المنطقة، وهو عامر بن الطفيل، لم يبدأ بجوار الذي تعهد به عامر بن مالك، فقتل الرسول الذي أرسله إليه هؤلاء المسمون لدعوة واسمه حرام بن ملحان، وكان معه كتاب رسول الله ﷺ بدعوة فيه إلى الإسلام. ولم يكف عامر بن الطفيل بذلك بل حاول أن يحرص قبيلة بني عامر على الفتك بدعاة المسلمين فحرص بنو عامر وقالوا: «لن نحضر أبداً» قد عقد لهم عقداً وجواراً^(٢) فحرص عليهم بعض قبائل بني سليم فأسجماوا له ووثنوا على هؤلاء الدعوة فقتلوه حتى قتلوا عن آخرهم إلا واحداً سماه ربيعة، وقد قبل هؤلاء في مكان يقال له «شر معونة». وقد اتفق أن وجد اثنين من المسلمين بالقرب من مكان هذه المحرقة وهما عمرو بن أمية الضمري (الكاسي) والمندر بن محمد بن عفة الأنصاري، ولم يعلموا بما حدث إلا عن طريق الطريق التي كانت تحوم عن مكان المحرقة. أما المندر بن محمد فقد قاتل القوم حتى قتل، وأما عمرو بن أمية فقد أسره عامر بن الطفيل ثم أطلق سراحه عندما علم أنه من مصر. وفي طريق عمرو بن أمية إلى المدينة ليحير الرسول ﷺ بما حدث لقي رجولين من بني عامر كان معهما عقد وجوار من الرسول ﷺ لم يعلم به عمرو، فعنا عليهما عمرو فقتلتهما وهو يظن أنه أدرك يقتلهما ثأراً لأصحابه شهداء شر معونة^(٣) وعندما قدم عمرو على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر قال له «لقد قتل قبيلتين لأديبتهما»^(٤)، أي لأدعس دينهما. ثم لم يستطع عامر بن الطفيل أن أرسل إلى الرسول ﷺ يطلب منه دية هذين القتيين.

(١) وعمل كانوا أربعين اظهر التكمال لاس الاثير، ج٢، ص ١٧١، وسيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٨٥

(٢) . جمع معصي في تاريخ الطبري ج٢ ص ٥٤٥ وما بعدها. وسيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٨٤ وما بعدها

(٣) سيرة ابن هشام، ج٣، ص ١٨٦

ورغم ما فعله عامر بالمسلمين في ثمر معونة فلم يكن من حلف رسول الله ﷺ ولا المسلمين لعذر وقصر اليهود، ولهذا تكمل الرسول ﷺ بدفع دية القيسيين حتى قبل أن يتصل به عامر من الطفيل بهذا الشأن كما أشرا الآن وقد لجأ الرسول ﷺ إلى يهود بني النضير بطلب منهم العون في هذه الدية، وذلك بحكم ما تم بين المسلمين ويهود المدينة من تفاق قام على أساس التعاون والتضامن بينهم، وعنى أن اليهود «يقفون مع المؤمنين ما داموا محاربين»^(١) ورغم أن يهود بني النضير وعدوا الرسول ﷺ بأن يعينوه فيهم تملوا عليه ليقتلوه وهو لم يرح بعدد درهم فيروي المؤرخون أن لرسول ﷺ لما ذهب إليهم يستعينهم في دية القيسيين «قلوا نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحسنت مما استعنت بنا عليه» ثم حلا بعضهم إلى بعض فقلوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه «ورسول الله ﷺ إلى حب حذر من بيوتهم قاعد فقالوا من رحل يعلو على هذا البيت فيبقى عليه صحرة فيقنه بها فيريح منه؟ فندب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم فقال أن لدلته»^(٢) وقد أدرك الرسول ﷺ ما يجري حوله، وذلك من حلال ما لاحظته من تصرفات مريبة لليهود بني النضير في أثناء لقائهم، ومما أكد الرؤية في نفسه ما كان يسمعه عنهم من «تدابر به وحقد عليه، وقد قوى الله ببقية بني بيت اليهود من عذر»^(٣) وللدلته «سحب من ديارهم، ثم أرسل إلى محمد بن مسلمة من الأوس فقال له: «ذهب إلى يهود بني النضير فقتل لهم أحرخوا من بلاد بني نساكوبى وقد هممهم بما هممهم به من العدة»^(٤) ولكن بني النضير رفضوا الاستجابة لذلك وأبوا إلا الحرب شجيع من عبد الله بن أبي سؤلون وقد قاد بني النضير في تحديدهم لرسول ﷺ رعيهم شبي من أحطب»^(٥) وهو لم يجد الرسول ﷺ بدا من المصير إليهم، فحاصروهم خمسة عشر يوماً^(٦)

(١) انظر من ١٢٠ فما سبق

(٢) سرد بن هشام ج ٣، ص ١٩١، تاريخ الطبري ج ٢، ص ٥٥١، والتكملة لأثر الأخير ج ٢، ص ١٧٣

(٣) د محمد حسن هكل حقا محمد، ص ٣١٩ ٣٢٠

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٥٢

(٥) الواقدي المعاصري، ج ١، ص ٣٦٨ ٣٦٩

(٦) تاريخ طبري ج ٢، ص ٥٥٣ والمعاصري ج ١، ص ٣٧٤، ويدكر من هشام ج ٢، ص ١٩٢ أن لرسول

حاصروهم ستين

حتى صلحوه على أن يجلبهم ويحقن لهم دماءهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحنفية (أي السلاح)^(١)، وولى إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة^(٢) منهم من سار إلى حبير، ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام. وكان من بين من سار إلى حبير من أشرفهم سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وخبيّ بن أحطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها^(٣). وكان حصار الرسول ﷺ لسيّ الصير في شهر ربيع الأول سنة ٤هـ (أغسطس ٦٢٥م) وفي حصار سيّ الصير وحلّانهم برئت سورة الحشر بأكملها، وهي السورة التي يروى أن ابن عباس كان يسميها سورة سيّ الصير^(٤)

أما مو قريظة فقد أشرنا إشارة سريعة عند حديثنا عن عروة الحدي (أو الأحرار) إلى سبب انبعاث التحالف بينهم وبين المسلمين وذلك أنهم تقصوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ بانضمامهم إلى الأحرار من قريش ويهود سيّ الصير وعطفون وغيرهم في حربهم للمسلمين بالمدينة. يروي ابن إسحاق أن حبيّ بن أحطب المضري أتى كعب بن أسد زعيم بني قريظة الذي كان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقبه على ذلك، فمارال به بحرصه على نقض التحالف بينه وبين رسول الله ﷺ حتى استجاب له كعب بعد أن أعطاه حبيّ بن أحطب عهداً وميثقاً أن يدخل معه في حصه ليصيه ما قد يصيب سيّ قريظة لو أن قريشاً وعطفاً وغيرهم من الأحرار رجعوا، دون أن يصيبوا محمداً، فنقص كعب بن أسد عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ^(٥)

وأصبح موقف المسلمين وهم محاصرون في المدينة في غاية الحرج فنقص سيّ قريظة عهدهم مع الرسول ﷺ، فقد أصبح عدوهم يحيط بهم من كل جانب، في داخل المدينة وحارحها، وجاء هذا العذر في لحظة فاصلة بالسنة إلى المسلمين وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ وَهُمْ أَنْتُمْ بَكُمْ وَبِذِ

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٥٤

(٢) المعاري، ج ١، ص ٣٧٤

(٣) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٥٤

(٤) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٤، ص ٧٦

(٥) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٣٦-٢٣٧

رَأَيْتَ الْأَنْصَرُ وَنَعَبَ الْمُكُوفَ الْحَسَكَ وَنَطَّقُوا بِاللَّهِ الْكُوفَ ۖ هَٰذَا كُنِيَ حَقُّهُ
وَرَزَلُوا بِرَّ لَا شَيْءَ ۝ (الأحزاب ١٠، ١١)

وسارت عروة لأحزاب بالصورة التي عرصاها قبل ذلك، ورذ الله الذين كفروا، يعيظهم لم يأنوا حيرا، وكفى الله المؤمنين القتال. وبعد انسحاب الأحزاب كان على الرسول ﷺ وللمسلمين أن يتعاملوا مع هذا العدو الداخلي بما يستحق، ذلك لأن ما قام به هو قريظة كان يمثل دوة العذر والخيانة، ولعل هذا يتضح مما قاله سعد بن معاذ لسعد بن عباد حين حاول الأخير أن يذكر سي قريظة للعهد بينهم وبين رسول الله ﷺ فقالوا له: «من رسول الله؟ لا عهد بيسا وبين محمد ولا عهد، فثبتهم سعد بن عباد وشاتموا، وهذا قال سعد بن معاذ لسعد بن عباد: «دع عنك مشائهم فما يسا وبينهم أربى من المشائمة»^(١)

من الواضح إذن أن ما ارتكبه هو قريظة من عذر كان يستحق وقفة حاسمة. ولهد، لم يكذبصرف الأحزاب عن المدينة حتى أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس «من كان سمعاً مطيعاً فلا يضلّين العصر إلّا سي قريظة»^(٢) فصار المسلمون من فورهم إلى حصون سي قريظة في المدينة، وذلك يوم الأربعاء تسع بقبر من ذي القعدة في السنة السادسة من الهجرة (أبريل ٦٢٧م) وحاصروهم خمسة عشر يوماً^(٣) حتى «جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب»^(٤) وهذا يدؤوا يشعرون فيما بينهم ماذا يصنعون؟ وقد عرض عليهم رعيهم كعب بن أسد ثلاثة أحبار: أن يعفوا، للإسلام، أو أن يقتلوا ساءهم وأساءهم ثم يجاهدوا المسلمين دون مبالاة بالموت، أو أن ياعتوا المسلمين بالهجوم ليلة السبت حيث لا يتصور أحد أن يحدث ذلك، لأن لسب عبد اليهود يوم راحة وعادة لا يوم عمل وقال. وقد رفض اليهود كل هذه الاحيادات. فقالوا عن تبرير رفضهم لاعتناق الإسلام «لا نعرف حكم النبوة أبدًا ولا نستبدل به غيره». وقالوا عن تبرير رفضهم لقتل نساءهم وأبنائهم

(١) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٥٧٢ وأربى أي أعنف وأشد وأظفر ما سر ص ١٥٥

(٢) سورة أبي هشام، ج ٣، ص ٢٥٢

(٣) د. م. م. ج ٢، ص ٢٩١ ويدل على أن الحصار سمر حث وعشرين شه نظر سره
بن هشام، ج ٣، ص ٢٥٤

(٤) سورة أبي هشام، ج ٣، ص ٢٥٤

ليستطيعوا مهاجمة المسلمين. «نقتل هؤلاء المساكين»^{١٢} فما خير العيش بعدهم^{١٣}! أت
تريهم لرفض لثقال لينة السب فقد قام على أساس ألا يفسدوا سبهم عندهم وقد
قال لهم كتب من أسد بعد رفضهم لكل مقترحاته «ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه
ليلة واحدة من الدهر حازماً»^(١٤)

وبعد محاولة لاتصال برسول الله ﷺ والقائض معه رضي سو قريظة بأن يرلوا
على حكم سعد بن معاذ رعيم الأوس وكان سو قريظة حلفاء الأوس؛ ولهذا طمعوا
في أن يرفق بهم سعد وكلم بعض رجال الأوس سعداً في ذلك فكان جوابه «قد أبى
لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»^{١٥} وكان سعد قد أصيب في عروة الحدو كعه
تقدم وحيه به محمولاً إلى رسول الله ﷺ ليحكم في سو قريظة وقد نظر سعد إلى
شذاعة الحرم لذي ارتكبه سو قريظة واستنتج أن الغزو عن أمثل هؤلاء يجعل
المسلمين لا يأمنون تجدد عندهم بصورة أشنع وأقسى؛ ولهذا حكم بأن تقتل رجالهم
وتقسم أموالهم وتسي ذرايعهم وسائرهم^(١٦). فقال له رسول الله ﷺ «أصبحت حكم
الله فيهم»^(١٧)

وهكذا شهدت المرحلة الأولى من حياة الرسول ﷺ بالمدينة (١ ٦هـ) بداية
الجمع لليهودي هناك، بكل ما ارتبط به من مؤامرات ودساتين^(١٨)، ولم يكن ذلك إلا
لأن اليهود لم يحترموا عهودهم مع المسلمين ولم يقيموا اعتباراً لما يتطلبه الجوار
المشرك معهم من علاقات تعاون ومودة وتآلف والجدير بالملاحظة هنا أن كثيراً من
الناحيتين لعرين نخذوا من موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة وسيلة للهجوم على
الإسلام وتهمة بالعبصرية والقسوة على المخالفين في الرأي والمذهب وكان ما
تعرض له يهود سو قريظة بصفة خاصة هو أكثر ما أثار هؤلاء على أسس أنه من وجهة
نظرهم يشبه ما حل بهم على يد النازيين وقد تصدت المستشرقة البريطانية «كربين

(١٢) مصدر عنه ص ٢٥٥ ٢٥٦

(١٣) مصدر عنه ص ٢٥٨ ٢٥٩

(١٤) ابن كثير النهاية والنهية، ج ٤، ص ١٢٤

(١٥) ومع ذلك لا يسهل وجود يهودي ثقات من المدينة بالمعنى، على في قريظة فقد ظل هناك أفراد وأسر معددة

تمسح بالأمر على الأعراس والأولاد وبحرية انفسهم انظر النعماني نحو في ج ٢ ص ٢٣٧

«رمسترونج» لهذه النهم وقدّنها وهي ترى «أنّ صراع محمد ﷺ مع القنائل اليهودية الرئيسية الثلاث كان مختلفاً تماماً عن الكراهية الدينية والعرقية التي أدت إلى أن تُشعل مسيحيو أوروبا لمدائح لعهده تقرب من ألف عام»^(١) كما تؤكد الباحثة أنّ الصراع مع يهود المدينة كان ذا طابع سياسي محض، فلم يكن توسع المؤمنين أن يؤوا عدوّاً لهم يسهم بسدّ طرقة. وفيما يتعلق بموقف الرسول ﷺ من يهود بني قريظة وما يبدو فيه من قسوة، تشير «رمسترونج» إلى «أنّ القرطبيّين أوشكوا أن يدمروا المدينة، ولو أنّ محمداً أطلق سراحهم لعلّوا على قيادة معارضة اليهود في حير، ولطعنوا هجومًا حرّ ضد المدينة حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى، كما أنّ المعركة لدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لا نهاية، ويسمر معها المعاناة والموت»^(٢) ولم يفتّ «كارين أرمسترونج» أن تؤكد أنّ هذا الحادث لم يؤثر في موقف المسلمين من اليهود، فقد تعايشت المجموعات الدينية المختلفة حتّى إلى حدّ في ظلّ لدولة الإسلامية احترامية الأطراف وتؤكد الباحثة أنّ «المعاداة لسمامية حظيّة مسيحية عربية وليست حظيّة إسلامية» ففي ظلّ الإمبراطورية الإسلامية تمنع اليهود، مثبهم مثل المسيحيين، بحرية دينية كاملة... ولم يُعانِ اليهود في ظلّ الإسلام قهر ما عدّوه في ظلّ المسيحية»^(٣)



هذا، ولم تنته قصة المسلمين مع اليهود بما كان يسهم وبين بني قريظة، فقد كانت لهم مع يهود حير - خارج المدينة - قصة أخرى ساقشها بعد قليل

(١) كارين أرمسترونج، سيرة النبي محمد، ص ٢٧٧

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٨

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٩

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل التاسع

من صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦-٩هـ):

اتساع نطاق الدعوة وتأکید هبة الدولة

شهدت المرحلة التي أعقبت صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦-٩هـ/ ٦٢٨-٦٣٠م) بشدّة ملحوظة الدعوة الإسلامية، سواء أكان ذلك داخل شبه الجزيرة العربية أم خارجها. ثم إن هذه المرحلة شهدت أيضاً عدداً من الأحداث التي كان لها تأثيرها في دعم هبة الدولة الإسلامية في الداخل والخارج وسوف نتناول في هذا الفصل باختصار ومركّز النقاط التالية:

١ كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك

٢ فتح حير

٣ عمرة نقصاء

٤ سرية مؤتة

٥ فتح مكة

٦ عروة حس والطائف

٧ عروة بؤك

١ كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك:

تجمع مصدراً التاريخ على أنّ الرسول ﷺ أرسل كتبه إلى ملوك العالم وأمره يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولكنها لا تتفق على تزيح إرساء هذه

الكتب على وجه الدقة فتذكر بعض المصادر أنها أرسلت في ذي الحجة ٦٦ هـ ،
وتذكر مصادر أخرى أن إرسالها بدأ في سنة ٧٧ هـ^(٦) والجدير بالملاحظة أن الأعيان
الدالية شهدت مريد من هذه الكتب ومما يذكره الظري في هذا السياق رواية عن
ابن إسحاق أن الرسول ﷺ «مرق رحالاً من أصحابه إلى ميوك العرب وانعم دعة
إلى الله ﷻ فيما بين الحديثية ووفاته»^(٧).

أما الرسول ﷺ عددًا من صحابته لحمل كتبه إلى الميوك والأمراء، فأرسل دحية
ابن حيفة الكلبي يكتابه إلى إمبراطور الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى القوقس حاكم
مصر، وعبد لله بن حذافة السهمي إلى إمبراطور الفرس، وعمرو بن أمية الضمري إلى
الحاشي منق لحشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شعر
العسبي، وسليط بن عمرو العامري إلى هودة بن علي الحمصي صاحب اليمامة^(٨)
وكان ذلك في عهد السامع للهجرة على أرحح الأقوال^(٩) وفي العام الثامن للهجرة
أرسل عمرو بن العاص (وكان قد أسلم منذ زمن قصير) إلى جيفر وعدد بني جندب
صاحبي عُمان، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن سوي صاحب
الحويز^(١٠).

وتذكر مصادرنا بعض نصوص الكتب التي أرسلها الرسول ﷺ إلى هؤلاء الميوك
فمن ذلك كتابه إلى هرقل إمبراطور الروم، وهذا نصه كما يرويه السحاري: «بسم الله
الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من
اتبع الهدى أم بعد فبي أدعوك مدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤت الله

(١) تاريخ عوي ج ٢، ص ١٢٤، وتكملة لآثار الشيرازي ج ٢، ص ٢١٠، ومروج الذهب للمسعودي، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٢) السدري أسباب الأشراف، ج ٢، ص ٥٣١.

(٣) تاريخ الظري، ج ٢، ص ٦٤٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٤٥-٦٤٦، وأسباب الأشراف، ج ١، ص ٥٣١.

(٥) أسباب الأشراف، ج ١، ص ٥٣١.

(٦) تاريخ الظري ج ٣، ص ٢٩ هذا ويعتقد أنه السعوي مريد من أسماء رسول الله ﷺ في عهد معاوية.

هؤلاء جريو بن عبد الله النجلي إلى ذي الكلاع الحميري، وعبد بن ياسر إلى أبيهم من لعبد العسبي.

وانما حر بن أبي أسبه بن الحارث بن عبد كلاً - الحميري تاريخ السعوي ج ٢، ص ٧٨.

أحرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين، وبأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»^(١)

وهذا نص كتابه إلى إمبراطور الفرس «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على من اتبع الهدى وإلى من دله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله إلى الناس كافة ليسر من كان حيث ويحق القول على الكافرين فأسلم تسلم، فإن توليت فإن عيبك إثم الموحوس»^(٢)

يقدم لنا هذان الكتابان مثالاً لجوهر ما تضمنته كتب الرسول ﷺ الأخرى إلى الملوك والأمراء، فهي تدور حول دعوة هؤلاء بالحسن إلى اعتناق الإسلام ولا نجد في إرسال الرسول ﷺ لهذه الكتب ما يدعونا إلى الدهشة لأن الرسول ﷺ مكث في بلاغ رسالته إلى الشر جميعاً بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تجدر مهمة هذا الطبق أن الأمر المدهش حقاً فهو أن نجد من المستشرقين من سكر وثقة هذه الكتب على أساس أنّ الإسلام دين موجه إلى العرب فحسب، وقد تجاوز عدد من هذه الكتب حدود شبه الجزيرة العربية، ومن هنا فهم يعتقدون أنها من إصدارات المتأخرين دوناً عما يتصورونه من عالمية الإسلام ومن بين المستشرقين الذين يشوب هذا الرأي «ماريليف»^(٣) و«جروساوم»^(٤) و«جيدوب»^(٥) و«كدرس»^(٦) و«مسرويج»^(٧)

ولحق أن عالمية الإسلام حقيقة أثبتها القرآن نفسه ولم يحرعهد السأحرول، ويتضح ذلك من لعديد من الآيات، مثل قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا رِجَالًا نُبَيِّنُ لِكُلِّ قَوْمٍ وَكَيْدًا﴾ [سأ ٢٨]، وقوله سبحانه ﴿تِلْكَ آيَاتُ رَبِّكَ الَّتِي تَرَى الْقَوْمَ عَلَى عَنِينٍ يَكُونُ

(١) صحيح البخاري، ج ٤، ص ٥٧

(٢) تاريخ ايعقوبي، ج ٢، ص ٧٧

(٣) A. A. Vasiliev, History Of The Byzantine Empire, P 211

(٤) G. E. Von Grunbaum, Classical Islam, P 42

(٥) J. Glubb, The Great Arab Conquests, P 89 f

(٦) كارل أنمسترويج، سيرة النبي محمد، ص ٣١٤

بَعْنِيكَ دُرُّكَ» [المرقان ١] ثم إن أقدم مصادر السيرة أثبتت بعض هذه الكتب، وعلى رأسها صحيح البخاري. ويضيف إلى ذلك أن إرسال هذه الكتب يسجّم تداعً مع واقع حياة الرسول ﷺ بعد المعنة ومع مقتضيات دعوته^(١) وقد استعظم بعض المستشرقين أن يقدم الرسول ﷺ على إرسال كتب إلى رجال في مكة كسرى وفيصر دؤب أن يحشى نطشهم ولكن حياة الرسول ﷺ تنبأ أنه كان لا يأتى بها بلافى في سبيل الدعوة، وهذا ما رأيناه في رحلة الطائف، وهي دعوته عامة المشركين إلى عبادة الإسلام في موسم العرب، وهي غير ذلك من المواقف

ليس هناك إذن ما بدعوا إلى الشك في وثاقة هذه الكتب والمجدير بالذكر أن أصداء هذه الكتب لدى الملوك والأمراء كانت متتابعة، فمهم من رد ردًا حميلًا كالمقوقس الذي أهدى إلى الرسول ﷺ جاريثين مهم مديرة أم إبراهيم من رسول له ﷺ^(٢)، وكالتجاشى الذي أكرم رسول رسول الله ﷺ وذكر الإسلام بالثناء، بل يروي بعض المؤرخين أنه أسلم^(٣)، وإن كان ذلك لم يشت شوقًا فطعًا ومن الملوك من رد ردًا قبيحًا كما فعل إمبراطور الفرس الذي مرق كتب رسول الله ﷺ، فقد ﷺ عندما علم بذلك «مُرَق مذكه»^(٤)

لم تُنشر هذه الكتب عن إسلام الكثير ممن أرسلت إليهم، ولكنها مع ذلك أتاح لهم فرصة التعرف إلى دعوة الإسلام والتفكير فيها، وكان ذلك مقدمة لاشتر هذه الدعوة خارج شبه الجزيرة العربية في وقت لاحق

٢- فتح خيبر (صفر ٧ هـ - مايو ٦٢٨م) وإخضاع يهود شبه الجزيرة

كانت خيبر (شمالى المدينة) من أهم المراكز اليهودية في شبه الجزيرة العربية وقد انضم إلى يهود خيبر الأصليين بعض اليهود الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وخاصة يهود بني النضير فليس من المستغرب إذن أن نصبح خيبر مركزًا لتأمر

(١) محمد بن سعد ج ١، ص ١٠٤، راجع إلى د عبد الرحمن سالم المسلمون والروم في عصر النبوة ص ٧٢ ٨٣

(٢) ابن عبد الحكم فتح مصر وأخبارها، ص ٤٧

(٣) ابن الأثير أسد الغابة، ج ١، ص ١١٩، والبلادي أسد الأشراف، ج ١، ص ٤٣٨

(٤) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦٥٤

اليهودي ضد المسلمين ومن هنا أراد الرسول ﷺ أن يقصى عن شوكة اليهود في هذا المعقل الحصين حتى يؤمن دولة الإسلام من كيد طائفة تعد من أخطر أعدائها وقد تميرب حير يحصونها المبيعة وما تشتمل عليه هذه الحصون من العدد والعدة ولهد، كن أهلها في مكرهم بالمسلمين لا يأتون بهم، وكانوا يُحرقون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون محمد يعرفون هيهات هيهات^(١) وكان من تنفى بالمدينة من اليهود يقولون للمسلمين، «ما أمتع والله خير منكم لو رأيتم خير وحصونها ورحلتها لرحمتهم قل أن تصلوا إليهم»^(٢)

وكان من الضروري أن يصح الرسول ﷺ حذراً لهذا الخطر الذي يهدد أمن الدولة الإسلامية لثبته بالمدينة ولهذا حرج في صفر من العام السابع للهجرة^(٣) (مايو ٦٢٨م) على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه، من بينهم مائتا فارس^(٤)، متوجها نحو حير، وكان اليهود عشرة آلاف مقاتل يقودهم كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق^(٥) وقد استعادت اليهود بعضاتها من العرب من أسد وعمار وغيرهما، وجعلوا لهم تمر حير سنة^(٦) ومع كل ما حفلت به حير من عدد وعناد، وزعم المقاومة العبيدة التي أبدتها أهلها، فقد أحدث حصونها تنساقط أمام استسار المسلمين وإصرارهم على فتحها وقد استطاع المسلمون أن يستولوا على حصون «الطاة» و«الشق» و«الكبية» وبضم كل حصن من هذه الحصون الأساسية عدداً من الحصون الداحية المبيعة وكان حصن «نعم» من أمتع حصون الطاة، وبه عدد من شجعان اليهود الذين قتلوا في أثناء هجوم المسلمين على الحصن، ومن أبرزهم الحارث ومرحب وياسر وأسير وعامر^(٧) وكان حصن «الراز» من أمتع حصون «الشق» وهو الذي أبرت فيه صفة

(١) د. أي. حنري ج ٢ من ١٣٧

(٢) المصدر نفسه، والمصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه من ١٣٤

(٤) المصدر نفسه من ١٩٨، ويذكر ابن شاذان الكشي أن جيش الرسول يكون من ١٤٠٠ داخل ومائتي فارس

نظر عيون في ربيع ح ١ من ٢٦٤

(٥) النعماني ج ٢ من ٦٤٢

(٦) المصدر نفسه من ٧٠٢

(٧) المصدر نفسه من ٦٥٧

سب حينئذ من أحطت التي أصبحت فيما بعد إحدى أمهات المؤمنين أما أمع حصون الكعبة فهو حصن «لقموص»، وكان اليهود بقيادة كسابة بن الربيع بن أبي الحقيق قد تحصنوا فيه بعد استيلاء المسلمين على حصون الطغاة والشق، «فما هو إلا أن قيل هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشق في أصحابه، وقد نهياً أهل القموص وقدموا على باب الحصن ليليل، فهض كسابة إلى قوسه فما قدر أن يؤثرها من الرعدة، وأوماً إلى أهل الحصون لا ترموا» واقمع في حصنه، فما رثى منهم أحد، حتى أحدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب»^(١)

وهكذا ستم حصن القموص ثم كان آخر ما استولئ عليه المسمون من حصون حير حصن «لوطيح» وحصن «السلم»^(٢)، وقد صرب الرسول ﷺ عنيهما حصراً، دم أربعة عشر يوماً، ثم طلب أهل الحصين الصلح فأجابهم الرسول ﷺ إليه^(٣) والحدير بالذكر هنا أن الرسول ﷺ عامل أهل حير بعد استسلامهم معدمة تسم بالعين والسامح؛ فقد حقن لهم دماءهم وأقرهم على أرضهم يزرعونها على أن يكون لهم نصف ما تنتج والمسلمين النصف وكان اليهود هم الذين اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقيمهم على أرضهم قائلين له «نحن أعظم بها منكم وأعمر لها»^(٤) وعندما تم الاتفاق السابق بين الرسول ﷺ ويهود حير اشكى اليهود إلى الرسول ﷺ من أن بعض المسلمين يدخلون أرضهم فيأخذون من ثمارها، فأمر الرسول ﷺ من يدي في المسلمين الصلاة جامعة فلما اجتمع المسمون دم فيهم حظيت محمد الله ونسى عليه، ثم قال «إن اليهود شكوا إلى أنكم وقعتم في حطرتهم، وقد أمتأهم على دمائهم وعلى أموالهم والذي في أيديهم من أرضهم، وعامهم، وإنه لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها»^(٥). فاستجاب جميع المسلمين لوجيه الرسول ﷺ وقد تم فتح حير في صفر ٧ هـ (مايو ٦٢٨م)

(١) انصهر حصه، ص ٦٧٠

(٢) سورة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٨٣

(٣) انصاري، ج ٢، ص ٦٧٠

(٤) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٥

(٥) الرازي المعري، ج ٢، ص ٦٩١

هذا. وقد كتب لليهود مراكز أخرى بالقرب من حبر، وهي ذلك وتيماء ووادي القرى، وصدق علم يهود ذلك بما جرى لحبر أنهم من يهود حبر تمكنهم الرعب فقموا أن يصلحوا. لرسول علي بن صف أموهم دون قتال ومن هنا أصبحت ذلك خلصة لرسول الله ﷺ ولم تصح حينئذ كخيبر، لأن المسلمين لم يُجنسوا عليها محيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا دونها^(١)

أما يهود وادي القرى فبهم لم يدعوا منذ البداية بل قاتلوا حتى اضطروا إلى التسليم وصلحوا. رسول الله ﷺ علي ما صالحه عليه أهل خيبر، وكان ذلك في حمدي. لأخرة سنة ٧هـ^(٢) وأما يهود تيماء فقد ادعوا للمسلمين دون قتال، وقبوا أن يدعوا. لحبرية بعد أن بلغهم ما الت إليه مقاومة خيبر ووادي القرى^(٣). وهكذا دان لليهود للمسلمين ولم يعودوا يشكلون خطرًا على مسار الدعوة الإسلامية، ولكنهم في الوقت عه وحدوا من الرسول ﷺ كامل الرعاية لعهوده معهم فتمتعوا بالامن عن أعينهم وأموالهم وبحرية العقيدة

٣- عمرة القضاء (ذو القعدة ٧هـ - مارس ٦٢٩م)

ذكر أن مشركي قريش صدوا رسول الله ﷺ والمسلمين عن المسجد الحرام في ذي القعدة سنة ٦هـ عندما ذهبوا معتمريين. وقد ان الأمر إلى عقد صلح الحديبية بين الرسول ﷺ وقريش، وكان من بين سود هذا الصلح أن يحرر المسلمون معتمريين بعد انقضاء ابعاء على أن تُخلّى قريش مكة لهم ثلاثة أيام، فلما انقضى العام حرج الرسول ﷺ في ذي القعدة سنة ٧هـ معتمراً عمرة القضاء، وحرّج معه المسلمون ممن كانوا في عمرته تمت، فأحلب قريش لهم مكة فدخلها الرسول ﷺ والمسلمون فأقاموا بها ثلاثاً، وقصروا. عمرتهم ثم انصرفوا راحين إلى الحديبية بعد أن ملأوا أرجاء مكة بذكر الله وأعلنوا فيها شعار الإسلام^(٤). ورغم إخلاء قريش مكة للمسلمين فبها كدت بحيث تستطيع أن ترقب هذا الحشد الهائل من المسلمين الذين جاءوا ليطوفوا بالبيت

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٥

(٢) السلاوي، فتح سديد، ص ٢٧-٢٨

(٣) المنصور، ص ٢٨، والعماري، ج ٢، ص ٧١

(٤) نريد من المتاح حول عمرة القضاء الرجوع إلى سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٢٤ وما بعده

العبيق في مشهد يأخذ بمجامع القلوب، ولا شك أن ذلك كان له عميق الأثر في نفوس الكثيرين^(١)

٤- سرية مؤتة (جمادى الأولى ٨هـ - سبتمبر ٦٢٩م)

أرسل الرسول ﷺ أحد أصحابه وهو الحارث بن عمير الأردني إلى مدث بصرى أحد ملوك الحساسة بالشام مكتاب له يدعو فيه إلى الإسلام، وعرض طريقه شرحبيل بن عمرو الغساني وقتله في مؤتة^(٢) وغتلا أرسل الرسول ﷺ شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شعر العسائي أساء الأخير استقبال سموت رسول الله ﷺ وهدد بإعلان الحرب على المدينة^(٣) ثم إن أساءات عرب الشام للمسلمين تجاوزت ذلك كله عندما أرسل الرسول ﷺ (في ربيع الأول سنة ٨هـ) خمسة عشر من أصحابه بقيادة كعب بن عمير المعناري إلى مكان يقال له «ذاب أطلاق» بالشام فوثب عليهم «فصاعة» مجموعها قتلتهم جميعاً إلا واحداً نجى وبه رمى، فاستطاع أن يصل إلى الرسول ﷺ ويحبره بما حدث^(٤)

احتمت هذه لأسباب كلها لتجعل الرسول ﷺ يتخذ قراراً بتأديب عرب الشام الموليين للروم وإذا كان قتل الحساسة لسموت رسول الله ﷺ إلى مدث بصرى بشكل دفع قوي وراء القرار فلا شك أن أقوى هذه الدوافع كان فتك فصاعة بالدعوة للمسلمين في ذاب أطلاق، وهو الذي حدث قبل سرية مؤتة بحوالي شهرين

هكذا أعاد الرسول ﷺ جيشاً بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل ليقيم بهمة محددة وهي تأديب عرب الشام الذين تفاولوا على المسلمين واستباحوا دماءهم، وجعل أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة

(١) تقول كازير ريسودج «ودعش، فريش حين شاهدت جموع المسلمين كلها وهي ترحل عن سدنا مع هبوب هلاله وكان عظمه يدي تسيير به يبدو بعداً عن تصور أنه مكمل لا كانت لغرفة وتوصي بهم مر

عومر بن أبي أدت إلى سقوطهم» انظر كتابها «سيرة النبي محمد» ص ٣٤٨ ٣٤٩

(٢) ابن سعد «مقاتل بكرى ح ٢ ص ١٢٨ و ج ٤ ص ٣٤٢ والتوافقي المعناري ح ٢ ص ٧٥٥

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٦٥٢

(٤) ابن سعد «انصاف التكري» ج ٢ ص ١٢٧، والتوافقي المعناري ج ٢ ص ٧٥٢ ٧٥٣

تحرك الجيش الإسلامي من الحديبة في اتجاه الشام في جمادى الأولى سنة ٨هـ (سبتمبر ٦٢٩م) وكان الرسول ﷺ قد أوصى زيد بن حارثة ورجله أب يوحنا إلى مؤتة، حيث قبل الحارث بن عمير، وأن يدعوهم من هناك إلى الإسلام «فإن أحبوا، وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم»^(١)

والموضح أنَّ عرب الشام عندما سمعوا بتحرك الجيش الإسلامي استعدوا بالروم، ذلك أنه قرأ في مصادرنا أنَّ جيش العدو بلغ مائتي ألف مائة ألف من عرب الشام المتحصنة، ومائة ألف من الروم^(٢) وقد يكون في هذا الرقم قدر من المبالغة، ولكن الذي لا شك فيه أنَّ جيش العدو بلغ أضعاف الجيش الإسلامي

سار زيد بن حارثة بجيشه حتى برز «معان» (وهي إلى الشمال الشرقي من مدنة أيلة)، وهي معان علم المسلمون أنَّ جيش العدو قد نزل «ماب» من أرض النقاء، وقد دقت أعداده كلَّ توقعاتهم^(٣)

وعندما فوجئ المسلمون بما لم يكونوا يحتسبون من ضخامة جيش العدو تشاوروا فيما بينهم ماذا يصنعون؟ ولكنَّ عبد الله بن رواحة حسم الأمر بقوله: «ما نقاتل ليس بعدد ولا قوة ولا كثرة! ما نقاتلهم إلَّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فيطبقوا». وبما هي إحدى الحسين، فقال المسلمون «قد والله صدق»^(٤) من رواحة^(٥)

هكذا مضى المسلمون للقاء العدو حتى وصلوا إلى النقاء من أرض الشام، وهناك اتحدوا من قرية «مؤتة» بالأردن مركزاً لهم. وفي هذا المكان التقى جمعهم الفليل بمحمود العدو لهائلة من الروم ومتحصنة العرب وقد استشهد في بداية اللقاء زيد بن حارثة. ثم حمل الراية بعده جعفر بن أبي طالب فاستشهد، ثم جاء الدور على عبد الله بن رواحة الذي تردد في البداية بعض التردد، ولكنه سرعان ما دُفِّر نفسه بما تمناه من الشهادة، فتقدم متأسياً بصاحبه زيد وجعفر، وحمل الراية وهو مُشَدَّ

(١) انصرفت الكبرى، ج ٢، ص ١٢٨

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٧

(٣) انصرفت عنه، والمصنف عنه

(٤) انصرفت عنه، ص ٢٧-٢٨

يا نفس إلا تقتلي تحوتي هذا جنّام الموت قد ضلّيت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلي فعلهما هديت

ثم قاتل حتى شهيداً^(١) ثم دُفعت الراية إلى ثالث من أرقام بن ثعلبة النوي، ولكنه دفعها إلى خالد بن الوليد، وقال له: «أنت أعلم بالقتال مني»^(٢) وكان خالد قد أسلم حديثاً (في العام نفسه)^(٣)، وكانت مؤنة أول مشاهدته في الإسلام^(٤) وكان على خالد أن يقدر جيش المسلمين من الدمار الكامل، فاجتهد في أن يعدل وضع الجيش حتى يوهبهم لأعداء أن مدداً قد جاءه من المدينة فلا يجترئوا على تعقب الجيش المسحب وقد نجح خطة خالد فداور بالمسلمين حتى انسحب بهم ووصل بهم المدينة دون حصار تذكر ولا شك أن صبيح خالد هذا كشف عن عقوبة عسكرية لا تدنى، ولم يكتف الرسول ﷺ إعجابه به في هذه المناسبة فقلعه لهم إبه سيف من سيوفه، فعند ذلك اليوم عرف خالد «سيف الله»^(٥)

كانت معركة مؤنة أول مواجهة مباشرة بين المسلمين والروم فقد كسب الشرارة الأولى في ذلك الصراع الذي استمر أكثر من ثمانية قرون بين الحديين^(٦) ولما صبح أن المسلمين لم يفتحوا صفحة ذلك الصراع، فهم ما توجهوا لنقاء الروم بل لآداب عرب الشام الذين أضعوا في استقراهم، ثم وحدوا أنفسهم في مواجهة مفروضة عليهم من جانب الروم وورع أن المسلمين لم يحققوا نصراً في هذه المعركة فمن الصعب أن يقول بهم هزموا. صبح يلاحظ أن الجيش الإسلامي رجع إلى المدينة سالماً، ولم يجبور عدد الشهداء المسلمين اثني عشر^(٧)، بل إن بعض المصادر تذكر أنهم كانوا ثمانية^(٨) ولو كان ما حدث في مؤنة هزيمة بالمعنى الدقيق لسُجق الجيش

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩ ٤٠

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٢٦٥

(٣) أسلم هو وعمر بن الخطاب وخشام بن طخفة من أبي طلحة في الوقت نفسه، حدث في صفر سنة ٤٨ هـ

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٣٩ ٢٤٠

(٥) ابن الأثير: المعجم، شذرات الذهب، ج ١، ص ١٢

(٦) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤١ ٤٢

(٦) Philip Hitti, History of the Arabs, P 177

(٧) سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٤٤٧

(٨) الرافعي: المعاني، ج ٢، ص ٧٦٩

الإسلامي محققاً. ولجدير بالذكر في هذا السياق أن المسحيين المسحجين لقوا شدة من سوء استقبال أهل المدينة لهم، فقد «لقيهم الصبيان يشتدون»^(١) وجعل الناس يحثون على الحيش التراب ويقولون: «يا فراراً فرستم في سبيل الله» فقال ﷺ «ليسوا بالفرار ولكنهم الكفرار إن شاء الله»^(٢)، وهذا هو ما كان

٥- فتح مكة (رمضان ٨هـ - يناير ٦٣٠م)

كان من بين سود صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وبسبب هذه دللت حبيب حراصة في عقد رسول الله ﷺ وعهده، ودخلت سو بكر بن عبد ماة بن كادة في عقد قريش وعهدهم

وقد حدث في أثناء هذه الحديبية أن عدت سو بكر على حراصة فأصابوا منها رجلاً وقتل العريقين. وكان يمكن أن تمر هذه الحادثة دون أن تترك أثراً بعيدة المدى، ولكن قريش أمدت حلفاءها من بني بكر بالسلاح والرجال وتظاهروا بالجميع على حراصة حينما ركب رسول الله ﷺ وقاتلوهما فكانت لهم الكرة عليها. وهذا حرج أحد رجال حراصة وبسببه عمرو بن سالم. حتى قدم على الرسول ﷺ الحديبية فشرح له ما حدث من نقص قريش لعهدك معه بمصارتها لحلفائها من بني بكر على حديبته من بني حراصة، وأشدّه ألياً منها

إن قريشاً أخلفوك الموعدة ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فانصر - هذاك الله نصراً اعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا

فوعده الرسول ﷺ بالنصر. ثم جاء حراصة آخر هو نذيل بن ورقاء في نفر من قومه إلى الرسول ﷺ ليؤكدوا له نقص قريش لعهدها معه وينصروا نصرتهم^(٣)

أحبست قريش بحظورة ما أقدمت عليه من انتهاك لعهدك مع رسول الله ﷺ وأدركت ما قد يترتب على ذلك من ردود أفعال من جانبها، ولهذا أرسلت إليه أبا سفيان بالحديبية ليؤكد معه عقد الحديبية ويريد في مدته. ولكن مهمة أبي سفيان

(١) سورة البراءة، ج ٣، ص ٢٣٨. وتكرير من التفاضل حول سيرة مائة وملاساتها ورواها وتكريرها
وتكريرها الرجوع إلى د. عبد الرحمن سالم المثلثون والروم في عصر النبوة، ص ٨٧ ١٠٨

(٢) انظر التفاضل في تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٣ ٤٥، ومغازي الواقدي، ج ٩، ص ٧٨١ ٧٨٩

دعاه بالعتل لأن رسول الله ﷺ رفض أن يجيه وقد حاول أبو سفيان أن يستعين
بعض كبار الصحابة كأي بكر وعمر وعليّ ليشجعوا له لدى رسول الله ﷺ، فرفضوا
جميعاً، بل يروى أن عمر قال لأبي سفيان «أنا أشفع لكم إني رسول الله ﷺ»
فوالله لو لم أحد إلا الذر لجاهدتكم به! (١)

خرج الرسول ﷺ في العاشر من رمضان سنة ٨ هـ متوجّهاً نحو مكة عمن رأس حيش
بمع عشرة آلاف رجل (٢) ولما هنا أن يقارن بين هذا العدد وبين العدد الذي خرج معه
عم الحديبية ليعرف الظفرة الهائلة التي حققتها دعوة الإسلام لحلال هديس العاميين
وقد كتب لندائل كلها تشير عندئذ إلى أن مكة ستستسلم للمسلمين دون قتال، فقد
أصبح أتباع دين محمد ﷺ يمثلون قوة هائلة لا قبل لقريش بها، كما فقدت قریش
كثيراً من أئمة الكفر فيها وقادة الحروب ضد المسلمين كأبي جهل وأمية بن خلف،
وعسة وثيبة بنى ربيعة، وأبي الحنظلي بن هاشم ثم إن بعض أبطالها المعدودين قد
أُسموا وأصبحوا حركاً على الوثنية كعالمس الوليد، وعمر بن العاص هذا فصلاً
عن أن فريقاً من أعداء الإسلام وهم اليهود كانوا قد تجرعوا كأس الهزيمة المرة
على يد المسلمين بعد أن أُمعوا في التآمر عليهم، فقدت قریش بذلك حبيباً محبباً
في حربها ضد الإسلام كل هذه العوامل جعلت استسلام مكة لجيش الإسلامي أمراً
مستمراً به (٣)

وفي أثناء تقدم لرسول ﷺ نحو مكة نجشته لقيه عمه العباس بن عبد المطلب مستمراً
مهاجراً بعياله وحين رأى العباس هذا الجيش الهائل وعرف أن وجهته مكة قال
«وأي صاحب قریش؟ والله لن تدخل رسول الله ﷺ مكة عبوة قبل أن يأتوه فيسأموه إنه
لهلاك قریش إلى آخر الدهر» (٤) ومن هنا قرر أن يتصل بقریش ويطلب منهم أن
يستسلموا لرسول الله ﷺ ويطلبوا منه الأمان بجاناة أنفسهم ثم خرج يستمع إسماء

(١) سورة بن هشام ج ٤ ص ١٢ ١٣ وانظر أيضاً البخاري في التاريخ ج ٤ ص ٧٨٥ وعر ٧٩٢ ٧٩٣
يروى في تاريخ ابن جرير ج ١٠ وحدث لغيره في تاريخه لأعتها في البخاري ج ٧٩٣ وانظر هو لغيره لأعتها

مصر

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٠

(٣) انظر ج ١ ص ١٠٠ أحمد شمس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ١ ص ٦ ٧ ٢٠٧

(٤) سورة ابن هشام ج ٤ ص ٢٠

ليحمله رسالته إلى قريش، فالتقى في طريقه أبي سفيان، فقال له: «هد رسول الله ﷺ ورائي قد دلف إليكم بما لا قل لكم به عشرة آلاف من المسلمين»^(١) فقال أبو سفيان: «ما تأمرني؟» فطلب منه العباس أن يصحبه إلى رسول الله ﷺ «لعدسة ليطلب منه الأمان» ولعل العباس كان يدرك أن حصول أبي سفيان على الأمان من رسول الله ﷺ سوف يشجع حصول أهل مكة في مجموعهم على الأمان، لأن أبا سفيان كان رعيماً قريشاً وسيد مكة في ذلك الوقت. وقد استجاب أبو سفيان لاقتراح العباس وتوجه معه إلى الرسول ﷺ. وفي أثناء مرورهم على جماعات المسلمين لمح عمر أن سفيان يصحبه العباس فصاح قائلًا: «أبو سفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد!» ثم ذهب مسرعاً إلى الرسول ﷺ. ولكن العباس وأبا سفيان سقاه إلى هناك فدخل عمر على الرسول ﷺ، وعنده العباس وأبو سفيان، قال: «يا رسول الله، هد أبو سفيان عدو الله! قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعى أضرب عنقه! فقال العباس: «يا رسول الله، إني قد أحرته» فقال له الرسول ﷺ: «اذهب فقد أمّأه حتى تغدو به عليّ بالغداة» فلما أصبح غداً به على الرسول ﷺ فقال له: «ويحدث يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال: «ياي أنت وأمي، ما أوصيت وأحلمك وأكرمك! والله لقد طست أن لو كان مع الله غيره لقد أعنى عني شيئاً» فقال له الرسول ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟» فقال: «ياي أنت وأمي، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك! أنت هذه نبي النفس منها شيء»^(٢) فراجع العباس حتى شهد أن محمداً رسول الله ﷺ^(٣)

وقد أراد العباس أن يضمن أن الأمان الذي صحه الرسول ﷺ لأبي سفيان سوف يشمل غيره من أهل مكة فقال: «يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفجر فاجعل له شيئاً يكون في قومه»، فقال الرسول ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أخلق عليه يابه فهو آمن»^(٤) وبهذا شمل هذا الأمان حتى من أعاد عليه ناله، أي لم يقاوم رحمة المسلمين إلى مكة وسيطرتهم عليها. فلم يخرج عن نطاق الأمان إلا من سل سيفه في وجه المسلمين

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥٣

(٢) انظر ص ٥٣

(٣) انظر ص ٥٤

وبعد هب الأمان اطلق أبو سفيان إلى مكة حتى إذا جاءها صاح بأعنف صوته «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» فقالوا: «فانتك الله! وما تعنى عنا دارك؟» فقال: «ومن آمنن عليه به فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، ففروا الناس إلى دورهم وإلى المسجد وهكذا لم تأهب قريش في حملتها للقتال، فرحف الجيش الإسلامي نحو مكة، وعهد الرسول ﷺ إلى أمراء حيشه حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقتلوا أحداً، إلا من قتلهم فدخل المسلمون مكة دون مقاومة إلا ما كان من صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، الذين جمعوا شردمة من الناس وحاولوا التصدي لجراح من الجيش الإسلامي كان يقوده خالد بن الوليد، فاهزمت هذه الشردمة أمام جيش خالد وفر زعماؤها^(٢١).

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً متصراً توجه نحو البيت فطاف به سبعة، واسم البحر الأسود، ثم قام على باب الكعبة، وقريش قد اصطفوا بها، فقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر وعده، وهم الأحراب وحده، ألا كلٌّ مائرة أو دم أو مال يذعن فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت وسقاية اللحم» إن لله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وادم حين من تور، ثم تلا قوله تعالى ﴿يَتْلُو آتَا نَا إِنَّا خَلَقْنَا نِي دَاوُدَ وَنُوحًا وَجَعَلْنَا شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِيعْرِفُوا إِنَّ أَكْثَرَكُمْ عِنْدَ نَا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات ١٣] ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أمي فاعمل بكم» قالوا: «خير»، أح كريمة واس أح كريمة! قال: «دهبوا، فأسم الطفء»^(٢٢) وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذن عن الكعبة وأشرف قريش حينئذ عندها^(٢٣) كما أمر بالآصنام فهزمت وهو يتلو قوله تعالى ﴿هَآءِ آتَا نَا وَرَهَقَ النَّبِيُّ بِآ كَتَابُنَا كَا وَهَوَّآ نَا﴾ [الإسراء ٨١]. وعندما أمر بهل فكسر قال الزبير بن العوام لأبي سفيان: «يا أبا سفيان، قد كسر هبل! أما إنك قد كست به يوم أحد في

(٢١) سورة أبي هشام، ج ٤، ص ٢٣ ٢٤

(٢٢) الرازي العمري، ج ٢، ص ٨٢٥ ٨٢٦

(٢٣) تاريخ العمري، ج ٢، ص ٦٠ ٦١، وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٢ ٢٣

(٢٤) سورة أبي هشام، ج ٤، ص ٢٣

عرور، حين ترعم^١ له قد أعم^٢! فقال أبو سفيان: «دع هذا عليك يا ابن النعمان، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان»^(١)

كان فتح مكة في العشرين من رمضان سنة ٨هـ (يناير ٦٣٠م)، وأقام بها الرسول ﷺ بعد الفتح خمسة عشر يوماً^(٢) وقد تكلم بعض الأنصار في احتمال أن يقيم الرسول ﷺ بمكة موطنه الأصلي بعد أن فتحها الله عليه وأن يتخلل عن المدينة، فبما عدم ذلك رسول الله ﷺ قال: «كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليك، فالمحيا محياكم والممات مماتكم»^(٣)

إن الأسلوب الذي عامل به الرسول ﷺ أهل مكة بعد فتحها يخصص فلسفة الإسلام في الحرب، فما شرعت الحرب في الإسلام إلا رداً لنظم واقع أو متوقع، وما كان الهدف منها فقط الانتقام وسفك الدماء لقد قاومت مكة الإسلام بكل ما أوتيت من حول وطول، وأخرجت الرسول ﷺ منها بعد أن دمرت لفتته، ومع ذلك لم سعى الرسول ﷺ إلا العفو بعد أن رأى أنها أدعت للكلمة الله ومن الروايات الدالة في هذا السياق أن سعد بن عبادَةَ نادى أبا سفيان يوم فتح مكة قائلاً: «يا أبا سفيان! اليوم يوم المصحة» ليوم تسحل الحرم! اليوم أدل الله قريشاً! وقد أبع أبو سفيان رسول الله ﷺ مقالة سعد وقال: «إني أشدك الله في قومك، فأب أمر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس»! وقال عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان: «يا رسول الله، ما بأمر سعداً أن يكون منه في قريش صولة»! فقال الرسول ﷺ: «اليوم يوم المرحمة! اليوم أعز الله فيه قريشاً»! وعزل سعداً عن قيادة كتيبه وأعطى لواءه لاسه قيس بن سعد^(٤)

٦- غزوة حنين والطائف (شوال - ذو القعدة ٨هـ - فبراير - مارس ٦٣٠م)
حين حرج الرسول ﷺ لعرو مكة لم يكن العرب يعلمون غايته على وجه التحديد وطبقت قبيلة هوازن التي كانت تقيم حبوب شرقى مكة أن الرسول ﷺ متوجه لعروها،

(١) دوسي، ص ٢ ج ٢ من ٨٣٢

(٢) سيرة أبي هشام، ج ٤، ص ١٢ ١٥

(٣) ابن كثير البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٠٦

(٤) الواقدي السعدي ج ٢ ص ٨٢١ ٨٢٢

فجمعهم جموعها واستعدت للقتال ثم توجه الرسول ﷺ نحو مكة وكان ما كان من الصبح لعظيم وهما أدرك هوازن أن المد الإسلامي يوشك أن يجتاحها، فرأت حمية الدحول مع المسلمين في حولة حاسمة تقصى بها عن شوكتهم وأدرك هوازن أنها لا تستطيع تحقيق تلك العاية ما لم تلجأ إلى شريك قوي يشد من أزرها وقد وجدت بعينها في ثقيف ذات السراة العائقة في فون الحرب والقتال وصاحبة الريح العربي في عذاتها للإسلام وهكذا تحالفت هوازن وثقيف على حرب المسلمين، وأقلب جموعهم بقيادة مالك بن عوف بن سعد النضري^(١) أحد رجاء هوازن، حتى ملوا حبيسا، وهو وادي بين مكة والطائف، وأخذوا يعدون العدة لنفاة المسلمين وكان رسول الله ﷺ ما زال في مكة لم يبرحها مع أصحابه بعد الصبح وقد لجأ مالك بن عوف إلى وسيلة يضمن بها استماتة رجائه في القتال، فأمر الناس أن يأخذوا معهم أموالهم وساءهم وأساءهم وكان الشاعر المشهور فريد بن الصنعة (وهو من بني حشيم من هوازن) يصحب الجيش وكان شيخا دينا ولكنه كان صاحب تجربة فأرادوا الاستشارة رأيه وعندما رأى فريد ما صعه مالك بن عوف من اصطحابه لنساء والأساء والأموال سأله عن الحكمة في ذلك فقال له: أردت أن أحل حلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال له فريد: «زاعج ضأن والله هل يرد الصهرم شيء؟ إنها إن كانت لك لم يفعك إلا رجل سيفه ورمحه، وإن كنت عيت فصحب في هلك ومالك»^(٢) ولكن مالك بن عوف أين إلا الاستمسك برأيه^(٣)

ولما علم الرسول ﷺ بما أجمعت عليه هوازن وثقيف من حرب المسلمين أرسل إليهم أحد رجائه وهو عبد الله بن أبي حذرد الأسلمي ليأتيه بعريد من الأحار عنهم فذهب عبد الله في مهمته ثم رجع ليؤكد للرسول ﷺ صدق ما بدعه عن عدوه^(٤) فخرج من مكة في شوال سنة ٨هـ (فبراير ٦٣٠م) في اثني عشر ألفا من المسلمين، منهم ألفان من أهل مكة، أما باقيون فهم الذين فتح الله بهم مكة ثم

(١) حدث بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع ينتهي نسبه إلى نصر بن معدويه بن بكر بن هوازن بطر جمهرة

أساس العرب لأبن حزم، ص ٢٦٩

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٧١ والمغازي، ج ٢، ص ٨٨٧-٨٨٨

(٣) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٧٣

توجه إلى لقاء العدو بوادي حبيب، وقد أعجبت المسلمين كثرتهم، فقال بعضهم: «لن نعلب اليوم من قلة»^(١)

ودخل المسلمون وادي حنين، وكانت هوارن وثقيف قد كسوا لهم في شعبه ومضيقه، فبرروا لهم في عمابة الصبح من مكائهم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد ولم يكن المسلمون قد أعدوا أنفسهم لحثل هذه المعجزة فسيطر الدعر والفوصى على صفوفهم، واضطرب شملهم وصاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولوا مدبرين^١ وهب أظهر بعض أهل مكة ما في نفوسهم من الضعية، فقد اسلم بعضهم ولما بدخل الإبريد في قلوبهم. ويروى أنَّ أبا سفيان من حرب قال يومئذ: «لا تنهني هزيمتهم دون البحر»! وصرخ رجل يقال له كلفة بن الحسل (وهو أخو صفوان بن أمية لأمه) فقال: «ألا يظلل السحر اليوم»^(٢)

وفي مثل هذه المواقف الصمة يصح دور القائد أساسيًا لأنه يستطيع أن يحول الهزيمة إلى نصر. وقد وقف الرسول ﷺ في مكانه ثابًا كائطود ووقف بحسه بفر قليل من المهاجرين والأصار وأهل بيته، ومنهم أبو بكر وعمر وعبيد بن الجراح ولعصل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد^(٣) وصاح ﷺ في المستعيب المهزومين: «أين أيها الناس؟ هلم إلي! أنا محمد بن عبد الله وبرل من عنى بعته وهو يرتجر

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم أمر عه العباس: «وكان جهوري الصوت أن يصرخ يا معشر الأصار يا أصحاب الشجرة»^(٤) يا أهل بيعة الرضوان! فأجابوا: «نبيك نبيك»^(٥) ورجعت الأصار وهم يقولون: الكرة بعد الكرة^(٦) واجتمع إلى الرسول ﷺ مائة من أصحابه استنفوا، عدوهم وقاتلوا قتال المستعيب، فقال الرسول ﷺ حين رأى القوم وهم

(١) الترمذي المعاري، ج ٣، ص ٨٨٩-٨٩٠، وابن كثير البداية والنهاية، ج ٤، ص ٢٢١

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٧٤، والمعاري، ج ٣، ص ٩١٠

(٣) المعاري، ج ٣، ص ٩٠٠

(٤) الشجرة اسم الشجرة التي كان ينادي بها الرضوان

(٥) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٧٥-٧٦

(٦) المعاري، ج ٣، ص ٨٩٩

يحمدون لأن حمى الوطيس! وعندما رأى نية المسلمين ثاب هؤلاء نفر حول رسول الله ﷺ ثابوا إليه لتكون لهم الكرة على عدوهم^(١) وكان عتيق من أبي طالب قد نجح في أن يقتل صاحب راية هوازن، فأدّى ذلك إلى اضطراب شمل المشركين، فأحاط بهم المسلمون وأعملوا السيف فيهم فانهزموا أمامهم لا يهتدون عن شيء حتى أتى معظمهم إلى الطائف بعد أن كان المسلمون قد قتلوا منهم وأسروا وسوا^٢ وعصمو، عدتهم كثيرة وكان من بين الذين ذهبوا إلى الطائف مالك بن عوف قائد جيش المشركين^(٣)

وهكذا تحصنت فلول هوازن وثقيف بالطائف وأعلقوا عليهم أبواب تلك المدينة السبعة فوصعوا لصانع للقال^(٤)، فسار إليهم رسول الله ﷺ وفرص الحصار عن الطائف في شوال ٨ هـ (فبراير ٦٣٠م)، وقد لقي المسلمون عاء في حصار الطائف، فقد كان أهلب من ثقيف أصحاب حيرة طويلة بالقتال من وراء الحصون، فاستطاعوا أن يقبضوا نائل عدداً من المسلمين في أثناء الحصار، فأمر الرسول ﷺ المسلمين أن يرموا حصون الطائف بالمنجنيق، وكان المنجنيق من بين الأسلحة التي استولى عليها المسلمون من حصون حير، كما أدخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دابة^٥ ثم دحروا بها إلى حدار الطائف ليحرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سككت الحديد محمداً بالدار فحرقوه من تحتها فمات منهم ثقيف نائل وقتلوا رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعصاب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون^(٦) وعندي أرسلت ثقيف إلى الرسول ﷺ تسأله أن يدع لهم أعصابهم له والرحم^(٧)،

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٧٥ ٧٧

(٢) كانت النساء أخت رسول الله ﷺ من أوصاعه من بني سبي هوازن وقد أكرمها رسول الله ﷺ وودعها لدى قومها وعصب (سلامة يوسف بنظر النواهد النعماني ج ٣، ص ٩١٣ ٩١٤، وتاريخ الطبري، ج ٣، ص ٨١)

(٣) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٧٨

(٤) البرقي النعماني، ج ٣، ص ٩٢٤

(٥) النوبة بنت صمير يعمل من جلود الإبل والفر تحمل للحصون، يدخلها الرمح، فتقود من دحها، ويكون سفها حركاً لهم من الرمي انظر ترميز الدلائل السبعة لعمري، ص ٤٩٣

(٦) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٢٨

(٧) النعماني، ج ٣، ص ٩٢٨، وهامش ٢

فركبها لهم، ثم أمر مبادياً فبادى في ثقيف «أبما عدد من من الحصن وجرح إني دهر حراً» فخرج إليه منهم بضعة عشر رجلاً، فاشتد ذلك على أهل الطائف

وقد استمر حصار الطائف ما يقرب من الشهر على اختلاف الروايات في ذلك ثم أمر الرسول ﷺ برفع الحصار في ذي القعدة سنة ٨ هـ (مارس ٦٣٠ م) ذلك أنه علم أن ثقيف قد أعدت عندها لحصار طويل، كما سقط من أصحابه اثنا عشر شهيداً، سأل ثقيف ولم يظهر بعد ما يشير إلى قرب استسلام الطائف ولم يرفع الرسول ﷺ الحصار إلا بعد أن استشار أحد ذوي الخبرة من صحبائه، وهو نوفل بن معاوية الديلمي، وقد له «يا نوفل، ما ترى في المقام عليهم؟» فقال «يا رسول الله، ثعبت في حجر، إن أقمت عليه أحدثه، وإن تركته لم يصرك»^(١)

وبعد رفع الحصار عن الطائف توجه الرسول ﷺ إلى مكة معمرًا، وفي طريقه إلى مكة، في مكان يقال له «الجمرة»^(٢) نزل بالمسلمين حيث قسم بينهم عتقهم هوازن وكاتب دليعة الكثرة، فقد كان مع رسول الله ﷺ من سبي هوازن ستة آلاف من الدراري والنساء، ومن الإبل والأشياء ما لا يدرى عدته^(٣) وبمسك كلب الرسول ﷺ بالجمرة حياء وقد هوازن يعلمون إسلامهم، فرد إليهم أساءهم وساءهم، ولم يكن في لوفد مالك بن عوف قائد هوازن، حيث كان مازال مع ثقيف بالطائف، فقال الرسول ﷺ لوفد هوازن «أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل» فلما أخبر مالك بذلك تسلم ليلاً من الطائف دون أن تعلم به ثقيف، ثم لحق بالرسول ﷺ فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحس إسلامه، واستعصمه الرسول ﷺ على قومه وعلى من أسلم من القدامى حول الطائف، فكان يقتل بهم ثقيفًا لا يفرح لهم سرح، إلا أعار عليه حتى صلب عليهم^(٤)

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من رد سايا هوازن إليهم أخذ يقسم العتق بين المسلمين، وقد حصص طائفة ممن أسلموا حديثاً بمعريد من العطاء لثأل قلوبهم، ومن

(١) تاريخ بطري ج ٣ ص ٨٤ والشمري ج ٣ ص ٩٣٧

(٢) بجره بكسر الجيم وسكون الهم، أو كسر الحاء والهم وشديد نره ماء بين طائف ومكة وهو إلى

مكة أربعة يافوت بضعة أمدان ج ٢ ص ١٦٥

(٣) سيرة ر هشدة ج ٢ ص ١٣٤

(٤) تاريخ بطري ج ٣ ص ٨٨ ٨٩

هؤلاء أبو سفيان بن حرب، وأمه معاوية، وحكيم بن حرام، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعيينة بن حصص، والأقرع بن حابس، وغيرهم ممن أظن عبيهم لقب «المؤلفة قلوبهم». وقد أعطى رسول الله ﷺ كل واحد من هؤلاء مائة بعير، وأعطى غيرهم أيضاً مثل ذلك أو دون ذلك، ولكنه لم يعط الأنصار شيئاً، فغاث بعضهم من ذلك واتصل سعد بن عبادَةَ بالرسول ﷺ وكسبه في هذا الأمر بيده عن الأنصار، فجمعهم الرسول ﷺ وقال لهم «يا معشر الأنصار، ما قاله بلغني عنكم وموحدتو وحدتموها في أنفسكم؟ ألم أتكم ضُلَّالاً فهداكم الله! وعالة فأغناكم الله! وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا «بلى، لله ورسوله الحمد والفصل» ذلّ! أما والله لو شتم لقنتم صدقتم ولصدقتم، أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فصرناك وطريقتنا فأورثناك وعائلاً فأسيتناك، وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لُعاة^(١) من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكُم! فوالذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار، ولو سلك الناس شيعاً وسلكت الأنصار شيعاً لسكنت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار! فبكى الأنصار حتى أحصلوا لحاهم وقالوا. رضىنا برسول الله قسماً وحطاً^(٢)

ثم وصل رسول الله ﷺ مسيره إلى مكة من الجعرانة بعد الانتهاء من تقسيم عدايم هوزر ليؤدي لعمرة، وكان ذلك في ذي القعدة، فلما فرغ منها عاد إلى المدينة واستحب على مكة عتاب بن أسيد^(٣)

إسلام ثقيف

عندما رفع رسول الله ﷺ الحصار عن الطائف في ذي القعدة سنة ٨هـ قل له بعض أصحابه يا رسول الله! ادع عليهم! فقال «اللهم اهد ثقيفاً واثب بهم»^(٤) وحين «مصرف الرسول ﷺ عن الطائف اتبع أثره سيد من سادات ثقيف وهو عروة بن مسعود

(١) اللُعاة: لغة ناعمة شئ بها ذرة الحبة الشا وناعها

(٢) تابع مطوي، ج ٣، ص ٩٣-٩٤، وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٧-١٤٨

(٣) عتاب بن أسيد بن أبي الصخر بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أسلم يوم فتح مكة انظر أسد الغابة

لابن الأثير ص ٥٥٦

(٤) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٤

فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم ورجع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام، فقبضوه^(١) وهكذا استمر أهل ثقيف على عبادهم بعد انصراف الرسول ﷺ عنهم حتى يدؤوا يدركون أنه لا حدود من استمرارهم على ذلك

فقد استسبب هوان رسول الله ﷺ كما أشرنا، وانضم قائده مائت من عوف إلى معسكر المسلمين بعد أن أعلن إسلامه، فأصبح حرباً على ثقيف وقد رأيت كيف كان يقنعهم بالمقاتل التي أسلمت حول الطائف حتى صين عليهم. ولا بد من أن يشير فصلاً عن ذلك إلى أن الإسلام بعد فتح مكة بدأ ينتشر انتشاراً واسعاً ومطرداً في كل أرجاء شبه الجزيرة العربية، فأصبحت ثقيف جزيرة معزلة في محيط يحوي مكة الإسلام

من أجل ذلك اجتمع سادة ثقيف وتشاوروا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: «ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع به»^(٢) وقال أحد رعيهم: «قد أسلمت لعرب كلها وليس لكم بحربهم طاقة، فاطفروا في أمركم»^(٣) ومن هذا التقوى على رسول وقد إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه الإسلام والبيعة وعدم قدم وقد ثقيف على رسول ﷺ عرضوا عليه أن يسلموا بشرط أن يترك لهم «ثلاث» ثلاث سنين وأن يعفيهم من الصلاة^(٤) وقد أبى الرسول ﷺ أن يدع لهم الثلاث يوماً واحداً، ولكنه أعتد لهم من كسر أو ثابهم بأيديهم وأرسل إليهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة ليقيم بذلك وأما الصلاة فقد أكد لهم أنها جوهر الدين، «فلا خير في دين لا صلاة فيه»^(٥) وعندما أذهب ثقيف لدعوة الحق ودخلت في دين الله، وكان ذلك في (رمضان سنة ٩هـ)^(٦) أي بعد رفع الحصار عنها بحوالي عشرة شهور

٧- غزوة تبوك رجب ٩هـ (أكتوبر - نوفمبر ٦٣٠م)

حدث أول حركته مباشرة بين المسلمين والروم في ميدان القتال في «مؤتة» كما أشرنا قبل ذلك ولم يكن في حسان المسلمين حينذاك أنهم سيحاربون الروم بل

(١) تاريخ طبري ج ٣ ص ٩٦ ٩٧

(٢) مصدره ص ٩٨

(٣) مصدره ص ٩٩

(٤) تاريخ طبري ج ٣ ص ٩٧

عرب الشام الذي دأبوا على استغراهم وقد أدرك المسلمون بعد تحربة مؤنة أن الروم قد برلوا بظلمهم في ميدان الصراع ضد الدولة الإسلامية وأصبحوا يصنعون ذلك في اعتناهم دائماً

وقد ترمب لاساء إلى الرسول ﷺ أن هرقل (إمبراطور الروم) بعد لعدة لحرب المسلمين وأنه حشد حشوده من الروم والقبائل العربية الثمالية له ليرحف على المدينة^(١) ولم يكن هناك ما يمنع من صدق هذه الأساء بعد ما شهده المسلمون من الروم في مؤنة ومن هنا أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، «ودئت في رمس عسرة من اللس وشقة من الحر وحذب من البلاد»^(٢) وكان من عدة الرسول ﷺ عندما كان يحرج في عروء ألا يذكر المسلمين وجهته، ولكنه لم يفعل ذلك في عروء توك حيث يهب للناس «شدة الشقة وشدة الرمان وكثرة العدو الذي يضيد له لياهب اللس لذلك أهنته، فأمر الناس بالجهار وأحمرهم أنه يريد الروم»^(٣) وقد تحدث بعض المافقين وتحدثوا عن رسول الله ﷺ وشطوا الناس عن المشاركة في الجهاد وهم المحدثون الذين برز فيهم قوله تعالى ﴿فَسِرْحَ الْمُحْتَفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ جَنَفَ رَسُولِي نُو وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تُبْعَثُوا فِي الْحَرْبِ قُلْ نَارُ خَمَسَةِ أَشْدَّ حَرًّا نُو كَانُوا يَقْفَهُونَ ﴿١﴾ فَلْيَصْحِكُوا فَلْيَلَا وَلْيَسْكُوا كَثِيرَ حَرَّةٍ يَسَا كَانُوا تَكْفِيُونَ﴾ [التوبة ٨١، ٨٢]

ودعم هذا الموقف المتخاذل من المتافقين فقد استجاب الكثير من المسلمين لنداء رسول الله ﷺ فخرج معه منهم ثلاثون ألفاً، وكانت الحيل عشرة آلاف فرس^٤ وأبقى بعض المسلمين على هذا الجيش الذي أطلق عليه «جيش العسرة» أموالاً طائلة^٥، ومن هؤلاء عثمان بن عفان الذي ترح بألف دينار عيلاً وثلاثمائة بعير بكل ما تحمل^(٦)، فقد ﷺ «اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض»^(٧)

(١) الواقدي المعدي، ج ٣، ص ٩٩٠

(٢) تاريخ الطري، ج ٣، ص ١٠١

(٣) المصدر عنه، والمصنفه فيها وانظر أيضاً صحيح البخاري، ج ١، ص ١ ويصدق أي يصدق

(٤) انداري أساء الأشراف، ج ١، ص ٣٦٨

(٥) من المصدر والمصنفه وانظر أيضاً المعدي ج ٣، ص ٩٩١

(٦) ابن الأثير اكامل، ج ٢، ص ٢٧٧، وابن القيم زاد المعاد، ج ٣، ص ٣

(٧) سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٧٢

حرج لرسول ﷺ من المدينة في رجب سنة ٩هـ^(١) (أكتوبر ٦٣٠م) عن رأس حيشه موجهة صوت لشاء حتى وصل إلى توك شمال الحجاز عن مشارف الشام في شعبان من العام نفسه وقد أقام في توك بصح عشرة ليلة^(٢)، وذلك عرف أن الروم وحدهم من العرب لم يفرحوا بجيوشهم لمقاتلة المسلمين كما أشيع قبل ذلك، فاستشار أصحابه في مواصلة التقدم نحو الشمال أو العودة إلى المدينة، فدل له عمر بن الخطاب «ب رسول الله، إن الروم جمعاً كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دبت منهم حيث ترى، وقد أفرعهم دُؤُوك، فلو رجعت هذه الأمة حتى ترى أو يحدث الله ﷻ في ذلك أمراً»^(٣) وقد عرت مشورة عمر عن حقيقة الموقف، ذلك أن الرسول ﷺ لم يخرج بجيشه ليحارب الروم بل ليصد هجومهم المتوقع، ويوقف رحلتهم نحو المدينة فلما تبين له أنه لا توجد حشود لروم تهدد أمن المدينة لم يجد مبرراً لاستمرار سيره نحو الشام وهي صوء ذلك لا تكدر برئ مسداً بعد بدعيه بعض المؤرخين العربيين من أن الرسول ﷺ كان يرمى من وراء قيامة عروة توك إلى تنفيذ خطة توسعية في بلاد الروم^(٤) ولو صح هذا لرغم لما احذر الرسول ﷺ لسعيد خطته تلك أكثر الأوقات بعداً عن ملازمة ظروف المسلمين مما يؤكد أن هذه عروة أمسية الضرورة، ولم تُغلها الرعة في تنفيذ خطة توسعية^(٥)

وقد انتهى الرسول ﷺ فرصة وجوده توك فأراد أن يصعب حذاً لما كان يعرض به المسلعون من تهديد على يد القبائل العربية الحوالية للروم وهي التي كانت تقطن على طريق الشام، ومن هنا أرسل خالد بن الوليد على رأس قوة مكونة من أربع مائة وعشرين فارس إلى دومة الجندل، وهي تعد عن المدينة ثمان مائة كيلو متر تقريباً في اتجاه الشمال وقد استولى خالد على دومة الجندل وأسر ملكها أكيدر بن عبد الملك السكوني الكندي وقدم به على الرسول ﷺ فصالحه عن الجزية وأثنى أهل دومة الجندل، وكتب لهم كتاباً بذلك وعندما علم أهل المستوطنات القريبة بشأن هذا

(١) سلاوي أسد لأشرف ج ١ ص ٣٦٨ وتاريخ السعوي، ج ٢ ص ٧٦

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٠٩ وفي المعاري (ج ٣، ص ١٠١٥) أنه أقام بها عشرين ليلة

(٣) الرازي المعاري، ج ٣، ص ١١١٩

(٤) Brockelmann, History of the Islamic Peoples, P 34

(٥) جرد من بعض رجع إلى د عبد الرحمن سائد المسلعون وروء في عصر النبوة، ص ١١٤ ١١٦

الصحيح، تصلو برسول ﷺ وسألوه أن يصالحهم، فأجابهم إني ذلك، وهم أهل أمة، وأدري، ومفت، والحرباء وقد تعهد الجميع بدفع جزية سنوية لرسول ﷺ مقابل أمانهم على أنفسهم وأموالهم^(١١) وهكذا يمكن القول إن عروة توك حققت سيحة مهمة وهي تأليف عدد من القبائل العربية على حدود الشام وكف الكثير من أذاها عن المسلمين، وكان ذلك مقدمة لإسلام معظمها فيما بعد والتجدير بالملاحظة أن هذه العروة كانت آخر عرورات الرسول ﷺ

وبعد هذا الإنجاز العظيم عاثر الرسول ﷺ توك متوجهًا صوب المدينة فوصفها في رمضان من لعمري التاسع للهجرة

(١١) حول صلح رسول ﷺ مع أهل دومة الجندل وأبنة وأدري ومفت والحرباء راجع إلى شاذلي صبحي، بغداد، ص ٧١، ٧٤، وراجع أيضًا إلى د عبد الرحمن سالم المرجع السابق، ص ١١٦، ١١٨

نسخة إلكترونية متاحة مجاناً غير مأذون بطباعتها للاستخدام الشخصي أو التجاري

الفصل العاشر

دخول شبه الجزيرة العربية في الإسلام (من عام الوفود إلى وفاة الرسول ﷺ) (٩-١١هـ - ٦٣٠/٦٣٢م)

قدوم وفود العرب إلى المدينة معلنة إسلامها منذ العام التاسع الهجري بعد العام لتداعى للهجرة معلناً يادراً في مسار الدعوة الإسلامية، فقد كان بداية مرحله جديدة من الانتشار الواسع لدعوة الإسلام في جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية. ولا عروء، بعدما حل ذلك العام كانت أهم مراكز الكيد للإسلام والتأمر صده قد تهوب، فقد منسلح مكة معقل الوثنية في العام الساس، وبذحر هورن وأدعت للإسلام. أما ثيف بعد جاء في رمضان من العام التاسع أعلن دخولها في دين الله بعد أن كنت حرّة صروماً على الإسلام وأهله. وقبل هؤلاء حمقاً كان يهود بني قيقاع وسي النصر وسي قريظة قد أعطوا بأيديهم، ثم لحق بهم يهود خيبر في العام الساس للهجرة. ولكن لا بد أن نؤكد هنا أن إسلام قرش كان أهم هذه الانصار. جميعاً. فما لا شك فيه أن قريشاً كانت أقوى عفة في طريق الإسلام منذ ظهوره حتى انضوائها تحت لوائه. يقول ابن هشام روايه عن ابن إسحاق: «ولما كنت العرب ترتضى للإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ. وذلك أن قريش كنو، بام الناس وهاجهم وأهل النيب الحرام وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم ﷺ وقدة العرب، لا يكرهون ذلك، وكانت قريش هي التي بصت لحرب رسول الله ﷺ وحلافه. فمما فتحت مكة ودانت له قريش ودّجها الإسلام عرفت العرب أنه

لا طافة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كاهن فذل
الله ﷻ أقواحا بضربون إليه من كل وجه^(١)

أدرك العرب إذن بعد استسلام قريش وبعد الانتصارات الساحقة التي أحررها
المسلمون أنه من الاحترام بهم أن يصوروا تحت لواء هذا الدين، فهو دين الله إلى
الانس كافة، ولا حدود من الاستمرار في تجاهله والإعراض عنه ومن هذا بدأت
الفتائل المحمّدية تعث وفودها إلى الرسول ﷺ معلنة إسلامها وقد شهد العام التاسع
مدية هذه الوفود، ومن ثم عرف العام الوفود^(٢) فقد وفد فيه على الرسول ﷺ وفد
سبي تميم، وفيهم حاجب بن ذرارة، والأقرع بن حابس، والزبير بن بدر في عدد
عظيم من سبي تميم^(٣) وقد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجاب أن اخرج إني
بنا محمد، فدود بصياحهم، فزل فيهم قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا
أَعْيُنَهُمْ وَلَا تُعْقِبُوا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ السَّيِّئُونَ ۚ﴾^(٤) وكان منهم صفوان بن يحيى
[الحجرات ٤، ٥]^(٥)، كما وفد على الرسول ﷺ وفد من أسد وقيلوا أتيناك قبل أن
ترسل إني رسولاً^(٦)، فأنزل الله قوله ﴿يَسْأَلُونَكَ لِمَ أَتَيْنَا هَٰذَا هَٰذَا قُلْ إِنَّمَا
أُتِيَ بِلَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ إِلَٰهَهُمُ اللَّهُ ۚ فَهُمْ عَلَىٰ آلِهِمْ يَفْهَمُونَ ۚ﴾^(٧)
العام التاسع أيضاً وفود بهراء ومسي فرارة ومسي الشفاء ومسي سعد بن بكر^(٨) وكاب
ضماد بن ثعلبة هو واحد من سعد على الرسول ﷺ، وقد أسلم قومه جميعاً بإسلامه
عندهم رجع إليهم يقول ابن عباس: «فما سمعنا بوفاد قوم كان أفضل من ضماد بن
ثعلبة»^(٩) وفي العام نفسه أرسل ملوك حمير واليمن كتاباً إلى الرسول ﷺ يقولون فيه
بالإسلام، فكتب لهم كتاباً يذكر لهم فيه أن من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة واتى
الزكاة وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين، له ما

(١) سيرة أبي هشام، ج ٤، ص ٢٢٢

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢١

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٢ ٢٢٣

(٤) ورجع في تفسير لا يبرئ إلى الكشف للزمخشري، ج ٤، ص ٣٥٧ ٣٥٩

(٥) بر لاثر كدس ج ٢، ص ٢٨٧

(٦) تاريخ الطبري، ج ٢، ص ١٢٢ ١٢٤

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢٥

لهم وعية ما عليهم، وله دعة الله ودعة رسوله. وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني
فإن له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا نفس
عنه وعية الحرية. * وأرسل إليهم من أصحابه جماعة عن رأسهم معد بن حبل
ليقتلهم في الدبر ويجمعوا صدقاتهم^(١).

ولم تنقذ الوفود بإنهاء العام التاسع، بل إنها ازدادت تدفقاً في العام العاشر
فمن بين الوفود الكثيرة التي قدمت على الرسول ﷺ مقرة بالإسلام في ذلك العام وفد
الأرد بقيادة ضرّد بن عبد الله، ووفد مراد بقيادة فروة بن سبيك المرادي، ووفد زبيد
بقيادة عمرو بن معد يكرب، ووفد عبد القيس بقيادة الحارود بن عمرو، ووفد كدة
بقيادة الأشعث بن قيس، ووفد طين بقيادة زيد الخيل الذي سماه الرسول ﷺ ريد
الحير، وقد سمع ما ذكر لي رجل من العرب مفصل ثم جاءني إلّا رأيته دون ما يقال
فيه إلّا ما كان من زيد الخيل فيه لم يُلغ فيه كل ما فيه^(٢) ومن بين وفود العام
العاشر أيضاً وفد بني حيفة، وفيهم مسيلمة بن حبيب الذي ادعى نسوة بعد
ذلك^(٣).

والحدير بالملاحظة هنا أنّ هذه الوفود والقائل التي تمتدّها لم تكن سواء في حقيقة
موقفها من الإسلام. فقد أسلم بعضها إسلاماً حقيقياً صادقاً في حين أسلم بعضها
الأخر إسلاماً سطحياً، مجازاة للتباز وركوناً للموعدة. وإلّا هذا الفريق الثاني يشير
قوله تعالى ﴿ذَبْ آذَنَابَ مَاسًا قُلْ لَمْ تَوَسُّوْا وَلَكِنْ فُتُوْا أَلْقَبْ وَلَمَّا يَدْحَى الْإِنْسُ فِي
قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات ١٤]. ولهذا كان هؤلاء سرعاناً إلى الردة بعد وفاة الرسول ﷺ. بل
إبعضهم ردت قبل وفاته. ومما يروى في هذا السياق أنّ مسيلمة بن حبيب كتب إلى
الرسول ﷺ كتاب بعد انصرافه من المدينة مع وفد بني حيفة يقول فيه «من مسيلمة
رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك، فإني قد أشركت في الأمر معك وإب
ل تصف الأَرْض وتقرّش تصف الأَرْض، ولكن قرّشاً قوم يعدون» فكسب إليه
الرسول ﷺ يقول «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع

(١) انظر ص ١٢٠ ١٢٢

(٢) انظر ص ١٢٥

(٣) لتزيد من التفاصيل حول وفود العرب ارجع إلى تاريخ الطبري ج ٣، ص ١٣٠ ١٤٥ ولتكمّل

لاين الأثير ج ٢، ص ٢٩٣ ٢٩٩، وراود المعاد لاس القسم، ج ٤، ص ٢٦ ٢٩

الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين^(١). وقد تساءل أيضاً قبل وفاة رسول الله ﷺ طليحة بن حويلد الأسدي، وشرح ثائراً في بلاد بني أسد، وكان طليحة أحد أخصاء وفد بني أسد الذين قطعوا على الرسول ﷺ بالمدينة^(٢) كما تساءل وثار أيضاً باليمن الأسود العنسي (وهو عهلة بن كعب)^(٣) قبل وفاة الرسول ﷺ^(٤). ولكن هذا لا يمسنا من تقرير حقيقة أساسية وهي أن الإسلام منذ العام التاسع أحد بصرب مجذوره في أرجاء شبه الجزيرة العربية وبثت قواعده، ودانت بلاد العرب في مجموعها لكلمة الله بعد أن قاومتها رماً، ولهذا ذكر الله رسوله ﷺ بهذا لفصل حين قال له في سورة النصر التي مرتب منى في حجة الوداع ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَزَيْتُ النَّاسِ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَعِذْ بِهِ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر ١-٢]

حجة الوداع (١٠هـ - ٦٣٢م)

في ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة تجهز الرسول ﷺ لنسج وأمر الناس بالجهاد له، ثم خرج مع أصحابه إلى مكة لخمسة ليالٍ يقرب من ذي القعدة^(٥). وقد عرف هذه الحجة «حجة الوداع» وسُميت بذلك بعد وفاة الرسول ﷺ^(٦) لأنه ودع فيها الناس ولم يبح بعدها. ويطلق على هذه الحجة أحياناً اسم «حجة الإسلام» لأن الرسول ﷺ لم يبح من المدينة غيرها، كما تسمى أحياناً «حجة السلاع» لأن الرسول ﷺ نطق شرع الله في الحج قولاً وفعلًا كما يقول ابن كثير^(٧). وبين الناس خلالها ما بينه من مبادئ الإسلام في سطته المعروفة التي تكرر فيها حديثه عن تنبؤ الدعوة^(٨).

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٤٦

(٢) ابن الأثير: أسد الساماء، ج ٣، ص ٩٥

(٣) ابن حزم: جمهرة أساطير العرب، ص ٤٠٥

(٤) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٤٧

(٥) الرازي: المعادي، ج ٣، ص ١٠٨٩، وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٧٢

(٦) البلاذري: أساطير الأشراف، ج ١، ص ٢٦٨

(٧) البداية والنهاية، ج ٤، ص ٩٩

(٨) تاريخ المعقبين، ج ٢، ص ١٠٩، ١١٢

فقد حطب ﷺ عندئذ حطة عميقة التأثير ، «وكان الذي يُنْعَمُ عنه معرفة رابعة من أمانة من حلف لكثرة الناس»^(١) ومما جاء في هذه الحطة قوله «أيها الناس اسمعوا، قولني، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم هذا، وسبقون ربكم فإيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عبداً فليؤده إلى من ابتاعه عليها، وإن كلَّ ربا موصوع، ولكم رؤوس أموالكم لا تطمعون ولا تظلمون قضي الله أنه لا ربا» أيها الناس، إن الشيطان قد ينس من أن بعد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم واستوصوا بالنساء خيراً فبينهم عندكم عوارب^(٢) لا يمكن لأصهار شيت، وربكم إنما أخذتموه بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فعفوا، أيها الناس واسمعوا قولني، فإني قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فس تنصروا، أبدًا. كتاب الله وسنة نبيه أيها الناس، اسمعوا قولني فإني قد بلغت، واعفوه تعفون كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم، انهم هل بلغت»^(٣)

هكذا، تنهر لرسول ﷺ فرصة هذا الجمع الحاشد في هذا الموقف المهيّب فأرر أهم ما في لإسلام من معاني وقيم كحرمة المماء والأموال وتحريم الرب وأهمية أداء الأمانات إلى أهلها وحقوق النساء وحسن معاملتهن وقيمة الأخوة الإسلامية، وهذه القيم والمعاني كانت مقررة ومؤكدة في الإسلام قبل حجة الوداع، ولكن لرسول ﷺ أراد أن يصي عليها من حلال هذا الموقف ما يريد لها قوة وتأكيداً

ويمكن القول إن دعوة الإسلام وصلت إلى عاينتها عند ذلك الوقت وتكملت الرسالة بأداء محمد ﷺ أمانة التبليغ رغم ما اعترض طريقه من صعوبات وعقبات، فمن عندئذ أو لرسول ﷺ ما زال معرفة قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فكانت هذه الآية آخر ما نزل من

(١) ابن الأثير، المحسن ج ٢، ص ٣٠٢

(٢) عوارب جمع عارة، وهي لأسير

(٣) تاريخ طبري ج ٣، ص ١٥٠ ١٥١ ونشر هذه الحف آيت مع بعض الاحلاف في كتابه في تاريخ

سمعون، ج ٣، ص ١١٠ ١١٢، والبخاري للروايد، ج ٣، ص ١١١١ ١١١٣

الفرق الكرم وكسب تنويجاً لذلك الصائ الطويل الذي حاصه رسول الله ﷺ في سبل تليغ كلمة الله. ويروى أن رجلاً من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب وهو خليفة فقال يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم أو عبداً معشر اليهود نزلت لاتحدث ذلك اليوم عبداً. قال. وأي آية هي؟ قال. قوله تعالى. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية. فقال عمر «والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزل فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم حجة»^(١)

ويروى أن عمر بن الخطاب يكنى حين نزلت هذه الآية، فقد أحس أنها نذير بقرب وفاة لرسول ﷺ بعد أن اكتمل الدين الذي أرسله الله به^(٢)

وفاة الرسول ﷺ (١٢ من ربيع الأول ١١هـ - يونيو ٦٣٢م)

بعد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة من حجة الوداع أخذ بعد العودة لإرسال سرية إلى بلاد الشام بهدف تأديب القبائل العربية الحوالية للروم هناك، وهي القبائل التي طال استعراذهم للمسلمين قبل ذلك، ولم تسجح سرية «مؤتة» في تأديبهم نظراً لما قدمه الروم لهم من عدد وعدة. ولم يكن وضع المسلمين في «توك» يسمح لهم بالتوغل شمساً بسبب الظروف القاسية التي أحاطت بهذه العروة. وقد تحدثنا عن استشهاد قادة المسلمين الثلاثة في مؤتة وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة. ولحق أن استشهاد هؤلاء كان سبباً في زيادة إصرار الرسول ﷺ على أن تُرسل بهذه القبائل العربية المعادية للمسلمين ما تستحقه من عقاب. وقد احتار قيادة هذه السرية أسامة بن زيد بن حارثة الذي استشهد أبوه في مؤتة، وكان هذا الاحير تعبيراً عن الهدف الذي أرادته الرسول ﷺ من إنقاذ لهذه السرية. وقد كان أسامة حينئذ صغير السن، في حدود العشرين من عمره^(٣)، وكان في جيشه حبة المهاجرين والأصهار، ولهذا اعترض البعض على إمارته، فقال ﷺ «قد بلغني أن أقواماً يقولون في إمارة أسامة، ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبل، وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة، وإنه لخليق لها، فأنفذوا بعث أسامة»^(٤)

(١) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٥، ص ١٥٧

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٩

(٣) ابن حجر الإصابه في تمييز الصحابة، ج ١، ص ٤٦

(٤) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٨٤

بعد أن أتم أسامة استعداداته تحرك في آخر صفر سنة ١١هـ عن رأس حيش مكور من ثلاثة آلاف مقاتل، وتقدم حتى وصل إلى «الجوف» عن بعد حوالي خمسة كيوم مراب إلى لثمان من المدينة، وهناك علم بمرض الرسول ﷺ فم يرح مكانه وقد تطور هـد المرض إلى وفاته ﷺ، فعاد أسامة إلى المدينة، ثم كان إنفاذ بعثه عن الوحه الذي أراحه الرسول ﷺ أول قرارات أبي بكر^(١).

وقد بدأ برسول الله ﷺ مرضه في الأيام الأخيرة من صفر سنة ١١هـ^(٢)، وكان مرضه الحمى، وقد اشتد به الوجد يومًا فقال لمن حوله «أهريقوا عني من سبع قرب من ماء شئ^(٣)» ولكن المرض لم يشعله عن الاهتمام بشؤون المسلمين، فقد كان حريص على مساعدة أحوار مسيلمة بالبيعة والأسود العسي باليمن وطليحة الأسدي سجد، فقد هتم برسالة الرسل إلى هؤلاء وغيرهم ممن بقصوا عهدهم وارتدوا عن الإسلام^(٤).

ويروي المؤرخون أن الرسول ﷺ حرج إلى أصحابه بعد أن اشتد المرض عليه، فحس على لمر ثم قال «إِنَّ عِبَادًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا مَا عَدَهُ فَأَخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ» فجمع أبو بكر إشارة الرسول ﷺ وعلم أنه يعني بهم نفسه، فكنى وقال «لن نقديك بأنفسنا وأبنائنا»، فقال ﷺ «عليك رسلك يا أبا بكر! انظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة في المسجد (أي النافذة إليه) فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدًا كان أفضل عندي في الصحبة يذامته» ثم قال «إني لو كنت متخذًا حليلاً لانتخذت أبا بكر حليلاً، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيما عنده»^(٥).

وعندما أُلغى المرض رسول الله ﷺ عن أن يؤم المسلمين في الصلاة عهد بعهـ المهمة إلى أبي بكر، ولكن عائشة حاولت أن تشيه عن قراره بقولها «إنا أبا بكر رحل

(١) حول ظروف بعث أسامة ونظراته وسنحه ارجع إلى د عبد الرحمن سائيم المصنوع ولزود في عصر سبوع من ١٢٧ ١٣٧

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٨٧

(٣) المصدر نفسه، ص ١٨٩

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٧

(٥) المصدر نفسه، ص ١٩٠ ١٩١، وسيرة ابن هشام ج ٤، ص ٢٢٧-٢٢٨

رفيق وإنه منى يقوم مقامك لا يطيع! فلم يتزحزح عن موقفه، وقد صلى أبو بكر
بالمسلمين ثلاثة أيام في أثناء مرض الرسول ﷺ^(١)

وقد نقل لرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى في منتصف نهار يوم الاثنين ١٢ من ربيع
الأول سنة ١١هـ (٨ من يونيو ٦٣٢م)، وكان في بيت السيدة عائشة، وعندما ثقل في
حجره نظرت في وجهه فبدأ نظره قد شخص وهو يقول «يا الرفيق الأعلى من
الحنة» فقلت عائشة: «خَيْرٌ فاحترت والذي بعثك بالحق»، وداست روحه
الطاهرة^(٢)

لم يكن من السهل على المسلمين أن يستوعبوا خبر وفاته ﷺ، وذلك لشدة
ارتباطهم به وحبيبهم له، وما حدث من عمر بن الخطاب يومئذ يوضح ذلك المعنى،
فقد روي عنه أنه قال: «إن رجلاً من المهاجرين يرعمون أن رسول الله ﷺ توفي وإن
رسول الله - ولله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فعاد
عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات. والله ليرجعن رسول الله فيقطع
أيدي رجاء وأرجلهم يرعمون أن رسول الله مات»^(٣)

ثم أقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس فقال أبو بكر: «عليك السلام يا عمر! ثم تكلم
أبو بكر في المسلمين فأقبلوا عليه، فقال بعد أن حمد الله وأشنى عليه: «أيتها الناس،
إنه من كان بعد محمداً فوئ محمداً قد مات، ومن كان بعد الله فوئ الله حي
لا يموت» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ قَلِيلٌ مَّا تَذَكَّرُونَ﴾^(٤)
فَقِيلَ نَقِيصَتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يَغْتَبِ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ نُمَسِّرَ لَهُ شَيْئاً وَسَيَعْلَى أَلْفُ
النَّجَّارِينَ﴾ [آل عمران ١٤٤]^(٥) يقول أبو هريرة: وكان أحد شهود ذلك الموقف

فعوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حتى تلاها
أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عن أبي بكر فبينا هي في أفواههم^(٦) عندئذ أدرك

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٩٧

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩٩ - ٢٠٠

(٣) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٠٠، وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٣٢٤

(٤) سورة ابن هشام، ج ٤، ص ٣٢٥

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها، وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٠١

الجميع أن رسول الله ﷺ قد فارقه، وكان عليهم أن يواجهوا مسؤولية نكث الملاحظة الدقيقة فكروا على مستوى الموقف واحتمعوا على بيعة أبي بكر في اليوم نفسه الذي توفي فيه الرسول ﷺ

صفة رسول الله ﷺ ونبله عن أخلاقه

كان رسول الله ﷺ طاهر الوضاعة، أبيض اللون مشرباً بحمرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، في عينيه دَعَجٌ^(١)، وفي لحيته كثافة، حلو المصطن، عريض الصدر والكف، بعيد ما بين المكيين، أشعر المذراعين والمكيين وأعاني الصدر، رحب الراحين، ذريع لمشية، إذا مشى كأنما يحيط من صب^(٢)، وإذا ألتفت ألتفت معاً، حادى الطرف، حُلٌّ نظره الملاحظة^(٣)

وقد كذب أحلاق الرسول ﷺ انعكاساً صادقاً لمبادئ الدين الحنيف الذي دعا إليه وباضل في مسيله، ومن هنا كذب شخصيته مثلاً يحتذى أمام المسلمين جميعاً، وهكذا وصفه له سبحانه حين قال ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَيَوْمَئِذٍ يُخْرِجُ النَّكَرَ وَتَوَكَّلَ اللَّهُ كَبِيرًا﴾ [الأحزاب ٢١]

لقد كان لرسول ﷺ طولان حياته مثلاً للأمانة والصدق، وقد رأيت كيف كان يقب قتل العترة بالأميين، وقد لُتِبَ أيضاً بالصادق لأنه ما كذب قط، بل إن كذا قريش شهدوا بذلك حين دعاهم إلى الإسلام وقال لهم «أرأيتمكم لو أحرمتكم أن حيلة تحرر سمع هذا لجبل، أكنتم مصدقي؟» فحاجوه ما جروا عبيك كذا^٤

وكان الحق طبيعة متأصلة في نفس الرسول ﷺ وقد كان يعفو وهو أقدر ما يكون على العقوبة لقد عفا عن عتاة المشركين من قريش بعد فتح مكة، وكان يوسعهم أن ينتم منهم أفسى انتقاء حراء كيدهم للإسلام ويعيهم على المسلمين، ولكنه قال لهم نكث الكلمة لافية «انهبوا فأنتم الطلقاء»^٥ ونصحه عائشة بقولها «ما بيل مه شيء قد فيتقم من صاحبه إلا أن يُتَهَكَّ شيء من محارم الله فيتقم لله ﷻ»^٦

(١) الدَّعَجُ شفة سوداء الصبي مع سعتها، وهي دعاء

(٢) الضب ما اعتدل من الأرض

(٣) تاريخ ابن عسك، ج ٢، ص ١١٦

(٤) صحيح مسلم شرح النووي، ج ١٥، ص ٨٤ ٨٥

وكان ﷺ لبين المريكة رَحَبَ الصدر، ويروى في هذا السياق أن الرسول ﷺ قال للناس في مرض موته: «أيها الناس، من حشي من نفسه شيئاً فبقم أدعُ له»، فقام رجل فقال يا رسول الله، إني لكذاب وإني لصافى، وما شيء إلا وقد جيتُ فقال له عمر ابن الخطاب فصحب نفسك أيها الرجل! فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب، فُضُوح الدنيا أهون من فُضُوح الآخرة! اللهم ارزقه صدقاً وإيماناً وصبراً أمره إلى خيره» ولو سم يكر الرسول ﷺ بهذا القدر من الميول والسماحة وسعة الصدر لأعرض الناس عن دعوته. وقد سجل القرآن الكريم هذا العجايب في شخصيته في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَحْنُ بِدَعْوَةِ رَبِّهِ أَلَسْتُ بِرَسُولٍ﴾ (آل عمران 109)

أما لعدو فقد كان ﷺ بمودحاً متكاملًا له، وكثيرة هي الأمثلة التي يمكن أن تقدم في هذا السياق، فمن ذلك ما يروى من أنه حرج في مرض موته إلى المسجد فقال للناس: «من كتب حلدتُ له طهرًا فهذا طهري فليستقد منه، ومن كتب شعث له عرصٌ وهذا عرصي فليستقد منه، ألا وإن الشجاء ليست من طغي ولا من شأبي، ألا وإن أحكم إنني من أحد مني حقًا إن كان له، أو حشني فقيب الله وأن طيب النفس»^(١)

وقد كان هذا في حطام الدنيا رغم ما أُتيح له من كل أسباب الوفرة والثراء. دخل عليه عمر بن الخطاب يومًا وهو على حصير قد أثر في جسده فقال يا سيدي، لو أتحدث مرثًى أوثر من هذا! فقال «مالي وللدنيا ما مثلي ومثل الذي إلا كركب سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها»^(٢)

وكان أحوال الناس كما يروي ابن عباس، «وكان أجود ما يكون في رمص حين يفقه جبريل فيدسه القرآن، فطرسوا الله أجود ما يحير من الريح المرسفة»، وهو القائل: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط مُنْفًى حديقًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلقًا»^(٣)

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٩٠

(٢) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ١٨٩-١٩٠

(٣) ابن كثير البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢٤٨

(٤) انصاف ص ٦٤، ج ١، ص ٤٤

وكان جم التواضع رقيق المعاملة لخدمه وأهل بيته، جاءه رجل فقال له: «سيدنا سيدنا» فقال ﷺ: «لا يستهويكم الشيطان. أنا محمد بن عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله» وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب أن لرسول ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»^(١) وكان الرسول ﷺ لا يحب أن يقوم له أصحابه، وكان أصحابه يرون أنه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك^(٢) وقد طالت خدمة أس من مالئ للرسول ﷺ فكانت معاملته له غاية في التواضع والرفقة يقول أس: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر من صبيح وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قص بقعاي من ورائي فطرت إليه وهو يصحك، فقال: يا أباي، أذهبت حيث أمرتك؟ فأتيتهم أنا أذهب يا رسول الله ﷺ قال أس: والله لقد خدمته تسع سنين ما عفتني قال لشيء صنعت لم يعف بكنا وكذا»^(٣) ولا شيء تركته هلاً فعف بكنا وكذا»^(٤) وقد مثب عائشة كيف كان رسول الله ﷺ في أهله فقالت: «كان أبيي الناس وأكرم الناس، وكان صديقاً سائماً»^(٥) وسئلت أيضاً هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ فقالت: «نعم، كان يخصف نعله ويخيط ثوبه...»^(٦)

وكان من حقيقه الوفاء والرفق بالجميل ورده إلى أهله، وسع في ذلك عادة لا تداني، وقد رأينا كيف ظل محلياً لذكرى حديجة طوال حياته، ولم يس لها موقفها العظيمة معه قبل المنة وبعدها وكيف عصف من عائشة عندما قلب له «قد أندلث لمة حيراً منها» وأنكر عليها قولها: «وكان موقفه من أبي بكر تعبيراً عن روح الولاء عبده وحمي الجليل لأهله، وهو القائل في مرض موته: «لو كنت محدداً حديلاً

(١) المصدر نفسه، ج ٦، ص ٤٦

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٩

(٣) صحيح مسلم شرح النووي، ج ١٥، ص ٧٠ ٧١

(٤) إسناده وانتهاه، ج ٦، ص ٤٦

(٥) المصدر نفسه والنصحه نفسها

لأنه أحب أبا بكر حليلاً، ولكن صحة وإحاء إيمان حتى يجمع الله بين عبده
 وكان مضروب المثل في الشجاعة والثبات عند الشدائد، يروى عن عبيد بن
 أبي طالب أنه قال: لما كان يوم بدر اتقيا المشركين رسول الله ﷺ، وكان أشد
 الناس بأساً^(١) وقد تقدم في غزوة حنين أنه لما فر جمهور أصحابه ثبث في مكانه
 كالطود في عرقيل من أصحابه، وعندما رأى المسلمون المهرمون عليه رسولهم ﷺ
 من قوة وثبات رجعوا فحملوا على المشركين، فكانت لهم الكرة عليهم، وكان ذلك
 بفصل شجاعة لقائد ورياسة حاشه

ويطوب ما لحدث لو أردنا أن نتقصى جميع جواب العظمة في شخصية الرسول ﷺ،
 ولكن نفس هذا تلك الكلمات المليحة المكررة التي قائلها عبيد بن أبي طالب هي
 وصف أخلاق لرسول ﷺ حيث ذكر أنه كان «أجراً الناس صديقاً، وأجود الناس كفاً،
 وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ببيعة، وأليهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من ربه
 بديهة هده، ومن خائفه معرفة أخيه»^(٢) وصدق الله العظيم إذ يقول وهو يُجمل كل
 الجواب الحقيقة في رسوله ﷺ ﴿وَلَيْكَ لَعَلِّي خُلِّي عَظِيمٌ﴾ [الفتح ١٤]

(١) المصدر نفسه، ص ٢٩

(٢) البلاذري أساب الأشراف، ج ١، ص ٢٩٢

قائمة المصادر والمراجع

أولاً. العربية والمترجمة

أرمسترونج (كارين)

سيرة لبي محمد ترجمة د. فاطمة نصر. ود. محمد عاني. كتاب مطور
(١). القاهرة ١٩٩٨م

ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد)

أسد لعدة في معرفة الصحابة دار الشعب. القاهرة ١٩٧٠م

للكامل في التاريخ دار صادر بيروت. ١٩٧٩ ١٩٨٢م

اللباب في تهذيب الأنساب. دار صادر. بيروت ١٩٨٠م

الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين)

الأعاني. الأحرار من ١ إلى ١٦. نشر المؤسسة المصرية العامة لتأليف

والترجمة والطباعة والنشر. القاهرة ١٩٦٣م. والأجزاء من ١٧ إلى ٢٢. نشر الهيئة

لعدة لكتاب. القاهرة ١٩٧٠ ١٩٧٣م

الأصفهاني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله)

حياة الأولياء وطلقات الأصفياء دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ)

أمين (الدكتور أحمد)

فجر الإسلام. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٥٩م

البخاري (محمد بن إسماعيل)

صحيح لمحمدي دار الشعب. القاهرة (دون تاريخ)

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)

أساس لأشرف الجزء الأول بتحقيق الدكتور محمد حميد الله دار
المعارف لقاهرة ١٩٨٧.

فتوح البلدان. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩١م
بول (Fr. Buhl)

مادة «معث» في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية الجزء السابع دار
الشعب، القاهرة (دون تاريخ)
بول (Fr. Buhl) وعرفان شهيد

مادة «لحيمة» في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية الجزء السادس
عشر دار الشعب القاهرة (دون تاريخ)
بيستون (A F L Beeston)

مادة «أربعة» في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية الجزء الأول دار
الشعب، القاهرة (دون تاريخ)
حواد علي

المعقل في تاريخ العرب قبل الإسلام دار العلم للملايين بيروت، ومكة
لهضة سعد ١٩٨٠م
أبن حبيب (أبو جعفر محمد)
المحرر. حيدرآباد الدكن ١٩٤٢م

المعق في أخبار قریش بتحقيق حورثيد أحمد فاروق. حيدرآباد الدكن
١٩٦٤م

أبن حجر (أحمد بن عليّ المقلاني)
الإصابة في تمييز الصحابة دار الكتاب العربي بيروت (دون تاريخ)
أبن حزم (عليّ بن أحمد بن سعيد)
حميرة أساس العرب دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٣م
حسان بن ثابت

- ديون حسن بن ثابت الأمصاري شرح وتعليق عبد الرحمن السرقوقي دار
الكتاب العربي بيروت ١٩٩٠م
- الحنبلي (علي بن برهان الدين)
إنسان العيون في سيرة الأئمة الحامون (الشهير بالسيرة الحنبلية) نشر مصطفى
السلي الحسني القاهرة ١٩٦٤م
- حميد الله (الدكتور محمد)
مجموعة لوثائق السياسية في العهد السوي والحلقة الراشدة مكة الطبعة
الدينية. القاهرة (دون تاريخ)
- الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحفي بن العماد)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب دار الكتب العلمية بيروت (دون تاريخ)
- الغزاهي التلمساني (أبو الحسن علي بن محمد)
كتاب تحريخ الدلالات السمعية على من كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف
والصانع والعمالات الشرعية. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة إحياء
التراث الإسلامي. القاهرة. ١٩٩٥م
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)
كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر (الشهير بتاريخ ابن خلدون) دار الكتب
العلمية. بيروت ١٩٩٢م.
- ريكندورف (Reckendorf)
مادة «الأرقام» في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية الجزء الثالث دار
الشعب القاهرة (دون تاريخ)
- الزمخشري (محمود بن عمر)
الكشف عن حقائق عوامص التبريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل دار
الريدين للتراث. القاهرة ١٩٨٧م
- الزيات (أحمد حسن)
تاريخ الأدب العربي. دار نهضة مصر للطباعة والشر الطبعة الرابعة
والعشرون. القاهرة (دون تاريخ)

سالم (عبد الرحمن)

قراءة نقدية في كتابات موتجومي وات في السيرة السوية بحث منشور في
مجلة المسمم لعاصر، العدد ٨٢، نوفمبر ديسمبر ١٩٩٦ يناير ١٩٩٧م

كتاب سيرة النبي محمد للمستشرقة البريطانية كايز ارمسترونغ ترجمة الدكتورة
دائمة نصر ولدكتور محمد عباسي (عرض ودراسة) مقال منشور في مجلة كلية دار
العلوم، العدد ٢٣، يونيو ١٩٩٨م

المسممون ولوم في عصر السوء دار الفكر العربي القاهرة ١٩٩٧م

السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد)

الروص لألف في تفسير السيرة السوية لأم هشام، دار الكتب العلمية بيروت
١٩٩٧م

السيوطي (حلال الدين عبد الرحمن)

تاريخ لحناء، بتحقيق محمد أبو الفصل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة
١٩٨٨م

شلي (الدكتور أحمد)

التاريخ الإسلامي والعصارة الإسلامية الجزء الأول مكتبة النهضة المصرية
القاهرة ١٩٦٤م

الخضري (محمد)

بور ليقين في سيرة سيد المرسلين دار مهر النيل للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة (دون تاريخ)

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)

تاريخ لرسول والملوك (الشهير بتاريخ الطبري) بتحقيق محمد أبو الفصل
إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله)

فوح مصر وأخبارها، بتحقيق تشارلر توري، نيويورك ١٩٢٢م
العقاد (الأستاذ عباس محمود)

مطبع لبور أو طوابع البعثة المحمدية المكتبة العصرية بيروت (دون تاريخ)
علي (محمد كرد)

حفظ الشام . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٩م

ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)

المعارف تحقيق الدكتور ثروت عكاشة الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة ١٩٩٢م

القنقشندي (أحمد بن علي)

صح الأعشى في صناعة الإنشا . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والطبعة والشر . القاهرة ١٩٦٣م

ابن القيم (محمد بن قيم الجوزية)

رد المعاد في هدي حير العباد . مكتبة مصطفى الباي الحلبي . القاهرة ١٩٥٠م

الكتبي (محمد بن شاکر بن أحمد)

عيون لتواريخ الحرم الأول تحقيق حسام الدين القدسي مكة النهضة
المصرية . القاهرة ١٩٨٠م

المسعودي (علي بن الحسين)

مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة
التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٤٨م

مسلم (أبو الحسين بن الحجاج)

صحيح مسلم بشرح النووي . دار الريان للتراث القاهرة ١٩٨٧م

ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي)

لسان العرب . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩م

مؤنس (د . حسين)

أطلس تزيين الإسلام الزهراء للإعلام العربي القاهرة ١٩٨٧م

نولدكه (تيودور)

أمرء حسن ، ترجمة الدكتور مدني حوري والدكتور قسطنطين ريني بيروت ١٩٣٣

ابن هشام (عبد الملك)

سيرة النبي ﷺ (الشهيرة بسيرة ابن هشام) تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد. دار الهداية. القاهرة (دون تاريخ)

هيكل (الدكتور محمد حسين)

حياة محمد، دار المعارف القاهرة ١٩٨١م

الواقدي (محمد بن عمرو بن واقد)

المعري تحقيق الدكتور مارسدن جونز. عالم الكتب. بيروت ١٩٨٤م

ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي)

معجم لادن تحقيق فريد عبد العزيز الجدي دار الكتب العلمية بيروت
١٩٩٠م

المقبوي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر)

تاريخ ليقبوي دار صادر بيروت ١٩٩٢م

ثانيًا المراجع الأجنبية

Ali (S A Meer)

A Short History Of The Saracens London, 1961

Brockelman (V)

History Of The Islamic People London and Henley 1980

Glubb (J B)

The Great Arab Conquests London, 1963

Grunebaum (G E Von)

Classical Islam London, 1970

Hitti (Ph K)

History Of The Arabs. London, 1970

O Leary (De Lacy)

History Of Arabia Before Muhammad Lahore 1989

Trimingham (J S)

- Christianity Among The Arabs In Pre-Islamic Times. Librairie du Liban, 1979.
- Watt (W. M.)
- Muhammad at Mecca. Oxford, 1953.
- Muhammad at Medina. Oxford, 1956.
- Muhammad: Prophet and Statesman. Oxford, 1961.



عالم الأدب
للترجمة والتأليف

- (١) رحلتي إلى كشمير.. مشاهدات موثقة بالحرف والصورة... سالم القحطاني (٥٨)
- (٢) ظل النديم..... وجدان العلي (٥١٠)
- (٣) التوجيه الأدبي..... أحمد أمين (٥١١)
- (٤) ماهية الرواية..... د. الطيب بو عزة (٥١٦)
- (٥) أوراق العشب (والت. ويتمان)..... ترجمة: ماهر الطوخي (٥١١)
- (٦) الدخول إلى الآداب الأوروبية..... فولاد الراعي (٥١١)
- (٧) الدخول إلى الفلسفة (أرفلد كوليه)..... ترجمة: أبو العلا عفيفي (٥١٤)
- (٨) مشكلات الفلسفة (برتراند راسل)..... ترجمة: أراك محمد الشوشان (٥٨)
- (٩) جسر سان لويس راي (نورتن وايلندر)..... ترجمة: فاسم حسن درار (٥٧)
- (١٠) عالم جديد شجاع (آلدوس هكسلي)..... ترجمة: مروة سامي (٥٢٢)
- (١١) الدم الحكيم (فالانري أوكونور)..... ترجمة: عبد النعم العبيد (٥١١)
- (١٢) رسالة في تشاة اللغة والمجاز..... رضا محمد عزيز زيدان (٥٦)
- (١٣) دروس في الفلسفة..... يوسف كرم - إبراهيم مذكور (٥٢٠)
- (١٤) المعلقات العشر..... ضبطها: أحمد حمدي عبد الباقي (٥٨)



عالم الأدب
للترجمة والنشر

- (١٥) الأنسة القلوب الوحيدة ترجمة، خالد بن الهدي (٥٤)
- (١٦) الخبيثة محمود توفيق (٥٦)
- (١٧) السيد الرئيس (ميغيل أنخل أستورياس) ماهر البطوطي (٥٧)
- (١٨) عمالقة الأدب الغربي (برتون راسكو)
..... ترجمة، دريني خشبة - أحمد قاسم جودة (٥٢٠)
- (١٩) فلسفة الحداثيين والمعاصرين (آ. وولف) ترجمة، أبو العلا عفيفي (٥٤)
- (٢٠) أيامي في برلين (درعمي في بلاد الفرنجة) د. محمد متولي (٥١٠)
- (٢١) الحياة.. دليل إرشادي تحرير، أحمد سالم (٥٩)
- (٢٢) همسات ليلنت إشراق الجزار (٥٤)
- (٢٣) خلف أسوار المدرسة عمار سليمان (٥٧)
- (٢٤) أباطرة الإعلام العربي ترجمة، فهد حستين (٥١٠)
- (٢٥) يوم الجراد (ناتانييل ويست) ترجمة، وحاب لحمر (٥٨)
- (٢٦) مواويل الفجر (فديريكو غرسية لوركا) ترجمة، ماهر البطوطي (٥٢)